

مكتبة الثقافة الشعبية - ٦

في سبيل الحق

أو
قصة هبات

تأليف

المراتما غاندى

ترجمة

محمد سامي عاسور



دار المعارف بمصر

**AN AUTOBIOGRAPHY
OR
THE STORY
OF
MY EXPERIMENTS WITH TRUTH.**

This is an authorized translation
by the permission of Navajivan
Trust, Ahmedabad—14.

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م.

شِبِيهُ الرُّسُلِ فِي الدُّنُو دَعَى الْحَقُّ وَفِي الزُّهْدِ
لَقَدْ عَلَّمَ بِالْحَقِّ وَبِالصَّبْرِ وَبِالْقَصْدِ

من قصيدة لشوقي في تحية غاندى

١ - مولدى - وبنوتى

ينتمى آل غاندى الى طبقة بانيسا ، وهى احدى طبقات الهند الاجتماعية ، وكانوا فيما يبدو يشتغلون بدالين فى اول أمرهم ، ولكن الأجيال الأخيرة منهم ، ابتداء من جدى ، لم يلبثوا أن أصبحوا رؤساء للوزارات فى عدد كبير من مقاطعات كائياواد ، ولا بد أن جدى اوتامشاندى ، أو أوتا غاندى وهو الاسم الذى كان يشتهر به ، كان رجلا ذا مبادئ ، فقد ألجأته المؤامرات فى دوائر الحكومة الى الهجرة من بورباندر ، حيث كان يشغل منصب رئيس الوزراء فيها ، والالتجاء الى جاناجاد . فلما كان هناك حياى أميرعا بيده اليسرى . ولاحظ أحد الموجودين هذه الفعلة النابية ، فلما طلب منه ايضا عن هذا السلوك كان رده : « ان يدي اليمنى قد ارتبطت من قبل ببورباندر » .

وقد تزوج أوتا غاندى للمرة الثانية بعد أن فقد زوجته الأولى ، وكان له من الأولاد ستة ، أربعة منهم من زوجته الأولى واثنان من الثانية ، كان خامسهم كرمشاندى غاندى ، أو كايا غاندى كما كان يطلق عليه ، وسادسهم تولسيداس غاندى ، وقد رأس كلاهما الوزارة فيما بعد فخلف أحدهما الآخر فى هذا المنصب . وكايا غاندى هو أبى . كان عضوا فى محكمة راجستانيك ، وهى هيئة كان لها نفوذ كبير فى ذلك الوقت فى قض ما قد يشجر بين رؤساء العشائر وأفرادها من خلاف ، ثم عين بعد ذلك رئيسا للوزارة فى راجكوت ثم فى فانكانر ، وكان لما مات يتناول معاشا من ولاية راجكوت .

وقد تزوج كبا غاندى أربع مرات متتالية ، بعد أن ماتت زوجته السابقة فى كل مرة ، وقد رزق ببنتين من زوجته الأولى والثانية ، وأنجبت له زوجته الأخيرة ، بوتيلباى ، بنتا واحدة وثلاثة من البنين ، كنت أنا أصغرهم .

كان أبى بارا بأهله ، صادقاً شجاعاً جواداً ، ولكنه كان سريع الانفعال ، ولعله كان ميالاً بعض الميل كذلك الى الملذات الحسية ، فقد تزوج من زوجته الرابعة بعد أن كان قد جاوز الأربعين من سنى حياته . بيد انه كان فى عمله مبرأً من كل شائنة ، يشهد له أهله وغير أهله بالنزاهة وعدم التحيز .

ولم تستهو الثروة أبى على الاطلاق ، فلم ينصرف الى جمع المال ، ولم يترك لنا منه الا القليل .

كذلك لم يكن له حظ من التعليم سوى ما اكتسبه عن طريق التجربة ، فلم يصل فى تعليمه ، على أحسن الفروض ، الا الى الفرقة الخامسة من مدارس جوجيرات . وكان مبرأً من كل دراية بعلوم التاريخ والجغرافيا ، وان كانت تجاربه فى النواحي العملية قد أكسبته مكانة عالية وقدرة على حل أعقد الأمور وأكثرها استعصاء ، ومكنت له من سياسة أمور الناس . كذلك لم يكن له حظ من التعليم الدينى ، ومع ذلك فقد كان يملك ذلك النوع من الثقافة الدينية الذى يكتسبه كثيرون من الهندوس عن طريق زيارتهم للمعابد ، وحضور مجالس البحث الدينى . وفى أيامه الأخيرة بدأ يقرأ الجيتا بناء على مشورة أحد علماء البراهمة من أصدقاء العائلة ، فكان يجهر بصوته وهو يتلو بعض آياتها كل يوم فى أوقات الصلاة .

أما الأثر الذى خلفته أمى فى نفسى فهو الشعور بالقداسة والظهر .

فقد كانت شديدة الورع لم تفكر يوماً في أن تأكل قبل أن تؤدي صلاتها . وكان الذهاب إلى الهافيل ، وهو معبد أتباع مذهب فاشنافا ، واجباً تؤديه كل يوم ولا تتخلف عنه لعذر من الأعذار . ولست أذكر ، بقدر ما تعي ذاكرتي ، أنها انقطعت يوماً عن أداء فريضة « شاتورما » (١) . وكانت إذا نذرت لله نذراً لا تهدأ لها نفس حتى توفي به مهما كان شديداً . أذكر مرة أنها مرضت خلال صوم الشاندرايانا (٢) فما سمحت لمرضها بأن يعطينا عن أداء هذه الفريضة . ولم يكن بالأمر الذي يقنقها أن تتابع الصوم فترتين متتاليتين ، أو حتى ثلاثاً ، من غير طعام ، بل كثيراً ما كانت تصوم يوماً كاملاً من كل يومين متعاقبين فلا تتناول فيه طعاماً على الإطلاق . وقد حدث أن نذرت مرة نذراً لتمتحن عن تناول الطعام إلا إذا أبصرت الشمس في كبد السماء ، فكنا نحن الأطفال نقف في تلك الأيام لنترقب ظهورها حتى نرف إليها النبأ . وكلنا تعلم أن الشمس كثيراً ما تعز على الناس فلا تشرق عليهم بطلمتها عندما يبلغ فصل الأمطار ذروته . واني لأذكر تلك المرات التي كنا نجرى إليها فيها كلما ظهرت الشمس فجأة لنحمل إليها الخبز فكانت تخرج لتراها بنفسها فلا تكسأد تصل خارج الباب حتى تكون الشمس الهاربة من خلف السحاب قد عادت إلى مكنتها فتحرمها من تناول وجبتها ، فكانت تقول وهي مستبشرة النفس : « هذا لا يهم . إن الله لم يشأ أن أكل اليوم » ، ثم تعود أدراجها لتؤدي واجباتها المنزلية .

وكان لأمي حظ وفير من الذكاء ، فكانت تلم الماما واسما بشئون

-
- (١) فترة الصيام المقررة خلال الأشهر الأربعة الممطرة .
(٢) فترة أخرى من الصيام يزيد فيها الناس من طعامهم أو ينقصونه حسب نمو القمر أو نقصانه .

الولاية ، وكان نساء البلاط يقدرن فيها ذلك . وكثيرا ما كنت أفيد
من المزايا التي تبيحها الطفولة فأصحابها في بعض زياراتها ، ومازلت
أذكر كثيرا من المناقشات الحامية التي كانت تدور بينها وبين أم
صاحب مقاطعة تاكور الأرملة .

من ذلك الأئب ، ومن تلك الأم ، ولدت في يورباندر في ٢ أكتوبر
سنة ١٨٦٩ حيث أمضيت سنى طفولتى .

٢ - طفولتي

لا بد اننى كنت فى السابعة من عمري عندما ترك أبى مقاطعة جورباندر لكى يصبح عضوا فى محكمة راجستانيك . وفى راجستانيك أدخلت احدى المدارس الابتدائية . وانى لأذكر تلك الايام الأولى بوضوح ، وأذكر أسماء المعلمين الذين كنت أتلقى العلم على أيديهم ، بل أذكر خصائصهم وما كان يتصف به كل منهم . ولم يكن فى حياتي الدراسية ، وأنا فى راجستانيك ، ما يستحق تسجيلا ، فقد كنت تلميذا متوسط الذكاء . فلما بلغت الثانية عشرة دخلت المدرسة الثانوية . ولست أذكر فى تلك المرحلة أننى كذبت ولو مرة واحدة ، سواء على معلمى أو على زملائي التلاميذ . وكنت خجولا أهرب من المجتمع حياء من الناس ، فلم يكن لى رفاق غير كتيبى ودروسى . كنت أذهب الى المدرسة عند دق الناقوس ايذانا ببدء الدراسة ، فاذا انتهت الدروس عدت الى بيتى مهرولا . كانت هذه عادتي كل يوم . كنت أعود الى بيتى مهرولا بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، لأننى لم أكن أحتمل التحدث الى أحد ، ولا اننى كنت أخشى أن يسخر الناس منى أو يهزموا بى .

وقد وقع لى حادث خلال أحد الاختبارات وأنا فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية يجدر بى أن أسجله . فقد جاء المستر جايلز مفتش التعليم الى المدرسة فى زيارة تفتيشية ، وألقى الينا بخمس كلمات طلب منا أن نكتبها ليختبر قدرتنا على الهجاء . وكان من بين هذه الكلمات كلمة أسأت هجاءها ، وهى كلمة « غلاية » ، — Kettle — وحاول المعلم أن يلفت نظرى الى هذا الخطأ بغمزة من مقدم حذائه ،

ولكنى لم أفهم ما يريد ، لم أفهم أنه كان يريد منى أن أنقل الهجاء الصحيح من لوح التلميذ الذى يجلس الى جوارى ، فقد كنت أظن دائما أن عمل المعلم انما هو مراقبتنا حتى يمنعنا من الغش . وكانت النتيجة المحتومة أن جميع التلاميذ ، باستثنائي وحدى ، استطاعوا أن يأتوا بالهجاء الصحيح للكلمات الخمس . وهكذا كنت الغبى الوحيد بينهم ، وعبثا حاول معلمى فيما بعد أن يكشف لى عن غباوتى فلم أستطع يوما أن أحقق فى الغش .

على أن هذا الحادث لم ينقص من قدر معلمى فى نظرى مثقال ذرة ، فقد كنت بطبيعتى ، عندما يكون الأمر متصلا بأخطاء من يكبروننى سنا ، أعمى لا أرى ولا أبصر . بل لقد عرفت فيما بعد الكثير من نواحي النقص الأخرى فى هذا المعلم ، ولكن احترامى له ظل ثابتا لا يتغير ، فقد تعلمت طاعة الكبار ، لا نقد أعمالهم .

وئمة حادث من نوع آخر كان له اثر لا يمحي فى حياتى . فقد استأذنت أبى فى أن أذهب لمشاهدة تمثيلية كانت تقوم بها احدى الفرق فى المدينة . كانت الرواية موضوع التمثيل هي رواية هاريتشاندرنا . لقد ملكت على قصتها كل حواسى ولم أسأم من رؤيتها مرة بعد مرة . « ترى لماذا لا نسلك جميعا مسلك هاريتشاندرنا ؟ » - كان هذا هو السؤال الذى لم أمل من توجيهه الى نفسى بالليل وبالنهار ، أن نسلك طريق الحق ، وأن نحتمل ما احتمله هاريتشاندرنا من محنة وبلاء . لقد صار مسلكه المثل الأعلى الذى أوحى الى فى حياتى بما أوحى . نعم فلقد آمنت بكل كبيرة وصغيرة شاهدهتها فى تلك التمثيلية . كان مجرد التفكير فى حوادثها كافيا لكى يرسل الدموع الى عيني . اننى أدرك بتفكيرى الآن أن هاريتشاندرنا ما كان يمكن أن يكون شخصية تاريخية ، ولكن حوادث قصته لا تزال حية فى ذهنى ، وأنا واثق من أن تأثرى بها الآن ، لو أننى قرأتها مرة أخرى ، لن يقل عن تأثرى بها يومئذ .

٣ - زواجي وأنا بعد طفل

كنت أتمنى لو أنني أعفيت نفسي من كتابة هذا الفصل ، لولا أنني أعلم ، وأنا أروى قصة حياتي ، أن على أن أزدرد كثيرا من الجرعات مهما كانت مريرة المذاق . وما كان لي أن أفعل غير ذلك وأنا أسلك سلوك من يقدر الحق . وهكذا كان على أن أسجل هنا قصة زواجي وأنا بعد في الثالثة عشرة من عمري . انني كلما رأيت الصغار في تلك السن ممن هم في رعايتي ، ثم ذكرت ظروف زواجي ، ألفت نفسي مشفقا على نفسي مما لقيت في ذلك الوقت ، أحسد هؤلاء الصغار على أنهم قد أعفوا من مثل هذا المصير . اني لا أرى سندا خلقيا يمكن أن يسوغ مثل هذا الزواج المبكر .

وأرجو من القارئ ألا يخطيء في فهم حقيقة الوضع . فلقد تزوجت بالفعل في تلك السن ، ولم يكن الأمر مجرد خطبة . ففي ولاية كاثياواد نوعان من المراسم في مثل تلك المناسبات - خطبة وزواج . فأما الخطبة فهي وعد أولى من جانب أبوي كل من الفتى والفتاة بأن يربط حياة طفليهما برباط الزواج ، وهو وعد يمكن الرجوع فيه ، وإذا مات الفتى أثناء خطبته فلا تصبح فتاته من بعده في عداد المترملات . انه اتفاق بين الآباء وحدهم لا شأن للأطفال به ، بل هم كثيرا ما لا يقاتحون فيه على الاطلاق أو يعلمون من أمره شيئا . ويبدو أنني خطبت ثلاث مرات في حياتي ، وان كنت لا أعلم ذلك الا استنتاجا ، فقد قيل لي أن فتاتين سبق أن وقع الاختيار عليهما لتكونا زوجتين لي ماتتا الواحدة بعد الأخرى . وأكد أذكر أن خطبتي

الثالثة تمت وأنا فى السابعة من عمرى وان كنت لا أذكر أننى أخطرت
بها على الاطلاق .

لقد كنا ثلاثة أشقاء . أما أكبرنا فقد كان متزوجا بالفعل فى ذلك
الوقت . وقد استقر الآن قرار من هم أكبر منا سنا على أن يزوجونا
أنا وأخى الثانى ، وكان يكبرنى بعامين أو ثلاثة ، وابن عمى ، ولعله
كان يزيد عنى بسنة ، كلنا فى وقت واحد . وهم حين قرروا ذلك
لم يكن تفكيرهم منصرفا الى سعادتنا الشخصية أو الى تحقيق رغبة
أبديناها ، وانما كانت المسألة كلها مسألة راحتهم وظروفهم المالية .

فألزواج عند الهندوس ليس بالأمر الهين أو البسيط ، بل هو
كثيرا ما يجلب الخراب على الآباء وينتهى بهم الى الافلاس بسبب
ما يتكبدونه فى سبيله من نفقات . فهم يبددون على حفلاته مالهم
ويضيعون وقتهم . وتمضى الشهور ، الشهر تلو الشهر ، وهم
يستعدون لتلك الحفلات - ما بين تطريز الملابس واعداد العلى وتديير
المال اللازم للمآدب والولائم ، كل فريق يحاول أن يتفوق على غيره فى
عدد الأطباق التى يقدمها للمدعوين ، والنساء يتبارين فى الغناء -
سواء كان لهم رأى فى الموضوع كله أم لم يكن - حتى يبيح صوتهن :
بل حتى يمرضن ، مهما كان فى ذلك من اطلاق لجيرانهن . ويتحمل
الجيران كل ذلك ، يتحملون الجلبة والضوضاء ، ويتحملون معها
ما يلقى من القاذورات والقمامات المتخلفة من الموائد التى لا تنقطع ،
لأنهم يعلمون أن الوقت سيجيء حين يتصرفون هم أنفسهم مثل هذا
التصرف .

وهكذا رأى من بيدهم أمرنا انه قد يكون من الخير لو أنهم فرغوا من
هذه المتاعب كلها دفعة واحدة ، وغنموا الى جانب ذلك اقتصادا فى
جملة النفقات مع قسط أوسع من السعة والأبهة ، فان المال حين

يصرف دفعة واحدة ، بدلا من أن يجزأ على ثلاث دفعات • يكون أبعد أثرا وأدنى الى تحقيق الهدف • ولعل أبى وعمى ، وقد كانا شيوخين فى ذلك الوقت وكنا أصغر أولادهما ، قد أرادا الى جانب ذلك أن ينعما بأوفر قسط من السعادة للمرة الأخيرة فى حياتهما •

كل هذه الاعتبارات حدث بأبويننا الى عقد قران ثلاثتنا ، ومضت الشهور الطويلة فى الاستعداد لتلك المناسبة •

ولم ندر وقتها ما كانت تخبئه لنا الأيام الا عن طريق تلك الاستعدادات • وما أحسب أن الزواج كان له معنى عندى فى ذلك الوقت أكثر من أنه مناسبة لارتداء الجديد من اللبس والاستمتاع بدق الطبول وبالموائد الدسمة ، ثم بعد كل ذلك فتاة ألب معها • وما زلت أذكر فى وضوح كيف جلسنا ، أنا وفتاتى ، فوق المنصة ونحن نرف الى بعضنا ، وكيف أدينا مراسم السابتابادى (١) ، وكيف كان كل منا ، ونحن بعد عروسان على عتبة الزواج ، يدس الكانسارا (٢) فى فم الآخر •

-
- (١) سبع خطوات يؤديها العروسان الهندوسيان معا وهما يتبادلان موافيق الاخلاص والوفاء ، يصبح الزواج بعدها رابطة لا انفصام لها •
- (٢) حلوى تجهز من القمح يتناولها الزوجان معا عقب اتمام مراسم الزواج •

٤ - أوشى دور الزوج

فى حوالى الوقت الذى تزوجت فيه كانت تباع كتيبات رخيصة لا يكاد يتجاوز ثمن الواحد منها ما يوازى أربعة مليمات ، تتناول مشكلات الحياة الزوجية وزواج الأطفال وغير ذلك من الموضوعات ، فكنت كلما وقع فى يدى واحد منها التهمته التهاما . وكان من عادتي دائما أن أنسى مالا أستسيغه منها ، وأن أظل أذكر ما يعجبني فيها ثم أحاول أن أطبقه على نفسي فى حياتي العملية . من ذلك مثلا ماقرأته فيها من ضرورة إخلاص الزوج لزوجته مدى الحياة وتعفقه عن كل ما فيه انتهاك لعهد لها ، فقد ظل ذلك الدرس منطبعا فى نفسي طوال حياتي . ثم لما كان التعلق بالحق أحد الصفات المتأصلة فى نفسي ، فقد كان عدم الوفاء لزوجتي خارجا عن نطاق الاحتمال . أضف الى ذلك أنه لم يكن أمامي من فرص الخيانة لها الا القليل فى هذه السن المنضرة .

على أن هذا الدرس فى الإخلاص الزوجي كان له أثر غير متوقع، فقد قلت لنفسى اذا كان على أن أكون وفيا لزوجتي فان عليها كذلك أن تكون وفية لى . وتحولت تحت تأثير هذه الفكرة الى زوج شديد الغيرة حتى جعلت لنفسى من واجبها فى ذلك حقا مشروعاً يبيح لى أن أنتزع منها إخلاصها ؛ أنتزاعاً . ثم اذا كان لا بد أن أنتزع منها هذا الحق فان واجبي يقتضي أن أحرص على هذا الحق كل الحرص ، وأن أمارسه الى أقصى حد .

ولم يكن لدى من الأسباب ما يحملني على التشكك فى إخلاص

زوجتي ، ولكن هكذا شأن الغيرة ، فهي لا تحتاج الى أسباب . ومن هنا كان علي دائما أن أكون حذرا ، أرقب حركاتها وسكناتها ، ولا أسمح لها بالخروج الا باذني . فكان ذلك مثار نزاع مرير بيننا ، حتى استحالته هذه القيود التي فرضتها عليها الى نوع من السجن بالنسبة لها . وما كانت كاستورباي ، زوجتي ، بالفتاة التي يمكن أن تسكت على ذلك ، فقد تعمدت أن تخرج كلما أرادت ، وإنما أرادت ، وبقدر ما كنت أتشدد في تطبيق هذه القيود كانت تستبجح لنفسها مزيدا من الحرية ، فيزداد غضبي عليها ، حتى أصبح الامتناع عن الكلام أمرا عاديا بيننا ، نحن الزوجين الطفلين . ولا يخالجنى شك في براءة كاستورباري حين أباحته لنفسها الخروج على ما فرضته عليها من قيود . وكيف تستطيع فتاة لا تقصد سوا أن تحتمل تلك القيود حين لا تذهب الا الى المعبد ، أو الى زيارة بعض الأصدقاء ؟ ثم اذا كان لي الحق في أن أفرض هذه القيود عليها ، أفلا يكون من حقها هي كذلك أن تفرض على مثلها ؟

كل ذلك قد وضع أمامي الآن . . . أما في ذلك الوقت فقد كان همي منصرفا كله إلى محاولة فرض سلطاني عليها .

٥ - رفيق السوء

كان من بين رفاقي القلائل في المدرسة الثانوية اثنان يمكن أن يقال عنهما انهما كانا صديقين حميمين لي في فترتين مختلفتين . ولم تدم صداقة أحدهما لي طويلا ، لا لاني تخليت عنه يوما ، بل لأنه لم يرض عن مصادقتي للآخر . وقد أثبتت صداقتي للثاني أنها كانت وبلا على ، بل مأساة من مآسى حياتي . وقد دامت صداقته زمنا طويلا ، فقد صادقته وأنا مدفوع برغبتى في أن أقومه ، وأن أقوم نحوه بدور المصلح .

كان هذا الرفيق في الأصل صديقا لأخي الثاني . كانا معا في فرقة واحدة . وكنت أعرف مواطن ضعفه ، ولكنني مع ذلك كنت أعده صديقا وفيما . وقد حذرتني أمي ، كما حذرنى أخي الأكبر وحذرتني زوجتي ، من معاشرته من كانوا يرونه رفيق سوء . وما كان لي أن أعارض رأى أمي أو أخي الأكبر ، ومن ثم فقد عكفت على التوسل اليهما . قلت لهما : « اننى أعرف مواطن الضعف التي تريانها فيه ، ولكنكما لا تعرفان فضائله . ثم هو لا سبيل له الى أن يضلنى لأن الهدف من صداقتي له هو تقويم خلقه . وانى لعل يقين من أنه لو أصلح نفسه فسوف ينقلب رجلا فاضلا . انى أتوسل اليكما ألا تحملا همى بسببه ! » .

ولكننى أدركت بعد ذلك أننى كنت مخطئا في تقديري . فالمصلح لا يجوز أن تكون له صلة حميمة بمن يتولى اصلاحه ، والصداقة الحقيقية هي التي تقوم على تآلف بين روحى الصديقين ،

وهي نادرا ما توجد في عالمنا هذا ، ولا يمكن أن تدوم الا بين من كانا على شاكلة واحدة • والأصدقاء فوق ذلك يتأثر بعضهم ببعض ، ولهذا كان مجال الاصلاح بين الأصدقاء ضيقا محدودا • وفي رأبي أن من الواجب تجنب كل صداقة مستأنرة تحول دون صداقة سائر الناس • ذلك ان الانسان يتأثر بالرديلة بأسرع مما يتأثر بدواعي الفضيلة ، ومن كان يهدف الى أن يظل على وفائه لله يجب عليه أن ينأى بنفسه عن كل ما يورطه ، وأن يتخذ الناس جميعا أصدفاء له •

وتصادف أن كانت موجة من « الاصلاح » تكتسح ولاية راجكوت في الوقت الذي تعرفت فيه بصديقي هذا ، فلم يكن غريبا أن يقول لي ان كثيرين من معلمينا يأكلون اللحم ويشربون الخمر سرا وأن يذكر لي أسماء بعض الرجال في راجكوت ، بل أسماء بعض تلاميذ المدرسة أنفسهم ، ممن زعم أنهم يفعلون ما يفعله معلمونا •

ولقد أدهشني ذلك بقدر ما غصني ، وسألت صديقي لم يفعلون ما يفعلون ؟ قال : « اننا قوم ضعيفو البنية لأننا لا نأكل اللحم ، وقد استطاع الانجليز أن يتحكموا فينا لأنهم لا يتعففون عن آكله • وانك لتعلم قوة عضلي ، وتعلم تفوقي في السباق ، وما ذلك الا لأنني آكل اللحم • ان من يأكلون اللحم لا يمرضون ، واذا مرضوا فهم يتمثلون ابي الشفاء سريعا • ان معلمينا وغيرهم من كبار القوم الذين يأكلون اللحم ليسوا سسندجا • انهم يعلمون فضائله ، وعليك أن تفعل مثلهم ، وما عليك الا أن تجرب لترى بنفسك ما يضيفه عليك آكله من قوة وحيوية » •

ولم يلق صديقي بحججه هذه في جلسة واحدة ، بل في جلسات متعددة • وكان أخي الثاني قد زل من قبل فلم يكن غريبا أن يظهره فيما يقول • ولقد كنت بالفعل هزيبا بالقياس الى أخي أو بالمقارنة الى

هذا الصديق ، وكانت تبهرني الأعمال التي يأتيناها صديقي ، فقد كان يستطيع أن يجري مسافات طويلة وبسرعة فائقة . وكان يجيد القفز العالى والطويل ، كما كانت له الى جانب ذلك قدرة عظيمة على احتمال أنواع العقوبات البدنية . والمرء عادة يبهره ما يراه فى الغير من الصفات التي يفتقر هو نفسه اليها . وهكذا رأيتنى مدفوعا برغبة جارفة الى أن أكون مثله . نعم ، لماذا لا أكون فى قوته وصلابته ؟

وكننت فوق هذا وذاك جبانا ، يتسلط على الخوف من اللصوص والأشباح والأفاعى ، فلم أك أجروء على الخروج فى الليل . كان الظلام يرعبنى ويخيفنى ، وكان يستحيل على النوم فى الظلام ، ولو فعلت لتصورت الأشباح مقبلة على من ناحية ، واللصوص من ناحية ثانية ، والأفاعى من ناحية نالفة . لذلك لم أكن أفكر فى النوم من غير مصباح يضىء حجرتى حتى لا يفتضح أمرى أمام زوجتى ، وأنا الصبى الكبير الذى يقف على عتبة الشباب . لقد كنت أعرف أنها أكثر شجاعة واقدا ما منى ، فكان ذلك يملؤنى خجلا . انها لم تكن تخشى الافاعى أو الأشباح وكان فى مكنتها أن تخرج الى أى مكان فى ظلمة الليل الموحشة . وكان صديقى يعرف فى هذا الضعف ، وأن فكان يقول لى انه يستطيع أن يمسك بيده خمسة أفاع حية ، وأن يتحدى اللصوص جميعا ، وانه لا يؤمن بالأشباح ، وما ذلك بالطبع الا لأنه يابل السحيم .

وقد كان لكل ذلك أثره فى نفسى ، فقد غلبت على أمرى فى النهاية وصرت أعتقد أن الخير كل الخير فى أكل اللحم ، وأن أكله سيجعلنى أكثر قوة واقدا ما ، وأن الانجليز لابد مدحورون مغلوبون لو أن البلاد كلها شرعت تأكل اللحم .

وتحدد يوم معين لكى أبدأ فيه تجربتى الجديدة فى السر ، فقد

كان أبواى ينتميان الى طائفة الفيشنافا ، وهى طائفة شديدة التدين الى حد التزمت . واذ كنت شديد الاخلاص لهما فقد عز على أن يصيبهما مكروه اذا علما بأننى آكل اللحم ، ولكننى كنت مشغولا بحركة « الاصلاح » الجديدة ، فضلا عن أن رغبتى فى آكل اللحم لم تكن عن لذة ، اذ الواقع اننى لم أكن أعرف أن له طعما خاصا ، بل كان كل ما أهدف اليه أن أصير قويا شجاعا ، وأن يصبح مواطنى جميعا ذوى قوة وبأس حتى نهزم الانجليز ونحرر الهند . نعم ، لقد أعمتنى الرغبة فى « الاصلاح » حتى استطعت أن أقنع نفسى ، بعد أن تأكدت من بقاء الامر سرا ، بأن اخفاء ما كنت مقمدا عليه على أبوى لا ينطوى على خروج عن جادة الحق .

٦ - مأساة

وجاء اليوم الموعود ، وانه ليصعب علي أن أصف حالى فى ذلك اليوم . كانت تنتابنى عوامل متباينة . كنت من ناحية متحمسا « للإصلاح » أتمسه حتى ولو اقتضى الأمر خروجى عن طريق الحياة المألوف . وكنت من ناحية أخرى خجلا من تسترى كما يتستر اللص لكى أفعل ما أنا فاعل . وذهبنا أخيرا نلتمس مكانا خفيا عند النهر ، وهناك رأيت للمرة الأولى فى حياتى - اللحم : ومعه خبز مما تخرجه الأفران العامة . ولم أستسغ شيئا منهما ، فقد كان لحم الماعز جامدا كالجلد فلم أستطع أكله ، بل لقد تقيأت ما دخل جوفى منه واضطرت الى الكف عن الأكل .

وأضويت بعد ذلك ليلة من أسوأ الليالى ، انتابنى فيها كابوس مخيف ، وكنت كلما غلبنى النوم أحسست كما لو كان ماعز حى يشغو فى جوفى فأهب من نومى ملوما محسورا ، ثم أعود فأذكر نفسى بأن أكل اللحم واجب يجب أدائه فيعاودنى بعض الرضا .

ولم يكن صديقى بالشخص الذى يستسلم للهزيمة فى سهولة، فقد أخذ يعد من أنواع اللحم بعد ذلك ما لذ وطاب ، وجعل يعنى بطريقة تقديمه عناية ملحوظة . ولم تعد بنا حاجة بعد ذلك الى التماس بقعة منعزلة على شاطئ النهر بل كنا نتناول غداءنا فى بيت من البيوت التى تملكها الحكومة بما فيه من قاعة للطعام وموائد وكراسى كان صديقى قد أعدده لهذا الغرض بالاتفاق مع رئيس طهاته .

وكان لهذا الطعم الذى ألقى به صديقى أنره ، فأخذت أتغلب على كراهيتى لهذا النوع من الخبز ، وتخليت عن الشعور بالرحمة نحو الماعز ، وأخذت أستطيب أطباق اللحم وان لم أستطب اللحم نفسه . واستمر الحال يجرى على هذا المنوال سنة كاملة لم يزد عدد ولائم اللحم فيها على ست مرات ، اذ لم يكن البيت الحكومى فى متناولنا دائما ، فضلا عما كان يتطلبه اعداد تلك الأطباق الشهية من نفقات لا قبل لى بها ، فلم يكن عندى من النقود ما أدفعه فى سبيل هذا « الاصلاح » ، فكان صديقى يتولى تدبير ما تستوجبه هذه الولايم من نفقات .

وكننت فى كل مرة يتاح لى فيها أن أنعم بتلك المآدب السرية لا أجد فى نفسى اقبالا على العشاء فى البيت ، فكانت أمتى تسألنى عما بى فأقول لها : « ليست عندى شهية اليوم . ان هضمى ليس على ما يرام » . ولم يكن اختلاقى لهذه الأعذار يمر دون وخز من ضميرى ، فقد كنت أعلم اننى أكذب ، واننى أكذب على أمتى ، وكننت أدرك أنه لو أتيتح لأمتى وأبى أن يعرفا عنى هذه الزلة لارتاعا من هول الصدمة . كان ادراكى لهذا كله ينهش فى قلبى نهشا .

وقلت لنفسى أخيرا : « قد يكون من الضرورى أكل اللحم ، وقد يكون من الواجب متابعة هذا « الاصلاح » فى غذاء البلاد ، ولكن الخداع والكذب على الأب والأم أشد اثما من الامتناع عن تناول اللحم . واذن فلا مفر من الكف عن تناولها ما دام أبواى على قيد الحياة ، فاذا وافاهما الأجل ، وظفرت بعد ذلك بحريتى ، أكلت اللحم علنا ، فالى أن يحين ذلك الوقت سأظل ممتنعا عن أكله » .

وأطلعت صديقى على هذا القرار الذى اتخذته . ومنذ ذلك الوقت لم أعد الى تناول اللحم مرة واحدة ، ولم يعرف أبواى اطلاقا أن ابنين لهما قد أكلا اللحم يوما .

فلقد حرمت اللحم على نفسى بعد ذلك ، مدفوعا برغبتى
الصادقة فى ألا أكذب مرة أخرى على أبوى ، ولكننى مع ذلك لم أكف
عن معاشره هذا الصديق . لقد جلب على حببى فى تقويمه كثيرا من
البلاء ولكننى بقيت طول الوقت فى جهل مما كنت أعمه فيه .

٧ - مأساة أخرى

لقد كان من الجائز أن تنتهي بي معاشره هذا الصديق الى خيانة زوجتي لولا أن الله أنقذني بفضلله ، فقد أخذني صديقي مرة الى بيت من بيوت الدعارة بعد أن قام بترتيب كل شيء من أجلى ودفع كل شيء مقدما . وهكذا سرت بقدمى بين فكي الرذيلة ، ولكن الله تعالى الذى وسعت رحمته كل شيء عصمنى من نفسى ، فقد ألفت نفسى ، وأنا فى ذلك البيت ، أعمى لا أبصر وأبكم لا أنطق . لقد انعقد لسانى فلم يستطع أن يقول شيئا ، حتى ضاقت بي ذرعا وشيعتنى الى الباب وهى تمطرني بوابل من السباب والشتمائم .

لقد شعرت وقتها أن شيئا قد خدش رجولتى ووددت لو انشقت الأرض فابتلعتنى وأراحتنى مما أنا فيه . ولم أكف من وقتها عن حمد الله على ما أفاء على من رحمته فأنقذنى مما كنت مقبلا عليه .

ان مثل هذه الحالة ، اذا حكمنا عليها من الناحية الأخلاقية البحتة ، على الرغم من نجاتى منها ، زلة بشعة لا تقل فى اثمها عن الوقوع فى الاثم نفسه . أما من الناحية العرفية فان الرجل الذى ينجو من الاثم ، حتى ولو كان على غير ارادة منه ، يعتبر كمن لا اثم له . ولذلك فلم أكن مبرءا من الاثم الا على هذا الاعتبار وحده . فهناك حالات تكون النجاة فيها مجرد توفيق من الله سواء للمرء نفسه أو لمن حوله، وما ان يفيق المرء من سلطان الوسواس حتى يحمد الله ويثنى عليه على أن قدر له الهرب مما كان يراود نفسه . اننا نعمم أن العناية الالهية كثيرا ما تتدخل لتنقذ بعض الناس رغم أنفسهم . أما كيف يحدث ذلك ، وهل الانسان مخير أم مسير فى أفعاله ، وما هو أثر ارادته

الحره ، وأين يتدخل القدر ، فهى كلها أمور ستظل لغزا يستعصى على كل حل .

ولم يقف أثر صديقى عند هذا الحد ، فقد كانت معاشرته أحد أسباب خلافى مع زوجتى ، فقد كنت مولعا بزوجتى بقدر ما كنت أغار عليها . وكان صديقى هذا لا يكف عن اشعال نيران الظنون من جهتها فى صدرى ، ولم أكن أتشكك فى صدق قوله . اننى لن أغفر لى نفسى قسوتى على زوجتى وما سببته لها من شقاء بسبب استماعى لكلامه ، ولعل المرأة الهندوسية وحدها هى التى تستطيع أن تحتمل مثل ما احتملت زوجتى ، حتى لقد أصبحت منذ ذلك الوقت أعتبر المرأة رمزا مجسدا على التسامح والاحتمال .

ولم تقتلع الشكوك من نفسى تماما الا بعد أن بدأت أفهم معنى المحبة المبرأة من العنف (أحمسا) وأخذت أطبقها فى حياتى ، وأدركت أن الزوجة ليست أمة للزوج بل هى رفيقه فى الحياة وعونه عليها ، هى شريكته فى السراء والضراء ، لها من الحرية ما له فى اختيار سبيلها فى الحياة . اننى كلما فكرت فى تلك الأيام الموحشة ، حين كانت تنتابنى الشكوك والظنون ، امتلأت نفسى اشمئززا مما كنت سادرا فيه من سخف ومن قسوة ممزوجة بالشهوة ، وكرهت اخلاصى الأعمى لذلك الصديق .

٨ - سرقة ٠٠ ثم ندم

لا بد لي كذلك من أن أسرد هنا بعض نواحي الضعف الضامنة في نفسى فى خلال الفترة التى كنت أكل فيها اللحم وما قبلها بتليل .

فقد تعلقت وقتها ، أنا وقريب لى ، بالتدخين ، لا لأننا وجدنا فيه ما يجيبه الى نفوسنا ، ولا لأننا أغرمتنا بطعم السجائر ونكهتها ، بل لأننا كنا نجد لذة فى اطلاق سحب كثيفة من الدخان من أفواهنا . وكان عمى ممن اعتادوا التدخين ، فكنا كلما رأيناه يدخن وجدنا فى أنفسنا شوقا الى تقليده . ولكن أنى لنا بالسجائر ولم نك نملك من النقود ما يسمح لنا بشرائها ؟ لقد شرعنا نلتقط أعقاب السجائر التى يلقي بها عمى كلما انتهى من واحدة منها .

غير أن هذه الأعقاب لم تكن متوفرة دائما ، وحتى لو كانت متوفرة فهى لا تسمح باطلاق كثير من الدخان من بين شفاهنا . وهكذا عمدنا الى سرقة بعض قطع العملة الصغيرة من مصروف خادمنا لكي نشترى بما نسرق بعض السجائر الهندية . وكان علينا بعد ذلك أن نواجه صعوبة أخرى ، اذ كيف نخفى أمرها ونحن لا سبيل لنا الى تدخينها فى حضرة من هم أكبر منا سنا ؟ ومع ذلك فقد استطعنا أن نشبع شهوتنا من الدخان بضعة أسابيع من تلك الدريهمات المسروقة .

وترامى الى سمعنا فى الوقت نفسه أن سيقان نبات معين فيها من المسام ما يسمح بتدخينها كالسجائر فأتينا ببعضها وأخذنا نجرب هذا النوع من الدخان .

ومع ذلك فقد كنا أبعد ما نكون عن الاكتفاء بمثل تلك المحاولات،

اذ كانت نفوسنا تتوق الى الاستقلال بعد أن لم نعد نطبق عجزنا عن أن نأتي شيئا الا بأذن من كانوا أكبر منا سنا ، وأخذ منا اليأس أخيرا كل مأخذ حتى ضاقت بنا الارض بما رحبت فقررنا أن ننتحر .

ولكن كيف السبيل الى الانتحار ؟ ومن أين لنا بالسم ؟ لقد كنا سمعنا أن بذور الداتورة سم قاتل ، فانطلقنا الى حرش قريب نبحت عن تلك البذور ، حتى وجدناها أخيرا . واستقر رأينا على أن الليل هو أنسب الأوقات لنفعل فعلتنا . وهكذا ذهبنا الى معبد كادار وبعد أن وضعنا بعض الزيت في مصباحه أخذنا نبحت عن مكان قصي لننفذ ما اعتزمناه . وهنا خاتمتنا شجاعتنا . ماذا لو أننا لم نمت من السم على الفور ؟ ثم ما الحكمة من قتل أنفسنا بأنفسنا ؟ أليس من الخير أن نرضى بما نفقده من استقلال شخصي عن أن نفعل هذه الفعلة البشعة؟ ومع ذلك فقد ابتلع كل منا بذرتين أو ثلاثا مما كان معنا ، ولم نجرؤ على أن نزيد عليها فقد كنا في خوف من الموت . وذهبنا بعد ذلك الى معبد رام لكي نستعيد هدوءنا النفسي ونستعيد من فكرة الانتحار .

أدرت بعد ذلك أن الانتحار ليس بالسهولة التي يستطيع المرء أن يفكر فيه ، وكنت كلما سمعت بأن شخصا يهدد بالانتحار كان تأثرى بهذا التهديد قليلا أو معدوما .

بل لقد أدت بنا فكرة الانتحار التي راودتنا بعض الوقت الى الاقلاع عن عادة تدخين أعقاب السجائر وعن سرقة نقود الخادم لكي نشترى بما نسرق حاجتنا من السجائر ، ولم تعد لي رغبة في التدخين بعد ذلك ، بل لقد ظلمت أعتبر عادة التدخين عادة همجية قذرة بقدر ما هي ضارة . وفي الحق انني عاجز عن ادراك سبب واحد لحمى التدخين التي تنتاب العالم كله في هذه الأيام ، بل لا أطيق السفر في عربة من عربات السكة الحديد يكثر فيها المدخنون . انني أشعر وقتها بأنني أكاد أختنق .

على أن هناك سرقة أخرى في حياتي كانت أدهى وأمر من تلك التي سردتها • ففي المرة الأولى كنت أسرق الدرهمات وأنا بعد في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمري ، بل لعل كنت أصغر من ذلك • أما في هذه المرة فقد سرقت وأنا في الخامسة عشرة ، إذ استوليت على بعض الذهب من سوار لأخي الذي اعتاد أكل اللحم • فقد كان أخي هذا قد جر على نفسه ديناً بلغ نحو خمس وعشرين روية ، ولما كان يلبس حول ذراعه تميمة من الذهب فلم يكن بالأمر العسير على أن أقتطع من هذه التميمة بعض أجزاءها دون أن يحس •

نعم ، لقد فعلت ذلك ، وانتهى دينه على كل حال ، ولكن هذه السرقة كانت أكثر مما أحتمل ، فقررت بيني وبين نفسي ألا أعود إلى السرقة مرة أخرى ، وصممت على أن أعترف لأبي بما فعلت • ومع ذلك فقد خانتني الكلمات ، لا لأنني كنت أخشى أن يضربني أبي - لا ! فليست أذكر أنه ضربني مرة واحدة - ولكن لأنني كنت أخاف مما قد أسببه له من ألم • على أنني شعرت ، على الرغم من ذلك ، أن الأمر يستحق هذه المجازفة ، وأنه لا سبيل إلى تطهير نفسي ، إلا باعتراف خالص وصريح •

واستقر رأيي أخيراً على أن أقدم اعترافي لأبي كتابة وأن أطلب منه الصفح والمغفرة • وكتبت اعترافي على قصاصة من الورق سلمتها له بنفسى ، لم أقتصر فيها على الاعتراف بذنبي ، بل رجوته فيها كذلك أن يوقع على عقابا جزاء حقاً على ما ارتكبت يداي ، وألا يعذب نفسه بذنبي ، وعاهدته على أن تكون توبتي توبة نصوحاً ، فلا أعود إلى السرقة مرة أخرى •

لقد كنت أرتعد خجلاً وأنا أسلم اعترافي لأبي ، وزاد من خجلي أنه كان يشكو من علة ألزمته الفراش ، ولم يكن فراشه يزيد على أن يكون لوحاً من الخشب ، فجلست قبالة على الأرض ، بعد أن سلمته اعترافي •

وقرأ أبى الرسالة ، وأخذت الدموع تتساقط على خده كحبات اللؤلؤ حتى ابتلت رسالتى بدموعه ، ثم أغلق عينيه لحظة أخذ بعدها يمزق الرسالة اربا ، ثم عاد يستلقى على فراشه ، بعد أن كان قد جلس يقرأها . وبكيت أنا كذلك . لقد كنت أحس بما يعتمل فى نفس أبى من ألم وحزن . ولو أننى كنت فنانا لاستطعت حتى فى يومنا هذا أن أرسم صورة رائعة لهذا المشهد الغريب الذى لا يزال يعلق فى ذهنى الى الآن .

لقد غسلت هذه الدموع التى انهمرت من ماقى أبى ، وكان مبعثها الحب الخالص ، كل ما فى قلبى من اثم ، ومحت ذنبى الذى عكر على صفو حياتى . ولن يقدر ذلك حق قدره الا من جرب هذا الحب الخالص .

لقد كان هذا الحادث درسا عمليا فى المحبة الخالصة ، فان هذا التسامى فى المغفرة لم يكن من طبيعة أبى . لقد كنت أظن أنه سيغضب ، وسيوجه الى قارص الكلام ، ويضرب رأسه بيده ، ولكنه لم يفعل ، بل كان هادئا هادئا غريبا أعتقد أن مرده كان اعترافى الخالص ، فان الاعتراف الخالص ، الذى يصحبه وعد بالتوبة الحقة ، اذا قدم لمن يملك العفو ، هو أسمى آيات التوبة والندم . ومن ثم فقد شعرت بأن اعترافى قد بعث فى نفس أبى شعورا بالسكينة ، وزاد فى محبته لى زيادة لا تقدر .

٩ - أبى يمرض ثم يموت

كنت الآن فى السادسة عشرة من عمرى . وقد كان أبى ، كما سبق القول ، طريح الفراش ، من اثر علة من العلل ، فكنت أنا وأمى وخادم عجوز ، أكثر الناس رعاية له ، وقياماً على شئونه أثناء مرضه . كنت أقوم بدور الممرض ، أضمد جرحه ، وأسقيه اندواء ، وأخلط له العقاقير كلما كان خلطها يتم فى البيت ، وأدلك رجليه كل ليلة ، فلا أكف الا اذا طلب منى ذلك ، أو الا اذا غلبه النوم . فلقد كان القيام على خدمته أمراً محبباً الى نفسى . ولست أذكر أننى أهملت واجبى فى ذلك ليلة واحدة . لهذا كنت أمضى كل ما لدى من وقت ، بعد أداء واجباتى اليومية ، بين المدرسة ، وبين العناية بأبى ، ولم أكن أخرج من المنزل للمشى فى المساء ، الا اذا سمح هو لى بذلك ، أو كانت حالته فى تحسن .

وجاءت الليلة الرهيبة أخيراً . كان ذلك فى الساعة العاشرة والنصف أو الحادية عشرة مساء . كنت منهمكاً ليلتها فى تدليك قدميه حين عرض على عمى أن يريحنى قليلاً . ورحبت بما عرض وانصرفت الى حجرة نومي . كانت زوجتى المسكينة فى سبات عميق . ولكن كيف تنام بينما أنا فى الحجرة ؟ لقد أيقظتها من نومها ، ولم تمض الا خمس دقائق أو ست حتى كان الخادم يطرق الباب وهو يقسول : « قم ! فقد اشتد المرض بأبيك » . لقد كنت أعرف أن مرض أبى شديد فلم يصعب على أن أدرك فى تلك اللحظة ما قصده من هذه العبارة . وقفزت من فراشى ، وأنا أقول : « خبرنى ! ما الأمر ؟ » وجاء الرد الذى أجهز على كل آمالى : « لقد انتهى أبوك » .

وهكذا انتهى كل شىء ، ولم أستطع أن أفعل أكثر من أن أفرك

يدى • لقد كنت فى خزى وبؤس فى وقت واحد ، فلولا أن تغلبت على الشهوة البهيمية حين أعمتني لكنت تجنبت ألم الفراق عن أبى فى تلك اللحظات الأخيرة • لقد ظل سلوكى فى تلك الليلة وصمة تلاحقني فلا أستطيع أن أنساها أو أتحلل من أثرها ، وأدركت أنني على الرغم من اخلاصى الشديد لأبوى وحبى لهما ، واستعدادى لأن أفعل كل شىء من أجلهما ، فإن حبى واخلصى قد انتقص من قدرهما هذا السلوك الذى لا سبيل الى الاغضاء عنه • نعم ! فلقد كنت أسير شهوتى فى ذلك الوقت ، ولم أتمكن من التخلص من ربة أسرها الا بعد وقت طويل ، وكان لابد من أن أمر بمحن كثيرة قبل أن أستطيع التغلب عليها •

١٠ - لمحات من الدين

لما كنت قد ولدت على عقيدة الفيشنافا ، فقد كان على أن أذهب كثيرا الى معبد الهافيلي ، وان كنت لم أستسخ الذهب اليه ، اذ لم يكن يعجبني ما فيه من بريق ، ومن مظاهر الأبهة والعظمة ، فضلا عما كان قد تراهي الى سمعي من آثام ترتكب فيه . ولذلك فقد رغبت عنه ولم أفد من الذهب اليه شيئا .

غير أن ما فاتني منه قد جنيته عن طريق مربيتي ، وهي خادم عجوز في خدمة الأسرة لا زلت أذكر حبها لي وحنانها علي . وقد سبق لي أن ذكرت أن الخوف من العفاريت والأرواح كان يستبد بي ، وقد اقترحت رامبها - فقد كان هذا هو اسمها - أن أتلو الرامانا مرة بعد المرة علاجاً لهذا المرض . ولما كانت ثقتي بها أكثر من ثقتي بعلاجها ، فقد أخذت أتلوها وأنا في تلك السن النضرة ، وأكرر تلاوتها التماساً للشفاء . ولم يدم هذا العلاج طويلا ، ولكن البندرة الصالحة التي غرستها هذه المرأة الطيبة في نقبي ، وأنا لا أزال في طفولتي ، لم تغرس سدى فقد ظلت الرامانا علاجاً نفسياً لا يخيب معي الى يومنا هذا .

وكان أبي يقيم في بورباندر خلال بعض فترات مرضه ، فكان وهو هناك يستمع كل مساء الى تلاوة الرامانا من قارئ ورع وهبه الله صوتاً جميلاً ، فكان ينشد الثنائيات والرباعيات ثم يأخذ في تفسيرها فينسى نفسه في تيه الحديث بعد أن يكون قد حمل سامعيه معه . ومع أنني كنت لا أزال في الثالثة عشرة في ذلك الوقت فلا زلت أذكر ما كان لتلاوته وتفسيره من وقع كبير في نفسي .

وفى راجكوت تلقيت دروسى الأولى فى التسامح نحو جميع المذاهب الهندوسية ونحو غيرها من الأديان الشقيقة . فقد كان أبى وامى يزوران معبد الهافيلي كما كانا يزوران معابد شيفا وراما على السواء ، وكانا فى تلك الزيارات يصحباننا نحن الصغار معهما تارة ، وتارة أخرى يبعثان بنا إليها جميعا . كذلك كان بعض الكهنة من أتباع الجينية يزورون أبى أحيانا ، وكثيرا ما كانوا يخرجون عن طريقهم المألوف فيطعمون من طعامنا نحن الذين لم تكن ندين بدينهم ، بل كثيرا ما كانوا يتذاكرون مع أبى فى موضوعات شتى ، منها ما هو دينى ، ومنها ما هو دنيوى .

وكان لأبى فوق ذلك أصدقاء من المسلمين ومن المجوس ، كانوا باتون إليه ويتحدثون معه فى شئونهم الدينية ، فكان ينصت إليهم دائما فى اجلال واحترام ، وفى كثير من الاهتمام . وأتاح لى قيامى على شئون أبى ، خلال مرضه ، فرصة الاستماع الى تلك الأحاديث . كل ذلك تجمع فى نفسى وغرس فى قلبى روح التسامح نحو جميع الأديان ، الا دينا واحدا فى ذلك الوقت ، هو المسيحية ، فقد كانت له كراهية خاصة فى نفسى يومئذ لسبب معين .

ذلك أن المبشرين المسيحيين كانوا قد اعتادوا فى تلك الأيام أن يقفوا فى ركن قريب من المدرسة الثانوية ، فينطلقوا فى تبشيرهم ، ويسخروا من الهندوس ، ويستهزئوا بالهتهم . ولم تحتمل نفسى ذلك . ولعلى لم أقف لأستمع إليهم الا مرة واحدة ، ولكن هذه المرة الواحدة كانت كافية لأن تصرفنى عن تكرار التجربة . وزاد الطين بلة أننى سمعت فى حوالى ذلك الوقت عن هندوسى معروف ارتد الى المسيحية ، وكانت المدينة كلها تتحدث عنه وتلوك بالسنتها مسلكه بعد ارتداده ، كيف أكل عند تنصيره لحم البقر وشرب بعض المشروبات الروحية ، وكيف بدل ملبسه فأخذ يمشى بين الناس بالزى الأوروبى بما فيه القبعة . واشمأزت نفسى من كل ذلك وقلت لنفسى ان دينا

يرغم الناس على أكل لحم البقر وعلى شرب الخمر وعلى تغيير زيهم
لا يمكن أن يكون جديرا بهذا الاسم . بل كنت قد سمعت فوق ذلك
أن هذا المرتد قد شرع يسخر من دين أجداده وآبائه ويهزأ بعباداتهم
وببلادهم . كل ذلك ولد في نفس شعورا بالكراهية للمسيحية في
ذلك الوقت .

على أن هذا التسامح نحو الأديان الأخرى ، الذي تعلمته في
صغرى ، لم يعن بالضرورة أن الايمان بالله ، عن ادراك ووعي ، كان
يملا على نفسى في تلك الأيام ، ومع ذلك فان شيئا واحدا كان قد
تغلغل الى أعماق نفسى في ذلك الوقت - ذلك هو الايمان بأن الأخلاق
أساس كل شيء ، وبأن الحق هو أساس الأخلاق ، ومن ثم فقد أصبح
الحق الهدف الذى أبتغيه ، وأخذ ايمانى بالحق يزداد على مر الأيام ،
وادراكى لعناه يتسع فى مدهاه شيئا فشيئا .

١١ - الاستعداد للسفر الى انجلترا

كان الكبار من أفراد أسرتي يريدونني على أن أستكمل دراستي في إحدى الكليات عقب حصولي على شهادة اتمام التعليم الثانوي . وكان أمامي كليتان يمكن أن ألتحق بإحدهما ، واحدة في بهافناجار ، والأخرى في بومباي . ولما كانت أولاهما أقل في مصروفاتها ، فقد استقر رأيي على أن ألتحق بها - تلك هي كلية سامالداس . ودخلت الكلية المذكورة ، ولكنني وجدت نفسي فيها في دوامة عنيفة من الارتباك . كان كل شيء فيها صعبا ، حتى عجزت عن متابعة ما يلقي فيها من دروس ، وافتقدت كل شوق إليها . ولم يكن الخطأ في ذلك خطأ الأساتذة ، فقد كانوا من خيرة أساتذة الكليات ، ولكنني كنت لا أزال فجا لم أنضج بعد . وهكذا ما كاد ينتهي الفصل الدراسي الأول حتى عدت الى بيتي .

وكان لنا في ماف جي دافي ، وهو برهمي يتسم بالحكمة والمعرفة ، صديق قديم ، وناصح أمين ، ظل على اتصال بنا حتى بعد وفاة أبي . وتصادف أن جاء لزيارتنا في فترة عطلتي ، وتطرق الحديث الى السؤال عن أحوالي المدرسية ، فلما علم أنني التحقت بكلية سامالداس قال يخاطبنا أنا وأمي وأخي الأكبر : « لقد تغير الزمن ، فلم يعد فيكم من يستطيع أن يصبو الى منصب أبيكم الرفيع الا من أوتى بسطة في العلم وتابع مراحل تعليمه على خير وجه . ولما كان هذا الصبي لا يزال في مراحل الدراسة فالواجب أن تتطلعوا الى مستقبله حتى يستأثر بمنصب مثل منصب أبيه . ان تعليمه العالي هناسيقتضيه أربع سنوات أو خمسا قبل أن يحصل على درجة البكالوريوس ، وهي

درجة تؤهله في الكثير لوظيفة مرتبها ستون روبية ، لا الى منصب من مناصب الوزارة . أما اذا سلك الطريق الذي سلكه ابني واتجه الى دراسة القانون فان الامر سيقضيه مدة أطول من ذلك . وفي تلك الفترة يكون قد تخرج حشد كبير من المحامين الذين يتطلعون الى المناصب الرفيعة . لذلك أفضل أن تبعثوا به الى انجلترا . اتجهوا بنظركم الى ذلك المحامي الذي عاد منها أخيرا وانظروا كيف يعيش عيشة راقية . انه يستطيع أن يظفر بمنصب كبير بمجرد أن يطلبه . اننى أنصحكم بشدة أن توفدوا موهانداس الى انجلترا هذا العام . ان كيفالرام له اصدقاء عديدين فيها وهو سيعيتم اليهم برسائل يوصيهم فيها به . وهكذا تصبح اقامته فيها سهلة ميسرة . »

وانتقل جوشي جى - هكذا كنا نناديه - ببصره الى وكله ثقة ويقين ، ثم قال : « ألسنت تفضل أن تذهب الى انجلترا ؟ » . ولم يكن شيء فى الواقع أحب الى نفسى من ذلك ، فقد كنت عاجزا عن ملاحظة دروسى فى الكلية . فلم أكد أسمع منه هذا العرض حتى تشبثت به وقلت له : « وخير البر عاجله » . أما أخى فقد كان فى شغل شاغل ، اذ أنى له بالمال الذى يكفى لسد نفقات سفرى واقامتى فى انجلترا ؟ ثم هل من الحكمة ارسال شاب مثل لا يزال فى مقتبل العمر الى الخارج وحده ؟ . وأما أمى فقد أسقط فى يدها . كانت تكره فكرة فراقى عنها فأخذت تسأل أسئلة دقيقة ، اذ كان قد بلغها من واحد من الناس أن الشباب يضلون الطريق السوى وهم فى انجلترا ، وبلغها من آخر أنهم يأكلون اللحم فيها ، وبلغها من ثالث أنهم لا يستطيعون العيش فيها اذا هم لم يعاقروا الخمر . وسألتنى أمى : « ما رأيك فى كل هذا ؟ » . وأجبتها على الفور : « ألا تأتمنيننى ؟ انى لن أكذب عليك اطلاقا ، وأقسم لك على أننى لن أمس شيئا من ذلك . ولو كان هناك خطر على من ذلك أفكنت تظنين أن جوشي جى كان يسمح لى بالسفر ؟ » .

وردت على تقول : « اننى أأتمنك ، ولكن كيف أأتمنك وانت فى بلد ناء بعيد ؟ اننى فى حيرة من أمرى ولا أعرف ماذا أفعل ، وسأسأل فى ذلك بيشار جى سوامى » .

وكان بيشار جى راهبا من رهبان الجينيين وكان هو الآخر ناصحا أميناً للعائلة ، شأنه فى ذلك شأن جوشى جى ، فلما استشارته أمى سارع الى عونى وهو يقول : « سأجعل هذا الصبى يقسم اليمين على أن يرمى العهود الثلاثة ، تم بعد ذلك يستطيع أن يسافر » . وحلقنى اليمين بعد ذلك فاقسمت أمامه على ألا أمس الخمر ولا أقرب النساء ولا أكل اللحم ، فلما فرغت من قسمى أذنت لى أمى بالسفر .

وأقامت المدرسة الثانوية حفلا لتوديعى ، اذ لم يكن بالامر العادى أن يسافر شباب من راجكوت الى انجلترا . وأعددت بضغ كلمات لآلقها على سبيل الشكر ، ولكنى ما كدت أقف على قدمى لاتكلم حتى ارتج على ووجدت نفسى عاجزا حتى عن التلثم بتلك الكلمات من بين شفقتى . ولا زلت أذكر كيف دارت رأسى وقتها وكيف اهتز كيانى كله وأنا أقوم لآلقى تلك الكلمات القليلة .

وسافرت الى بومباى وأنا قرير العين منتعش الفؤاد يصحبنى رضاء أمى ودعواتها بعد أن خلفت وراثى زوجة وطفلا لا تتعدى سنه شهورا معدودات . فلما وصلت الى بومباى قال بعض أصدقائنا فيها لأخى ان أمواج المحيط الهندى تشتد وتتلاطم خلال شهرى يونية ويولية وان الواجب ألا يسمح لى بالسفر حتى يحين شهر نوفمبر بالنظر الى أن هذه كانت أول رحلة لى بالبحر .

أما أهل الطائفة التى أنتمى إليها فقد كانوا فى ثورة عارمة من جراء سفرى الى الخارج ، فعقدوا اجتماعا عاما منهم وطلبوا الى أن أحضره . وحضرته بالفعل وان كنت لا أدرى كيف استجمعت من

التسجاعة يومها ما جعلني أذهب لمواجهتهم • نم أخش شيئا وقتها ولم أشعر برهبة أو وجل ، وتقدمت اليهم في غير تردد على الاطلاق •

وبدا الشيت ، او رئيس الجماعة ، وكانت له بنا قرابة بعيدة كما نان على صلة طيبة بأبي ، بدأ يهاجمنى على النحو التالى :

« من رأى الطائفة أن اعتزامك السفر يتجافى مع كل رأى سديد • فديننا يحرم السفر الى الخارج ، وقد سمعنا فوق ذلك أن من المستحيل على المرء أن يعيش هناك من غير أن يتورط فى أمور دينه ، فهو لا مفر له من أن يأكل ويشرب مع الأوروبيين » •

وأجبتة : « اننى لا أظن أن سفرى الى انجلترا يتعارض اطلاقا مع ديننا • اننى أعتزم السفر اليها للمتابعة دراستى وقد عاهدت أمى عهدا صادقا على البعد عن أمور ثلاثة هى أخشى ما تخشونه • وأنا واثق من أن العهد الذى قطعتة على نفسى سيجعلنى فى مأمن من الزلل » •

وعاد الشيت يقول : « ولكننا نقول لك ان من غير الممكن المحافظة على دينك وأنت هناك • وانك لتعلم صلتى بأبيك ويجب عليك أن تستمع الى نصحى لك » •

وقلت له : « اننى أدرك هذه الصلة ، وأدرك أن لك فى نفسى المكانة التى هى لكل من يكبرنى سنا ، ولكنى لا أملك من أمرى شيئا فى هذا الموضوع ولن أستطيع أن أعدل عما اعتزمتة من السفر الى بجلترا • ان صديق أبى وناصحه ، وهو برهمى واسع العلم ، لم ير فى سفرى اليها ما يجوز أن يكون موضع معارضة ، وقد أذنت لى أمى وأخى فوق ذلك بالسفر » •

— « ولكنك فى ذلك تعصى أوامر طائفتك » •

– « انتى فى ذلك لا املك من امرى شيئا • ومن رأى أنه لا ينبغي للطائفة أن تتدخل فى هذه المسألة » •

غير أن هذه العبارة الأخيرة أحنقت الشيت ، فجعل يسبنى • وجلست ساكنا لا أتحرك، فلم يسعه الا أن يصدر أمره قائلا : «يجب أن يعامل هذا الصبي معاملة المطرودين من الطائفة ، وكل من يساعده فى سفره أو يذهب لتوديعه فى الميناء ستوقع عليه غرامة قدرها روبية واحدة وأربع أئات » •

بيد أن هذا القرار الذى أصدره الشيت لم يكن له أثر فى نفسى، فاستأذنته فى الانصراف ، دون أن أدرك ما عساه يكون وقعته فى نفس أخى • على أن من حسن حظى أن أخى بقى ثابتا لا يتغير فكتب الى يؤكد لى رضاه عن سفرى على الرغم من الأمر الذى أصدره الشيت •

وأبحرت أخيرا من بومباى فى اليوم الرابع من شهر سبتمبر •

١٢ - على ظهر السفينة

لم أكن قد اعتدت التحدث الى الناس باللغة الانجليزية ، بينما ركاب الدرجة الثانية الآخرون ، باستثناء السيد مازادور وهو محام هندي ضليح كان يزاملني في مقصورتى ، كانوا جميعا من الانجليز . وهكذا لم أكن لأستطيع التحدث الى أحد منهم ، فقد كنت عاجزا عن تتبع عباراتهم اذا تحدثوا الى ، واذا فهمتها كنت أشد عجزا عن الاجابة ، اذ كان على أن أكون الجملة فى عقلى قبل أن تجرى عبارتها على لسانى .

وكنت فوق ذلك أجهل طريقة استعمال الشوكة والسكين ، وتنقصنى فوق ذلك الشجاعة اللازمة لكي أستفسر عن الأطباق الخالية من اللحم بين الأصناف الواردة فى قائمة الطعام ، ومن ثم فانى لم أتناول طعامى فى قاعة الطعام ولو مرة واحدة بل كنت أتناول وجباتى كلها فى مقصورتى ، وكانت تتألف فى الغالب من الحلوى والفاكهة التى جئت بها معى . أما السيد مازادور فلم يجد فى ذلك صعوبة على الاطلاق . كان يختلط بالناس جميعا ، ويتنقل فوق ظهر السفينة فى حرية وسهولة ، فى حين كنت أقبع طيلة النهار فى مقصورتى فلا أجرؤ على الصعود الى ظهر السفينة الا بعد أن يكون الموجودون عليه قد تضاءلوا فى أعدادهم حتى أصبحوا قلة لا تذكر . كل ذلك على الرغم من توسلات السيد مازادور ومحاولته اقناعى بكل الوسائل بضرورة الاختلاط بالركاب والتحدث اليهم فى حرية . كان يقول لى ان المحامى يجب أن يكون له لسان طويل ، ويقص على تجاربه فى المحاكم ، ولا ينفك ينصحنى بأن أفيد من كل فرصة سانحة لكى أتحدث باللغة الانجليزية غير مبال فى ذلك بما قد أقع فيه من أخطاء لا سبيل لكل من يتحدث بلغة أجنبية الى تجنبها .

كل ذلك دون جدوى ، فقد عجزت عن التغلب على حيائي وعلى
انطوائى الذاتى .

واستطاع أحد الركاب الانجليز ، كانت قد أخذته الشفقة بى ،
أن يجرنى يوما الى الحديث ، وكان يكبرنى سنا . سألتنى ماذا أكل ؟
ومن أكون ؟ والى أين أذهب ؟ ولماذا يعترينى ما يعترينى من خجل ؟
الى غير ذلك ، ثم نصحتنى بأن أتناول وجباتى فى قاعة الطعام ،
وضحك منى حين علم باصرارى على تحريم أكل اللحم ، وقال ، وكنا
وقتها نشق طريقنا فى البحر الأحمر : « حسنا ما فعلته الى هنا ،
ولكن عليك عندما نصل الى خليج بسكاي أن تعيد النظر فى قرارك ،
فان الجو فى انجلترا من البرودة بحيث لا يستطيع المرء أن يعيش
فيها دون أن يأكل اللحم » .

وقلت له : « ولكننى سمعت أن من الممكن أن يعيش الانسان فيها
دون أن يفعل ذلك » .

وأجابنى : « تأكد أن ما سمعته انما هو أكذوبة ، فليس فى
انجلترا ، فيما أعلم ، من يعيش من غير أكل اللحم . ثم ألسنت ترى
اننى لا أحاول اقناعك بشرب الخمر على الرغم من أننى أشربها ؟ أما
اللحم فاننى أعتقد أن من واجبك أن تأكله ، اذ لا سبيل لك أن تعيش
من غيره » .

قلت له : « أشكرك على نصيحتك الطيبة ولكننى وعدت أمى
وعدا لا أحدث فيه بألا أقرب اللحم ومن ثم فلن أفكر فى أكله ، فإذا
تبين لى استحالة البقاء بدونه فانى أفضل العودة الى الهند على أن أكله
لكى أبقى فى انجلترا » .

ودخلنا خليج بسكاي فلم أشعر مع ذلك بحاجة الى اللحم أو

الخمير على السواء . نم بلغنا أخيرا ميناء سوبامبتون ، وكان اليوم على ما أظن يوم سبت . لقد كنت وأنا في السفينة أرتدى بذلة سوداء، أما البذلة البيضاء التي أهدانيها بعض أصدقائي في الهند فقد احتفظت بها خصيصا لكي ألبسها عندما أنزل من السفينة ، إذ اعتقدت أن الملابس البيضاء اليق بي وأنا على البر . وهكذا لبست حلتى البيضاء قبيل مغادرة السفينة ، وكنا وقتها في أواخر شهر سبتمبر ، وعجبت عندما وجدتني الشخص الوحيد الذى يلبس ملابس بيضاء . فلما هبطنا من السفينة تركت حقائبي مع مندوب محل جريندلى وشركائه ومعها المفاتيح بعد أن رأيت الكثيرين يفعلون ذلك فأردت أن أحاكبهم .

وكنت أحمل معى خطابات توصية الى أربعة أشخاص ، هم الدكتور ب.ج . ميهتا ، والسيد دالباترام شو كلا ، والامير رانجيسمينه جى ، ودادابهاى ناروجى . وكان أحد ركاب السفينة قد أشار على بالنزول في فندق فيكتوريا بلندن ، فنزلنا به أنا والسيد مازمادور . لقد كان خجل من أننى الشخص الوحيد الذى بدا فى ملابس بيضاء قد بلغ منى فى ذلك الوقت كل مبلغ . فلما علمت وأنا فى الفندق أننى سوف لا أتسلم حقائبي من محل جريندلى وشركائه فى اليوم التالى ، إذ كان يوم أحد ، شعرت بضيق وخرج لا حد لهما .

وجاء الدكتور ميهتا ، وكنت قد أبرقت اليه من سوثامبتون ، لزيارتي بالفندق فى حوالى الثامنة مساء ، فى نفس اليوم الذى وصلنا فيه لندن ، فحيانى تحية حارة وابتسم عندما رآنى فى بندلتى البيضاء . وبينما نحن مشغولون بالحديث مددت يدي الى قبعتيه السوداء العالية فى شيء من النزق وجعلت أمر عليها يبدى لاثمسس مدى نعومتها ، غير أننى فيما يبدو مررت عليها يبدى فى الاتجاه العكسى فعبثت بوبرها ، وهنا نظر الى الدكتور ميهتا غاضبا ، وطلب الى أن أكف عن الاسترسال فيما أنا فيه .

لقد كانت هذه الحادثة بمثابة تحذير لى عما يجب أن يكون عليه سلوكى فى المستقبل ، كما كان الدرس الذى لقته لى الدكتور ميهتا أول درس لى فى آداب اللياقة الأوروبية حين قال مبتسما بعد ذلك : « حذار أن نلمس ما يخص غيرك او تسأل الناس أسئلة على نحو ما نفعل نحن فى الهند عند أول لقاء لك معهم ! وإياك والتحدث بصوت مرتفع أو مخاطبة أحد من الناس فتقول له «سيدى !» على نحو ما نفعل فى الهند ، فالخدم والاتباع هم وحدهم الذين يخاطبون أسيادهم بهذا الأسلوب ، الى غير ذلك من النصائح والعظات . كذلك أشار على بالاقامة بين عائلة من العائلات نظرا لما تتطلبه الإقامة فى الفنادق من نفقات مرهقة .

وقد وجدت ، أنا والسيد مزادور ، أن الإقامة فى الفندق متعبة بالفعل ، فضلا عن نفقاتها المرهقة . ولما كنا ونحن فى السفينة قد تعرفنا على رجل من أهل السند ، ركب معنا السفينة من مالطة ، وكانت له دراية واسعة بأساليب الحياة فى لندن ، فقد عرض علينا أن يبحث عن حجرات نستأجرها ، ووافقنا . وما ان وصلت حقائبنا فى يوم الاثنين حتى دفعنا حسابنا فى الفندق واتجهنا الى المكان الذى استأجره لنا صديقنا السندى . وأذكر أن حسابى بلغ يومئذ ثلاثة جنيهات ، وهو مبلغ أذهلنى ، فقلت لى نفسى أحشفا وسوء كيلة . والحق أننى كدت أموت جوعا وأنا فى الفندق رغم ما تكبدته فيه من نفقات ، اذ لم أستطع شيئا من طعامه ، وكنت اذا لم يعجبني نوع من الطعام طلبت غيره ، فكان على أن أدفع ثمن الطبقين معا ، كل هذا وأنا اعتمد طول الوقت على ما أحضرته معى من المؤونة من بومباى .

غير أننى لم أشعر وأنا فى حجرتى الجديدة بشيء من السكينة والهدوء النفسى ، فقد كنت دائم التفكير فى أهلى وبلدى . كان حبى لأمى يملك على كل تفكيرى ، فاذا جاء الليل انهمرت الدموع من عينى وعاودتنى ذكريات الأسرة العديدة فلا تدع للنوم الى عينى سبيلا .

ولم يك فى استطاعتى أن أشرك أحدا معى فيما كنت فيه من هم مقيم ،
وحتى لو استطعت فماذا عسأى أن أجنى من وراء ذلك ؟ وهكذا
وجدتنى عاجزا عن الاهتداء الى شىء يمكن أن يهدىء من روعى . كان
كل شىء غريبا على : الناس ، وطريقة حياتهم ، حتى مساكنهم . وكنت
فوق ذلك حديث عهد بأداب السلوك عند الانجليز ، فكان على أن
أكون دائما حذرا متحفظا . أضف الى كل ذلك المضايقات الناجمة عن
العهد الذى قطعته على نفسى بأن أظل نباتيا ، اذ حتى الاطباق التى
كان يمكن أن أكلها كانت مائعة لا طعم لها . وهكذا ألفت نفسى بين
شرين أحلاهما مر . فأما الحياة فى انجلترا فقد كنت عاجزا عن
احتمالها ، وأما العودة الى الهند فأمر كان لا يمكن التفكير فيه . على
أن صوتا كان يحدثنى من أعماق نفسى فيقول لى : أما وقد حضرت الى
انجلترا ، فعليك أن تقضى السنوات الثلاث المقررة .

١٣ - فى فننن

جاء اندكتور ميپتا الى فننن فيكتوريا فى اليوم ادى غادرياه فيه ، فدما علم باننا غادرياه اخذ عنواننا الجديد وحضر لزيارنا فيه . وبعد أن تفقد حجرتى الجديدة وتبين كل الظروف المحيطة بها هن رأسه عنوانا على عدم موافقته عليها ، ثم قال لى : « هذا مكان لا يصلح ، فنحن لا نأتى الى انجلترا بقصد الدراسة ، بقدر ما نأتى اليها لكى نكتسب عادات الانجليز وطريقتهم فى الحياة . ولذلك فان من واجبك أن تعيش وسط عائلة من العائلات . ومع ذلك فمن رأى قبل أن تفعل ذلك أن تمضى فترة من التمرين مع صديق لى ساخذك اليه بنفسى » .

وقبلت اقتراحه معترفا له بالجميل والفضل ، وانتقلت الى حجرة ذلك الصديق الجديد ، فوجدته يفيض شفقة وحنانا . كان شديد الاهتمام بأمرى ، يعاملنى كما لو كنت أخاه ، ويعلمنى آداب الانجليز وطريقة حياتهم ، ويغرس فى عادة التحدث بلغتهم . ولكن مشكلة طعامى ظات مع ذلك تستعصى على الحل ، فقد عافت نفسى الخضر المسلوقة من غير ملح أو توابل . وكانت صاحبة البيت نفسها فى حيرة من أمرها لا تدري ما تعده لى . كنا فى العادة نتناول العصيدة فى الصباح فكانت تشبعنى الى قدر . أما فى الغداء والعشاء فقد كنت أقدم جائها .

وحاول صديقى أن يحملنى على أكل اللحم فكانت دائما أذكره بعهدى لأمى ، ثم أظل صامتا . كان طعامى فى الغداء والعشاء على

السوء يتألف عادة من الاسفانخ والخبز وبعض المربي . وعلى الرغم من أنني كنت أكون تتسع معدتي لكثير من الطعام ، فقد كنت أستحيي من أن أطلب أكثر من شريحتين أو ثلاثاً من الخبز إذ خيل إلى أن أي استزادة عن هذا القدر قد لا تتفق مع المسلك اللائق . أضف إلى ذلك افتقاد اللبن ظهراً ومساءً . وضاق صديقي ذرعاً بي فقال لي يوماً : « لو أنك كنت أخي شقيقي لطلبت إليك أن تحزم حقائبك وأن تعود إلى الهند فوراً . فما قيمة عهد قطعته لأم غير مثقفة لا تعلم من ظروف الحياة هنا شيئاً ؟ ان الذي فعلته معها لا يمكن أن يكون عهداً على الإطلاق ، ولا هو عهد في عرف أي قانون ، وانك لو اهتم حين تمسك به . دعني أقول لك ان اصرارك هذا لن يساعدك على أن تقيّد شيئاً من بقائك هنا . فأنت تعترف بأنك أكلت اللحم واستطبت من قبل ، ولكنك أكلت اللحم وقتها حيث لم يكن أكله ضرورياً ثم تمتنع الآن عن أكله حين يكون أكله أمراً لا مناص عنه . ان حالك يثير الشفقة » .

ولكنني مع ذلك بقيت ثابتاً لا أتزعزع . .

غير أن صديقي لم يفتأ يحاجني في ذلك ، فكان كلما أمعن في حججه زدت عناداً واصراراً . كنت كل يوم أدعو الله أن يحميني من نفسي ، فكان يتقبل دعائي ، لا لأنني كنت أعرف شيئاً عن الله ، فقد كانت معرفتي به حتى الآن عامة وسطحية ، ولكنه الايمان ، الايمان الذي كان يعتمل في نفسي ، بعد أن غرست بذوره الأولى في قلبي مربيته الطيبة ، رامها .

وأخذ صديقي بعد ذلك يقرأ لي فقرات من كتاب بنتام عن « النظرية النفسية » فكان ذلك أكثر مما أطيق ، فقد كانت لغة الكتاب أصعب من أن أفهمها ، ومن ثم فقد أخذ يشرحها لي . وقلت له أخيراً : « معذرة ! ان هذه المسائل العويصة فوق طاقتي . انني أعتز لك بأن أكل اللحم ضروري ، ولكنني مع ذلك لا أستطيع أن أحتج في

يعني . وأنا لا أستطيع أن أحاجك في ذلك لأننى أعرف أننى لست
ندا لك ، ولكنى أرجو أن تقطع الأمل منى باعتبارى جاهلا أو عنيدا .
انى أقدر حبك لى ، وأعرف أنك تريد لى الخير ، كما أدرك أنك لا تفتأ
تقول ما تقول لأنك تشفق على ، ولكنى لا حيلة لى فى موقفى ، فالعهد
عهد ، ولا ينبغى الحنث به .

ونظر صديقى الى دهشا ثم أغلق الكتاب وهو يقول : وحسنا !
لن أحاجك بعد الآن ، . . واعتبطت نفسى لذلك . ولم يعد صديقى
الى مفاتحتى فى هذا الموضوع مرة أخرى ، ولكنه لم يكف مع ذلك عن
الاهتمام بأمرى . كان يدخن ويشرب الخمر فلا يطلب منى أن أفعل
كما يفعل ، بل على العكس ، كان دائما يطلب الى أن أنأى بنفسى عن
كليهما ، فقد كان كل ما يشغل باله خوفه على من أن يزداد بى
الضعف ، اذا أنا ظللت ممتنعا عن أكل اللحم ، فتصبح حياتى فى
انجلترا مما لا قبل لى على احتماله .

هكذا أمضيت مع صديقى فترة مران استمرت شهرا . ولما كان
بيت هذا الصديق فى ضاحية ريتشموند ، فلم يكن فى مكنتى أن أذهب
الى لندن أكثر من مرة أو مرتين فى الاسبوع . ومن ثم فقد قرر الدكتور
ميهتا والمستر دالباترام شو كلا ، أن أقيم بين عائلة من العائلات
الانجليزية . وقد اهتدى المستر دالباترام الى بيت لأصحابه من أصل
انجليزى هندى يقع فى حى وست كنزنجتون ، فأسكننى فيه . كانت
سيدة هذا البيت أرملة ، وقد أطلعتها على العهد الذى كنت قطعتة على
نفسى فوعدت بالعناية بأمرى فى ذلك على خير وجه . غير أننى كنت
فى هذه المرة على شفا الموت جوعا . كان كل شىء فى ذلك البيت لا طعم
له ، وكانت السيدة العجوز تسألنى كل يوم اذا كنت أستطيع أكلها

وإذا كان هناك ما يمكنها أن تفعله من أجلي . ولكنني كنت خجولا كاشد ما يكون الخجل فدم أجرؤ على أن أطلب أكثر مما كانت تضعه أمامي على المائدة . وكان لهذه السيدة فتاتان ، كانتا تصران على أن تقدملي شريحة أو شريحتين أخريين من الخبز ، ولكن ما أكثر ما كانتا تجهلان أنه لا شيء أقل من رغيف بأكمله كان يمكن أن يسد رمقي .

ولكنني مع ذلك كنت قد أخذت أتجسس مكان قدمي من الأرض في ذلك الوقت . كانت دراستي المنتظمة لم تبدأ بعد فشرعت أقرأ الجرائد بانتظام بفضل مشورة المستر دالباترام . ومع أنني لم أقرأ جريدة واحدة وأنا في الهند فقد استعذبت قراءتها وأنا هنا حتى شغفت بها حبا .

غير أن ذلك لم يكن ليشغل من وقتي غير ساعة أو بعض ساعة ، ومن ثم فقد اعتدت أن أتجول ، بعد الانتهاء من قراءتها ، في بعض أنحاء المدينة باحثا عن مطعم من مطاعم النباتيين . كنت أمشي كل يوم عشرة أميال أو عشرين ميلا أدخل خلالها مطعما من المطاعم الرخيصة فأكل من الخبز حتى امتلئ دون أن أحس بالشبع . وفي إحدى هذه الجولات عثرت على مطعم نباتي في شارع فارنجتون فأثلجت رؤياه صدري ، وشعرت بالغبطة التي يشعر بها الطفل عندما يظفر بشيء عزيز عليه . وقبل أن أدلف الى المطعم وقع نظري على بعض الكتب المعروضة للبيع على مقربة من بابه ، فوجدت بينها كتابا لسولت عنوانه « مناقشة من أجل النظرية النباتية » فاشتريته بشلن واحد ثم دخلت على الفور الى قاعة الطعام فكان ما تناولته فيها أشهى طعام تذوقته منذ أن وصلت الى انجلترا . نعم ، فلقـد مد الله الي يد العون .

وظالمت كتاب سولت من أوله الى آخره فتأثرت بما قرأته فيه

كل التأثير حتى لأستطيع أن أقول اننى صرت نباتيا بمحض اختيارى منذ اللحظة التى انتهيت فيها من قراءته ، وحمدت اليوم الذى قطعت فيه على نفسى العهد الذى قطعته أمام أمى . لقد كان امتناعى عن أكل اللحم حتى ذلك اليوم مرده حبى للحق ورعايتى لهذا العهد ، ولكن ذلك لم يمنعنى من أن أتمنى لو أصبح كل هندى من أكلة اللحوم ، وأن أكون واحدا منهم ، أكل اللحم علنا كل يوم وأدعو غيرى الى مشاركتى فيه . أما الآن فقد اتجهت بمحض ارادتى واختيارى الى مشايعة النظرية النباتية وأخذت على نفسى أن أعمل على نشرها .

١٤ - أسلك مسلك الجنلمان الانجليزى

لم يكف صديقى عن شغل نفسه بأمرى، فدعاني يوما الى الذهاب معه الى المسرح . وكان من المتفق عليه بيننا أن نذهب قبل ذلك لتناول العشاء فى مطعم هوبرن . وكان صديقى فيما يبدو من ظروف هذه الدعوة ، يبنى من وراء اصطحابى الى ذلك المطعم أن يكون الاحتشام مانعا يمنعنى من السؤال والاستفسار . وكان فى المطعم نفر كبير من الطاعمين جلست أنا وصديقى بينهم نقتسم طرفى المائدة بيننا . كان الطبق الأول يتألف من الحساء ، وساءلت نفسى مم ياترى يكون قد صنع ؟ ولكنى لم أجرؤ على أن أسأل صديقى ، فاستدعيت النادل الى ، ورأى صديقى تلك الحركة فسألنى عبر المائدة ما الأمر ؟ وأجبتة فى كثير من التردد ، اننى أريد أن أستفسر منه إذا كان الحساء يتألف من النباتات وحدها . وصاح فى صديقى يقول : « انك جلف لا تصلح للجلوس فى المجتمعات الراقية . وإذا كنت لا تستطيع أن تسلك مسلكا خيرا من هذا ، فأولى بك أن تقوم من هنا . اذهب الى مطعم آخر ثم انتظرنى فى الخارج » واغتبطلت لهذا القول وخرجت مسرعا .

كان على مقربة من هذا المطعم مطعم نباتى قصدت اليه فوجدته مغلقا فأمضيت ليلتى من غير عشاء .

وذهبت مع صديقى الى المسرح بعد ذلك ، ولكنه لم يفه بكلمة واحدة عن الفصل الذى تسببت فيه . أما من ناحيتى فلم يكن هناك بطبيعة الحال ما يمكن أن أقوله .

كان هذا الحادث آخر مشادة حبية بيننا . انها مشادة لم تؤثر

على علاقتنا بحال من الأحوال ، فقد استطعت أن أتبين منها مدى ما يمكنه لي من حب كان الدافع الى ما بذله من محاولات لكي يحملني على أكل اللحم . بل لقد كان من أثر هذا الخلاف بيننا في الفكر والعمل أن زاد حبي واحترامى له .

بيد أنني قررت بيني وبين نفسي بعد ذلك أن أريح صديقى مما كان يشغل باله وأن أطمئنه الى أنني لن آكون جلقا بعد اليوم ، وأن أحاول أن آكون أكثر تهديبا في تصرفاتى فى المستقبل حتى أعوض تشييعى للنباتية بالاستزادة من الكفاية فى نواح أخرى من شأنها أن تكفل للمرأة مكانا فى المجتمعات المهذبة .

فقد بدا لى يومئذ أن ملابسى التى ألبسها ، وما تتسم به من طابع الملابس المصنوعة فى بومباى ، لا توائم ذوق المجتمع الانجليزى ، ومن ثم فقد عمدت الى شراء ملابس جديدة من مخازن الجيش والبحرية . كذلك اشتريت قبعة من نوع البولر دفعت ثمنها لها تسعة عشر شلنا وهو ثمن باهظ فى تلك الايام . ولم أكتف بذلك ، بل بددت عشرة جنيهات فى شراء بذلة سوداء مما يلبس فى الحفلات المسائية ، اشتريتها من بوند ستريت ، مركز الأزياء فى لندن ، هذا الى سلسلة مزدوجة للساعة من الذهب الخالص كلفت أخى طيب القلب أن يرسلها لى من الهند . ولما لم يكن من حسن الهندام أن يلبس المرء ربطة عنق جاهزة فقد تعلمت كيف أعقدها بنفسى . وكانت المرأة فى الهند احدى الكماليات التى لا يباح لى الاستمتاع بالنظر فيها الا حين يحضر الحلاق الى البيكت ليجز شعرى . أما هنا فقد كنت أمضى عشر دقائق كل يوم أتطلع فيها الى نفسى فى مرآة ضخمة كى أرقب نفسى وأنا أعقد ربطة عنقى وأصف شعرى على الوجه المرضى . ولم يكن شعرى بحال من الأحوال ناعما ، فكان معنى ذلك جهادا رتيبيا مع الفرشاة كل يوم لكى أحتفظ به فى وضعه الصحيح ، وكنت كلما رفعت قبعتى أو

وضعتها فوق رأسى مررت بيدي فوق رأسى بطريقة آلية لكي أسوى
شعري .

وكأني لم أفنح بكل ذلك، فاتجهت الى تفاصيل أخرى مما يفترض
في المرء الامام بها لكي يكون جنتلمانا انجليزيا . فقد قيل لي ان من
واجبي أن أتلقى دروسا في الرقص وفي اللغة الفرنسية وفي فن الالقاء،
ولم تكن اللغة الفرنسية لغة فرنسا المتأخمة لانجلترا فحسب ، بل
كانت الى جانب ذلك اللغة التي تلقي انتشارا واسعا في القارة الأوروبية
التي كنت أطمح في أن أسيح فيها يوما من الأيام . ومن ثم فقد قررت
أن أتعلم الرقص في إحدى المدارس المخصصة لذلك ودفعت ثلاثة
جنيهات كاملة عن فترة دراسية واحدة . ولا بد أنني أخذت نحو ستة
دروس في أسابيع ثلاثة ، ولكن اتقان الحركات الإيقاعية ظل مع ذلك
أمرا بعيد المنال بالنسبة لي ، فلم يكن في استطاعتي تتبع الالتمعات
المنعثة من البيانو ، ومن ثم فقد استحالت علي مراعاة التوقيت الذي
تستلزمه الحركات الراقصة ، فماذا أصنع إذن ؟ ان الناسك الذي كان
يعيش في صومعته بعيدا عن الناس ، علي حد الخرافة المشهورة .
احتفظ بهرة لكي يطرد الفيران ، ثم أتى ببقرة لكي يطعم الهرة من لبنها،
ثم جاء برجل لكي يرعى البقرة ، الى آخر السلسلة . هكذا كانت
مطامعي في ذلك الوقت ، كانت أشبه بأسرة ذلك الناسك ، في نمو
مستمر : فقد فكرت في تعلم العزف علي الكمان لكي أعود أذنني فهم
الموسيقى الغربية ، وأنفقت ثلاثة جنيهات في شراء الكمان ، وثلاثة
أخرى أو تزيد رسما لتعلم العزف عليها . ثم لجأت الى مدرس آخر
أتلقى علي يديه فن الالقاء والخطابة ودفعت له جنيها كرسوم مبدئي
واشتريت كتابا أشار علي بشرائه .

علي أنني لم أكد أبدأ استعمال هذا الكتاب حتى أخذت أثوب الى
رشدى . قلت لنفسى انني لن أقيم في انجلترا مدى حياتي ، وإذن
ما الحكمة في دراسة فن الالقاء ؟ وأني للرقص أن يجعل مني جنتلمانا؟

أما الكمان ففي مكنتي أن أتعلّمها وأنا في الهند • انني وأنا في انجلترا لا أعدو أن أكون طالبا ، ومن واجبي أن أعكف فيها على دروسى ، اذ لا بد لي من أن أجتاز الدراسة التي تؤهلني لأن أكون محاميا • فاذا كانت أخلاقي تسمح لي بأن أكون جنتلمانا فيها ، والا فالواجب يقتضي أن أعدل عما أنا سادر فيه •

وتملكنتني هذه الافكار ، وظلت تستبد بي ، الى أن وجدت متنفسا لها في خطاب بعثت به الى مدرس الالقاء أرجوه فيه أن يعفيني من مواصلة دروسى ، ولم أكن قد تلقيت عليه أكثر من درسين أو ثلاثة • وبعثت بخطاب شبيه الى معلم الرقص ، كما ذهبت بنفسى الى معلمة الكمان أرجوها أن تبيع الكمان التي اشتريتها بأى نم تجده ، فلقيت منها روحا طيبة حملتني على أن أفضى اليها بما كان يعمل في نفسى ، وأن أشرح لها كيف تبيئت أننى كنت أجرى وراء فكرة خاطئة ، فشجعتنى على الاستمرار فيما اعتمزته من تغيير أسلوب حياتى تغييرا شاملا •

وهكذا لم يدم الافتنان الذى اعترانى الا نحو ثلاثة أشهر • أما العناية بهندامى فقد بقيت تلازمى أعواما ، ولكننى مع ذلك أصبحت منذ تلك اللحظة طالبا لا أكثر ولا أقل •

١٥ - تطورات في حياتي

أرجو ألا يتصور أحد من الناس أن تجاربي في الرقص وماشابهه كانت مرحلة من مراحل الانغماس . ولعل القارىء قد لاحظ أنني ، حتى في ذلك الوقت ، لم أفقد صوابي يوما . بل ان هذه الفترة التي أغرمت فيها بهذه المسائل لم تكن خالية من قسط من الاستقرار النفسى ، كما أن نفقاتي خلالها لم أترك لها الحبل على الغارب ، بل كنت أحسبها حسابا دقيقا .

فقد أمكننى ، وأنا أرقب نفسى وأتبع أسلوب حياتي ، أن أتبنى ضرورة الاقتصاد في نفقاتي . ومن ثم فقد قررت أن أستقل في سكنى وأن أدبر شئونى بنفسى ، بدلا من الإقامة مع إحدى العائلات ، وأن أتقل دائما من مسكن الى مسكن وفق ما يقتضيه عملي ، وبذلك أظفر بمزيد من التجربة . وقد حرصت منذ ذلك الوقت على اختيار سكنى بحيث أستطيع الذهاب الى عملي سيرا على الاقدام فأوفر بذلك نفقات انتقالى . فقد كنت حتى ذلك الوقت مضطرا الى الاستعانة بوسيلة من وسائل النقل أينما ذهبت مما لم يترك لى ، فوق ذلك ، متسعا من الوقت لكى أمارس رياضة المشى . وهكذا هيأت لى الخطة الجديدة التى استقر عليها رأيى فرصة المشى مع الاقتصاد ، اذ كانت تعفينى من نفقات المواصلات وفى الوقت نفسه تفسح لى فرصة المشى مسافة ثمانية أميال أو عشرة كل يوم ، فلقد كانت عادة المشى مسافات طويلة رياضة محببة الى نفسى ، ولعلها كانت معظم السبب فى أننى بقيت معافى من المرض خلال الفترة التى أقمتها فى انجلترا ، وفى احتفاظى ببنية لا بأس بها .

وهكذا استأجرت جناحا يتألف من حجرتين : واحدة للجلوس ،
والأخرى للنوم . كانت هذه هي المرحلة الثانية فى أسلوب حياتى
وأنا فى إنجلترا . أما المرحلة الثالثة فسيأتى ذكرها فيما بعد .

وقد أدى هذا التغيير فى سكنى الى اقتصاد نصف النفقات .
ولكن كيف أنتفع الآن بما تهيأ لى من وقت الفراغ ؟ لقد كنت أعرف أن
الامتحانات التى تؤهلنى للمحاماة ، لم تكن تحتاج الى كثير من المذاكرة
والدراسة ، وأنى لذلك لن أجد نفسى فى ضيق من الوقت . ولما
كان ضعف مستواى فى اللغة الانجليزية يسبب لى كثيرا من الحرج ،
فقد فكرت ألا أكتفى بتأهيل نفسى للمحاماة وأن أحصل الى جانب
ذلك على درجة جامعية فى الدراسات الأدبية . واستفسرت عن المناهج
فى جامعتى أكسفورد وكمبريدج ، واستشرت فى ذلك بعض أصدقائى
فتبين لى أننى لو قررت الالتحاق بأحدهما فسوف يقتضىنى ذلك
مزيدا من النفقات ويستلزم بقائى مدة أطول فى إنجلترا . وقد أشار
على صديق بآننى اذا كنت حقيقة راغبافى اجتياز امتحان من الامتحانات
العسيرة فما على الا أن أتقدم الى امتحان الماتريكيوليشن من جامعة
لندن ، لما يتطلبه من جهد كبير وما يهيئه لى من بسطة فى المعامات
العامة ، دون أن أتحمل فى سبيل ذلك من النفقات ما يستحق الذكر .
ورحبت بهذا الاقتراح . بيد أن منهج الدراسة لهذا الامتحان سرعان
ما أخافنى وأفزعنى ، فقد كان على أن أدرس اللغة اللاتينية ولغة
أخرى حديثة بصفة اجبارية . وساءلت نفسى : أنى لى أن أدرس
اللاتينية ؟ غير أن صديقى لم يكف عن تحبيذ دراسة هذه اللغة بكل
قوته . كانت حجته فى ذلك « ان دراسة اللغة اللاتينية لها أكبر فائدة
لمن كان يريد أن يشتغل بالمحاماة ، فان الامام بها له قيمته فى فهم
المؤلفات القانونية ، فضلا عن أن ورقة من أوراق امتحان التأهيل
للمحاماة فى مادة القانون الرومانى توضع كلها باللغة اللاتينية . هذا

الى أن معرفة اللاتينية من شأنها أن تقوى صاحبها في اللغة الانجليزية
نفسها » •

وهكذا عدت الى بيتي وقد صممت على أن أدرس اللاتينية أيا
كانت الصعوبات التي تعترضني •

أما اللغة الفرنسية فكنت بدأت في دراستها بالفعل ، ولهذا
قررت أن تكون اللغة الحديثة التي يتطلبها الامتحان ، والتحققت لهذا
الغرض بأحد الفصول الدراسية التي تعد الطلاب لهذا الامتحان • كان
الامتحان يعقد مرة كل ستة أشهر ، ولم يكن أمامي على أدائه سوى
خمس أشهر • لقد كان عملا يكاد يكون في حكم المستحيل بالنسبة لي
على أن من كان يطمع يوما في أن يكون جنتلمانا انجليزيا قد انقلب الآن
فأصبح يفضل أن يكون تلميذا مجيدا • وهكذا وضعت لنفسى جدولا
دقيقا التزمته في مذاكرتي • عسى أن ذكائي وذاكرتي مع
ذلك لم يبشرا بقدرتي على منازلة اللغتين اللاتينية والفرنسية معا ، الى
جانب غيرهما من المواد الأخرى التي يشملها الامتحان في الفترة
القصيرة التي تبقت أمامي • وكانت النتيجة أنني رسيت في اللغة
اللاتينية • وأسفقت لذلك ولكن دون أن يداخلى يأس أو يعترى همتى
فتور ، فقد كنت بدأت أتذوق تلك اللغة • وأما الفرنسية فلا يأس من
محاولة أخرى فيها بالإضافة الى مادة أخرى اختارها من بين مجموعة
العلوم • وكانت الكيمياء المادة العلمية التي اخترتها للامتحان في
المرة الأولى ، ولكنها لم تستهوني اذ ذلك لافتقاري الى سبل التجارب
العملية فيها ، رغم أنها كان يجب أن تكون على أكبر جانب من
التشويق بالنسبة لي ، فقد كان من أهم أسباب اختياري لها في تلك
لمرة أنها كانت إحدى مواد الدراسة الاجبارية في الهند • أما الآن
فقد اخترت موضوع الضوء والحرارة بدلا من الكيمياء بعد أن علمت
أنهما أسهل منها • وقد وجدتهما كذلك بالفعل •

وبينما أنا أستعد لمحاولة أخرى لاجتياز هذا الامتحان أخذت
أبدل مزيدا من انجهد لكي أجعل حياتي أكثر بساطة مما كانت . فقد
كنت أشعر بأن أسلوبى فى الحياة كان لا يزال بعيدا عن أن يوائم
ظروف عائلتي ومواردها المتواضعة ، وكان مجرد التفكير فى أخى وهو
يجاهد فى الحياة ويستجيب بعد ذلك فى كرم ونبل لطلباتي المالية
المنتظمة يؤلمنى ويؤرقنى . وقد تكشف لى يومئذ أن معظم من كانت
نققاتهم تتراوح بين ثمانية جنيهاً وخمسة عشر جنيهاً فى الشهر
كانوا ممن يتمتعون بالمنح الدراسية . وكان أمامى من ناحية ثانية
أمثلة أخرى على طلبة كانت حياتهم أكثر من ذلك تقشفاً ، فقد صادفت
عددا لا بأس به من الطلبة الفقراء كانوا يحيون حياة أكثر تواضعا
وشظفا مما كنت أحيا . كان أحدهم مثلا يقيم فى حى العمال فى
حجرة ايجارها شلنان اثنان فى الأسبوع وينفق فى الوجبة بنسبن لا
أكثر . ومع أننى لم أكن أفكر اطلاقا فى أن أقتدى به ، فقد شعرت
مع ذلك أن فى مكنتى أن أكتفى بحجرة واحدة بدلا من حجرتين ، وأن
أطهو بعض طعامى فى البيت ، ومعنى ذلك اقتصاد أربعة جنيهاً أو
خمسة كل شهر . وهكذا تركت جناحى واستعضت عنه بحجرة واحدة
واشترت ابورا للطهو ، وشرعت أعد افطاري فى البيت ، فكان
ذلك كله لا يستنفد من وقتى أكثر من عشرين دقيقة ، اذ كان الأمر
لا يزيد على صنع العصيدة وغلى الماء لعمل الكاكاو . وأما الغداء فقد
كنت أتناوله فى الخارج . وأما العشاء ، وكان يتألف من الخبز
والكاكاو ، فكنت أعده فى البيت . وهكذا استطعت أن أعيش على
شلن وثلاثة بنسات فى اليوم .

لقد وفرت لى البساطة فى الحياة كثيرا من الوقت ، فاستطعت
اجتياز امتحانى بنجاح .

ولا يظنن القارىء أن هذا الأسلوب الجديد أدخل على حياتى شيئا

من الكتابة أو الملل ، بل هو على العكس من ذلك قد ناغم بين جوانب حياتي ، الظاهر منها والباطن ، وكان أكثر موامة بين نفقاتي وبين موارد أسرتي ، وصارت حياتي بفضلها أكثر تمشيا مع مقتضيات الصدق والحق . وهكذا لم يعرف السرور الذي دخل الى قلبي بسبب ذلك حدا .

وقد صاحب هذه التعديلات التي أجريتها في نفقاتي وفي أسلوب حياتي ، بل لعله سبقها ، تعديل آخر أدخلته على غذائي ، فامتنعت عن أكل الحلوى والتوابل التي كنت أحضرتها معي من الهند ، بعد أن اتجه عقلي اتجاهها غير ذي قبل تلاشي معه حبي للتوابل ، واستعذبت أكل الاسفانخ المسلوق الذي عافته نفسي وأنا في ريتشموند وكنت أجده وقتها مائعا لا طعم له ، فكنت أطهوه الآن من غير توابل على الاطلاق . نعم ، فلقد علمتني تجاربي الجديدة أن حاسة الذوق مردها العقل لا اللسان .

وقد بقيت اعتبارات الاقتصاد ماثلة أمامي بغير انقطاع حتى بعد ذلك ، فقد ظهر في ذلك الوقت رأي يقول بأن شرب الشاي والقهوة يضر بالصحة ، ويحبذ شرب الكاكاو . ولما كنت اذ ذاك مؤمنا بأنه ينبغي على المرء أن يقتصر في طعامه على ما يشبعه ويسد أوده ، فقد تنازلت عن شرب الشاي والقهوة كليهما واستعضت عنهما بالكاكاو .

وقد صحبت هذه التجربة الرئيسية تجارب أخرى أقل شأنًا من ذلك مثلا الامتناع في وقت من الاوقات عن أكل المواد النشوية ، والاعتصار في وقت آخر على الخبز والفاكهة وحدهما ، والاكتفاء فترة من الفترات بالجبن واللبن والبيض . ولعل التجربة الأخيرة جديرة بأن تلفت النظر ، فهي لم تدم الا خمسة عشر يوما . وكان المصلح الذي دعا الى الكف عن المواد النشوية قد تحدث عن فضائل أكل

البيض وأطنب في قيمته الغذائية مؤكداً بأن البيض لا يدخل تحت باب اللحوم ، وليس في آكله عذاب لكائن حي . وغرني هذا الرأي فأخذت آكل البيض رغم العهد الذي قطعت على نفسي . ولكن هذه الزلة لم تدم طويلا ، فسرعان ما أدركت أنني لا أملك أن أفسر هذا العهد تفسيراً جديداً ، وأن تفسير أمي له ، وهي من قطعت العهد لها ، هو وحده التفسير الذي يجب أن يؤخذ به . وكنت أعرف أن تعريفها للحوم يشمل البيض كذلك ، ولذلك فما كدت أتبين وجه الحق حتى امتنعت عن آكله وأقلعت عن هذه التجربة .

ومع ذلك فإن تجاربي التي قمت بها خلال إقامتي في إنجلترا كان الدافع إليها اعتبارات الصحة ومقتضيات الاقتصاد وحدها . أما الجانب الديني في تجاربي فلم يظهر إلا فيما بعد ، بعد أن ذهبت إلى جنوب أفريقية ، حيث بدأت وأنا هناك أمارس تجارب أشد عنفاً سأتناولها بالحديث في مكانها .

وقد دفعني تحمسي للنباتية ، الذي كان أشبه في عنفه بشعور من آمن بدين جديد ، إلى انشاء نادٍ للنباتيين في الحي الذي كنت أقيم فيه بلندن ، وهو حي بيزووتر ، ودعوت السير ادوين آرنولد ، أحد سكان الحي ، ليكون نائباً للرئيس . أما الرئاسة فقد آلت إلى الدكتور أولد فيلد ، رئيس تحرير مجلة «النباتي» ، كما عهد إلى بسكرتيرته . وقد لقي هذا النادي نجاحاً بعض الوقت ، ولكنه أوصد أبوابه بعد ذلك بأشهر معدودات ، إذ كنت قد انتقلت من ذلك الحي ، تمشياً مع القاعدة التي وضعتها لنفسي ، قاعدة التنقل من حي إلى حي .

على أن تجربة النادي هذه ، على قصرها وتواضعها ، قد أكسبتني بعض المران في تنظيم المؤسسات وإدارتها .

١٨ - الخجل دعوى الواقى

انتخبى بعد ذلك عضوا فى اللجنة التنفيذية لجماعة النباتين ، وقد حرصت عقب انتخابى على ألا يفوتنى اجتماع من اجتماعاتها ، ولكن لسانى ظل معقودا عن الحديث خلال تلك الاجتماعات ، ولم أستطع التغلب على هذا الثنصور بالخجل الا بعد أن ذهبت الى جنوب أفريقية ، وان كنت لم أبرأ منه براء كاملا . فكان من المستحيل على أن أتحدث ارتجالا ، وكنت أتردد كلما كان على أن أواجه وجوها جديدة ، وأتجنب الخطابة كلما وجدت الى ذلك سبيلا .

ولا مناص لى مع ذلك من الاعتراف بأن خجلى الطبيعى ، على الرغم مما كنت أتعرض له بسببه من سخرية الناس وضحكهم فى بعض الحالات ، لم يكن بالأمر الذى أساء الى فى حياتى على الاطلاق ، بل انى لأراه أمرا فى مصلحتى ، فان ترددى فى الكلام ، وان تبرمت به فى وقت من الاوقات ، قد صار الآن باعثا على سرورى ، ولعل أهم أثر له فى حياتى أنه علمنى أن أضبط آرائى وأن أمحصها قبل أن يجرى بها لسانى . وقد علمتنى التجربة فوق ذلك أن السكوت جزء من التربية الروحية لكل من كانت تصبو نفسه الى أن يكون لسان صدق ، فان الميل الى المبالغة ، وكتم الحقيقة أو تغييرها عن علم أو غير علم ، انما هو ناحية من نواحي الضعف فى النفس البشرية . ومن كان كلامه قليلا قلما يندفع فى كلامه دون تفكير ، فهو يقيس كل كلمة من كلماته ويزنها قبل أن ينطق بها . ومن الناس على عكس ذلك من يسرفون فى الكلام ، ولكن اسرافهم لا يمكن أن يكون لخير العالم ، بل هو مضيعة للوقت ، وتبديد للجهد .

ومن ثم فقد كان خجلى حصنا حصينا لى ، ودرعا أحمى فيه ،
ووسيلة ساعدتنى على أن أثبتن وجه الحق .

كان عدد الطلبة الهنود في انجلترا ضئيلا نسبيا منذ أربعين سنة . وكان من عاداتهم أن يتظاهروا بأنهم غير متزوجين حتى ولو كانت لأحدهم زوجة في الهند . ذلك أن طلبة المدارس والكليات من الانجليز كانوا جميعا من غير المتزوجين ، اذ الرأى السائد هناك أن التلمذة والحياة الزوجية أمران لا يتفقان . ولهذا كان الشبان الهنود المقيمون في انجلترا يشعرون بشيء من الخجل اذا عرف عن أحدهم أنه متزوج . وثمة سبب آخر لهذا التظاهر . فلو أن حقيقة أمرهم كانت معروفة لامتنع على الشبان الهنود مصادقة فتيات العائلات التي يعيشون بينها أو مغازلتهم . وقد كانت هذه المغازلات بريئة بصفة عامة ، وكان أبوا الفتاة يشجعانها أحيانا ، بل قد يكون هذا الاختلاط بين الفتيان والفتيات أمرا ضروريا في تلك البلاد بالنظر الى رغبة كل شاب هناك في اختيار رفيقته في الحياة . أما أن ينغمس الشبان الهنود بمجرد وصولهم الى انجلترا في مثل تلك العلاقات ، وهي أمر طبيعي بالنسبة الى الشبان الانجليز ، فهو مسلك يحتمل أن تكون له نتائج وخيمة ، بل هو كثيرا ما كان كذلك . وقد بدا لي أن شبابنا قد استسلموا للاغراء واختاروا لأنفسهم طريقا يتسم بالبعد عن الصدق ومجافاة الأمانة من أجل علاقات ، مهما كانت بريئة في حالة الشبان الانجليز ، فهي بالنسبة لهم أمر غير مستحب .

بل لقد كنت أنا كذلك ضحية هذا الوباء ، اذ انتقلت عدواه الى ، فلم أتردد في التظاهر بأنني أعزب ، على حين كانت لي زوجة وولد ، وان كنت مع ذلك لم أستشعر شيئا من السعادة طيلة الوقت بسبب هذا الخداع .

فقد كان من الأمور العادية في عائلات كتلك التي نزلت بينها في مدينة فنتنور أن تصاحب ابنة صاحبة الدار ضيوف امها الى نزاهات خارجية . وقد أخذتني ابنة مضيفتي هذه يوما الى التسلال الجميلة المحيطة بالمدينة . وعلى الرغم من أنني كنت مشاء سريع الخطوة فقد بزنتني في سرعة خطواتها وسارت وهي تجرني وراءها جرا دون أن تنقطع عن الثرثرة لحظة واحدة . وكنت أجيب على حديثها الذي لا ينقطع بنعم أو لا ، أتمتها من بين شفتي ، أو كنت أقول في أحسن الحالات : ما أجمل المنظر ! كانت تسير كما لو كانت تطير في الهواء على حين كنت أسائل نفسي : ترى متى أعود الى البيت ؟ ووصلنا أخيرا الى قمة التل ، ولكن المشكلة التي اعترضتني بعد ذلك وشغلت على تفكيري هي كيف ننزل مرة أخرى من مكاننا الذي كنا فيه . أما هي ، الفتاة اليانعة ذات الخمسة والعشرين ربيعا ، فقد مرقت على الرغم من كعب حذاءها العالي من فوق التل كالسهم المنطلق ، حتى خجلت من نفسي وأنا لا أزال أتعثر في طريقي على سفح التل ، بينما هي قدوقفت عند قاعدته تبسّم وتشجعني بعبارات وتعرض على أن تتقدم لمساعدتي . وأخيرا ، وبعد صعوبات لا آخر لها ، اضطررت خلالها في بعض الأحيان الى الزحف على بطني ، وصلت سالما ، فانطلقت تقول : « برافو ! » مما زادني خجلا على خجل .

على أنني لم أخرج من مثل هذه المغامرات سليما معافى ، اذ أراد الله أن يشفيني من الخداع وأن يبرئني من داء البعد عن الحق . فقد كنت ذهبت الى برايتون ، قبل زيارتي لفنتنور ، وهي مثلها من البلاد التي تقع على البحر ، فتعرفت في أحد فنادقها الى أرملة مسنة ذات ثروة لا بأس بها . كان ذلك خلال السنة الأولى من اقامتي في انجلترا ، وكانت أصناف الطعام قد كتبت في قوائم المائدة باللغة الفرنسية فتعذر على فهمها . وكانت هذه السيدة تجلس معي على مائدة واحدة فأدرت حيرتي وسارعت الى معاونتي وهي تقول : « يبدو أنك غريب

على المكان ، وانك فى شىء من الحيرة • لماذا لم تطلب شيئا من الطعام؟
وكنت لا أزال مشغولا بالنظر الى قائمة الأكل أكاد أتهدجى الحروف
التي تتألف منها عباراتها قبل أن أستفسر من النادل عما يدخل فى
طهوها من العناصر ، فشرحت لها ما كنت فيه من حرج وما ألقاه من
عنت وأنا أحاول أن أتبين أى هذه الأصناف نباتى لا يدخله اللحم فلا
أفهم من الأسماء الفرنسية شيئا •

وردت تقول : « دعنى أعاونك وأبين لك ما يمكنك أن تختاره
من بين الأصناف الواردة فى القائمة » فشكرت لها صنيعها وطعمت
مما أشارت على به ، فكانت هذه الحادثة بداية معرفة بيننا لم تلبث أن
نمت وترعرعت حتى تحولت الى صداقة دامت طيلة بقائى فى إنجلترا
وردحا طويلا بعد عودتى منها •

لقد أعطتنى هذه السيدة عنوانها فى لندن ودعتنى الى تناول
العشاء فى بيتها يوم الأحد من كل أسبوع ، هذا غير الدعوات الأخرى
التي كانت توجهها الى فى المناسبات الخاصة • وكانت فى كل مرة
من هذه المرات تعاوننى على التغلب على حيائى وتقديمنى الى بعض
الفتيات من أقاربها وصويجاتها ، بل تدفعتنى دفعا الى التحدث
اليهن وتخص من بينهن فى ذلك فتاة كانت تقيم معها ، بل كثيرا
ما كانت هذه السيدة تتركنا وحدنا فى البيت •

وقد وجدت هذه الزيارات مرهقة فى أول الأمر ، اذ كنت لا
أستطيع أن أبدأ الحديث أو أشارك فى تبادل النكات ، ولكنى أخذت
بعد ذلك ، بفضل ارشاد هذه السيدة وتوجيهها ، فى تعلم أشياء
كثيرة ، حتى صرت على مر الأيام أتطلع الى يوم الأحد من كل أسبوع،
لكى أنعم بالحديث مع هذه الصديقة الفتاة •

واستمرت السيدة المسنة توسع دائرة شباكها يوما بعد يوم ،
وتبدى اهتماما متزايدا بهذه الاجتماعات التي تتم بينى وبين هذه
الصديقة ، ومن يعلم ؟ فلعلها كانت لها خطة مدبرة فيما يتعلق بنا
نحن الاثنين .

أما أنا فقد كنت في حيرة من أمرى . كنت أقول لنفسي : « ما
أكثر ما أتمنى لو أننى كنت قد أطلعت هذه السيدة من أول الأمر على
ظروفي الحقيقية وأخبرتها بأننى متزوج . اذن لما فكرت فى السعى الى
خطبتنا . ولكن الفرصة مع ذلك لم تقلت بعد لكى أصحح هذا الوضع ،
فاننى لو أعلمتها الآن بالحقيقة فقد يكون فى ذلك منجاة لى من التردى
فى مزيد من الشقاء » . وبينما هذه الأفكار تعتمل فى نفسى جلست
لاكتب لهذه السيدة خطابا هذا معناه :

« منذ أن تقابلنا فى برايتون وأنت تضيفين على من كرمك وعطفك
الشيء الكثير ، حتى عنيت بأمرى كما تعنى الأم بأمر ابنها . وقد
فكرت ، مدفوعة بروحك الطيبة ، فى أنه قد يكون من واجبى أن
أتزوج وأخذت لذلك تعريفينى بكرائم الأنسات . غير أننى أرى من
واجبى ، حتى لاتتفقم الأمور أكثر مما تفاقمت ، أن أصارحك بأننى
لم أكن أهلا لعطفك ، فقد كان على ، عندما بدأت أزورك فى بيتك ،
أن أفضى اليك بأننى متزوج . لقد رأيت الطلبة الهنود فى انجلترا
يخفون أمر زواجهم فقلدتهم ، وقد وضح لى الآن أننى ما كان يجدر
بى أن أفعل ما فعلت . ولا بد لى من أن أضيف الى ذلك أننى تزوجت
وأنا بعد ولد صغير ، وأننى أب لطفل .

« وانه ليحز فى نفسى أن أكون قد أخفيت هذه المعلومات عنك
طوال هذه المدة ، وان كنت سعيدا الآن بأن الله قد منحنى الشجاعة
لكى أقول الحق . فهل لك أن تغفرى لى هذا السلوك ؟ وأؤكد لك فى

الوقت نفسه أننى لم أستبح لنفسى مع هذه الألسة التى تفضلت بتقديمى إليها حرية لا يقرها شعورى بكرم ضيافتك ، فقد ظلمت دائما أعرف حدودى . لقد كان طبيعيا ، وأنت فى غفلة من أمر زوجى ، أن ترجى لو تمت خطبتنا الى بعضنا ، فرأيت من واجبى أن أطلعك على الحقيقة حتى لا تتعدى الأمور مرحلتها الحالية .

« فإذا أحسست عند استلام كتابى هذا بأننى لم أكن أهلا لكرم ضيافتك ، خانى أؤكد أنه لا لوم عليك فى ذلك ولا تثريب ، فقد طوقت عنقى ، بما أضفيت على من عطف وكرم ، بدين لا سبيل لى الى نسيانه . أما اذا تراءى لك بعد تلاوته ألا تردبنى وأن تظلى تعتبرينى جديرا بحسن ضيافتك، مما سأعمل جاهدا ماحييت لكى أكون جديرا به ، فسأبقى سعيدا وأرى فيما فعلت مظهرا آخر من مظاهر فضلك وكرمك ، »

وأرجو من القارئ أن يدرك أننى ما كنت لأستطيع أن أكتب مثل هذا الخطاب فى جلسة واحدة ، وأننى لابد أن أكون قد كتبتة ثم أعدت كتابته مرات ومرات . ولكنى ما كدت أنتهى نهائيسا من كتابته ، حتى شعرت وكان عبئا ثقيلنا قد ارتفع عن كاهلى بعد أن أثقله بعض الوقت .

وجاد رد السيدة سريعا . قالت فيه :

« تسلمت خطابك الذى يتسم بالصرحة . وقد سررنا كلانا به وضحكنا ملء قلوبنا مما جاء فيه . وان عدم الصدق الذى تقول انك انخرفت اليه لهو مما يمكن أن يفتقر لك . ولكنك مع ذلك قد أحسنت صنعا بأن أطلعتنا على حقيقة الأمر ، ولا تزال دعوتى اليك قائمة ، ونحن بكل تأكيد نتطلع الى حضورك الينا يوم الاحد المقبل والاستماع الى قصة زواجك المبكر ، والاستمتاع بالضحك على حسابك . فهل

ترانى بعد ذلك فى حاجة الى أن أؤكد لك بأن صداقتنا لم تتأثر بهذا الحادث على الإطلاق ؟ ،

وهكذا ظهرت نفسى من الخداع ، ولم أتردد بعد هذا الحادث لحظة واحدة فى أن أتحدث عن زيجتى كلما اقتضى الأمر منى ذلك .

وخلال السنة الأخيرة من اقامتى فى انجلترا ، فيما أذكر ، أى فى سنة ١٨٩٠ ، عقد مؤتمر للنباتيين فى مدينة بورتسموث دعيت إليه أنا وصديق هندى . وبورتسموث ميناء بحرى يضم بين سكانه عددا كبيرا من المشتغلين بأعمال البحر ، وتكثر فيه البيوت التى تسكنها نساء من ذوات السمعة السيئة ، ولا أقول من محترفات الدعارة ، بل ممن لا يحسبن حسابا للفضيلة . وقد أسكننا المشرفون على المؤتمر فى بيت من هذه البيوت ، وإن كنت لا أرانى فى حاجة الى القول بأن لجنة استقبال المؤتمر لم تكن تدرى من أمر ذلك البيت شيئا .

وعدنا من المؤتمر فى المساء ، ثم جلسنا بعد العشاء نلعب البريدج ، واشتركت صاحبة الدار معنا فى اللعب على نحو ما هو مألوف فى انجلترا ، حتى فى أحسن الأوساط . والعادة فى مثل هذه الأحوال أن يتبادل اللاعبون النكات البريئة خلال اللعب ، إلا أن زميلي وصاحبة البيت أخذتا يتبادلان النكات المبتذلة . ولم أكن أعرف أن زميلي يجيد مثل هذا الفن وسرعان ما وجدت نفسى مسوقا الى الاشتراك معهما فى نكاتهما . غير أننى ما كدت أصل الى الحد الذى يجب ألا أتعداه ، تاركا لعبة الورق تنعى نفسها ، حتى تداركتنى رحمة الله فشاعت أن تجرى على لسان صديقى انذارا يردنى عما كنت مندفعاً فيه فإذا هو يقول لى : « من أين هذا الشيطان الذى تسلل الى نفسك ؟ قم ! قم سريعا ! » .

وتولاني خجل شديد ، وان كنت شعرت في قرارة نفسى بالحمد
صديقى على هذا الانذار ، وذكرت عهدى لأمى فجزيت من المكائن
وذهبت الى حجرتى وأنا أرتعد كما ترتعد الفريسة حين يطاردها
الصيد .

لم أكن أدرك فى ذلك الوقت كنه الدين ، ولا حقيقة الله ، ولا
أعرف كيف يسيرنا فى أمورنا . كان كل ما أحسست به أنه أنقذنى
مما كدت أتورط فيه . نعم لقد كنت كلما افتقدت الأمل ، وتخلى
عنى الصديق والمعين . واطلمت الدنيا فى عينى ، أجد الفرج وقد
أتانى من حيث لا أدرى . ومن ثم فإن التضرع الى الله ، والعبادة
والصلاة ، لا يمكن أن تكون خرافة ، بل هى كلها أمور واقعية بل
أكثر واقعية حتى من الأكل والشرب ، ومن الجلوس والمشي . بل
لا أغالى اذا قلت انها وحدها الأمور الواقعية . أما ما عداها فهو سراب
لا يلبث أن يزول .

٢٠ - بداية تعرفي على الاديان

في أواخر العام الثاني من اقامتي في انجلترا ، التقيت باثنين من أتباع مذاهب الشيوصوفية ، وكانا أخوين أعزبين ، فأخذا يتحدثان معي عن الجيتا ، بعد أن كانا قد قرأها من ترجمة للسير ادوين آرنولد تحت عنوان « الأنشودة السماوية » ، ودعيتاني الى قراءتها معهما من الاصل . وتولاني وقتها شعور بالخجل ، اذ لم يسبق لي قراءة هذا الشعر الديني لا بالسانسكريتية ولا بالجوجيراتية ، فاضطرت الى الاعتراف لهما بأنني لم أقرأ الجيتا من قبل ، وقلت لهما انني يسعدني مع ذلك أن أقرأها معهما ، وانني وان كانت معرفتي بالسانسكريتية ضئيلة ، فاني آمل أن أفهمها الى الحد الذي أستطيع معه أن أدلها على المواطن التي قد تكون الترجمة الانجليزية قد عجزت فيها عن إبراز المعاني الاصلية .

وأخذت أقرأها معهما فتأثرت بما قرأت حتى لاتزال بعض عباراتها ترن في أذني الى اليوم ، فقد تبين لي أن الجيتا كتاب قيم . وقد ازداد ايماني بذلك على مر السنين ، حتى أصبحت أعتبرها خير كتاب لمن أراد أن يعرف ما هو الحق . وقد ظل هذا الكتاب يمدني بعون كثير ، كلما تولاني ضيق أو اعترائني ضجر بالحياة .

ونصحني الأخوان بدورهما أن أقرأ كتاب « الضوء المنبعث من آسيا » للسير ادوين آرنولد كذلك ، ولم أكن أعرف من أعمال هذا الكاتب سوى « الأنشودة السماوية » . فلما شرعت في قراءة هذا الكتاب الفيتني مدفوعا الى قراءته بشغف يفوق شغفي حتى وأنا أقرأ

البهاجا فادجيتا ، اذ ما كدت أشرع في قراءته حتى وجدتهنى غير قادر على تركه الى أن انتهيت منه .

وأخذنى الاخوان مرة من المرات الى حيث عرفانى بمدام بلافاتسكى والمسز بيزانت ، وكانت الأخيرة قد انضمت منذ فترة قصيرة الى الجمعية الثيوصوفية ، فاستمعت باهتمام كبير الى الجدل الذى دار حول موضوع اعتناقها لهذا المذهب . وقد نصحنى الصديقان بالانضمام الى تلك الجمعية ، ولكنى اعتذرت لهما فى أدب ، قائلا : « اننى لا أريد أن أنضم الى أية هيئة دينية ، ومعرفتى بدينى لا تزال على ما هى عليه من الضعف » .

وأذكر أننى قرأت بناء على نصيحة هذين الاخوين كتاب «مفتاح الثيوصوفية » لمدام بلافاتسكى ، فأثار ذلك فى نفسى شوقا الى مطالعة الكتب التى تعالج الهندوسية ، كما أبرأنى من الفكرة التى كانت قد رسخت فى عقلى نتيجة لدعايات المبشرين فى الهند عن امتلاء الهندوسية بالخزعبلات .

كذلك التقيت فى حوالى ذلك الوقت برجل من المسيحيين ، من مدينة مانسستر ، قابلته فى أحد فنادق النباتيين المتواضعة ، فأخذ يتحدث الى عن المسيحية . فلما سردت عليه ما كان لى من ذكريات مع المبشرين فى راجكوت تألم لذلك ، واستطرد يقول لى : « ها أنذا أمامك . فأنا نباتى ولا أشرب الخمر ، بينما غيرى من المسيحيين ، وهم كثر ، يأكلون اللحم ويشربون الخمر ، مع أن الكتاب المقدس لا يحض على أكل اللحم ، ولا يدعو الى شرب الخمر . حبذا لو أنك قرأت الانجيل ، وعملت بنصيحته وأخذت أقرأ الكتاب المقدس من نسخة أعطانيها ، غير أننى لم أستطع أن أشق طريقى فى العهد القديم . ومع أننى قرأت الجزء الخاص بسفر التكوين فان الفصول التى تلت

ذلك ، كانت تبعث في نفسى دائما رغبة الى النوم • وقد تحسست
طريقي مع ذلك فى الأجزاء الأخرى فى كثير من الصعوبة وفى غير
تشويق أو فهم ، وان كنت كرهت قراءة سفر العدد •

أما العهد الجديد فقد كان أثره فى نفسى على خلاف ذلك ، ولا
سيما موعظة الجبل ، فقد تسللت الى قلبى ودفعتنى الى عقد مقارنة
بينها وبين الجيتا • كذلك الآيات التى تقول : « ولكنى أقول لك
لا تقاوم الشر ، ومن ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر ،
وإذا أخذ أحد من الناس رداءك فقدم له عباءتك » قد أعجبتنى وملأتنى
غبطة لا حد لها ، وذكرتنى بعبارة شاملة بهات : « من أعطاك قدحا من
الماء أعطه وجبة شهية » • وهكذا أخذ عقلى يربط بين الجيتا ، وبين
الضوء المنبعث من آسيا ، وبين موعظة الجبل ، فقد كانت روح
الاستسلام التى تتخللها جميعا أعلى مراتب التدين المحببة الى نفسى •

ولم أستطع أن أتجاوز هذا القدر من الالمام بأمور الدين فى ذلك
الوقت ، اذ كان الاستعداد للامتحان قد شغل كل وقتى وتفكيرى ولم
يترك فراغا لغيره من الموضوعات • ولكنى آليت على نفسى لأستزیدن
من مطالعة الكتب الدينية فى المستقبل حتى أتعرف على جميع الديانات
الرئيسية •

٢١ - في الهند مرة أخرى

جزت امتحاني بنجاح ، وسجلت في جماعة المحامين في العاشر من شهر يونية سنة ١٨٩١ ، وقيدت للمرافعة أمام المحكمة العليا في الحادى عشر . وفى اليوم الثانى عشر ، أبحرت عائدا الى بلدى .

وقد تولانى وقتئذ شعور بالخوف والعجز معا ، اذ على الرغم من دراستى القانونية ، كنت لا أشعر بأننى قد أصبحت مؤهلا لممارسة القانون . نعم ، لقد درست القانون ، ولكنى لم أتعلم كيف أمارس القانون الذى درستة . أضف الى ذلك أننى لم أكن قد درست شيئا عن القانون الهندى ، ولم تكن عندى أية فكرة عن الشريعة الهندوسية أو الاسلامية ، بل لم أكن قد تعلمت حتى كيف أحرر عريضة الدعوى ، أو أكتب التماسا قانونيا . وهكذا شعرت بأننى فى دوامة من الحيرة والارتباك ، وانتابنى الشك فيما اذا كان فى مكنتى بعد ذلك أن أكسب عيشى عن طريق مهنة المحاماة .

وفى البحر الأحمر ، كان البحر هائجا مائجا على طول الطريق من عدن ، حتى شعر الركاب جميعا بدوار البحر ما عداى ، فقد بقيت فوق ظهر السفينة أشاهد الأمواج المتلاطمة ، وأنعم برذاذ الماء وهو يتساقط على وجهى .

وخيل الى وأنا كذلك ، أن هذه العاصفة الظاهرة ما هى الا رمز على العاصفة الباطنة التى تعتمل فى قرارة النفوس . فاذا كنت قد صمدت أمام العاصفة التى تجتاز طريقنا ونحن فى البحر وبقيت هادئا

لا أنزعج فكذلك يمكننى أن أقول اننى كنت أشعر فى داخل نفسى
بالطمأنينة والهدوء النفسى .

• وكان أخى الأكبر قد جاء الى بومباى لاستقبالى فى الميناء .
وكننت من ناحيتى فى لهف شديد على أمى ، أتحرق لرؤياها ، ولم أكن
أدرى أنها ماتت ، فقد أخفى أخى عنى خبر موتها وأنا لا أزال فى
انجلترا . على أن ذلك لم يقلل من وقع الصدمة التى انتابتنى عندما
علمت بوفاتها ، فقد حطم موتها معظم آمالى العزيزة على نفسى ، وان
كنت أذكر فى الوقت نفسه اننى مع جزعى الشديد فى أعماق قلبى ،
لم أستسلم لمظاهر الحزن العنيفة ، واستطعت أن أكبت دموعى ، كأن
شيئا لم يحدث .

٢٢ - كيف بدأت حياتي

كانت العاصفة التي أنارها سفرى الى الخارج بين أفراد طائفتي لا تزال قائمة ، بعد أن عدت الى الهند ، وان كانوا قد انقسموا على أنفسهم فريقين : فريق يرى أن أعود الى حظيرتهم مرة أخرى ، وفريق يرى أن أظل مقصيا . أما أنا فلم أحاول أن أعود الى الفريق الذى أقصاني عنه ، بل لم أشعر بشيء من المرارة نحو أحد من زعمائه ، على الرغم من أن بعضهم كان ينظر الى نظرة ملؤها الكراهية . وقد تعلمت أن أتجنب كل ما قد يؤذى مشاعرهم ، واحترمت نظم الطائفة فيما يتعلق بطردى وحرمانى فى جميع تفاصيلها . من ذلك أن هذه النظم كانت تفرض على أقاربي جميعا ، ومن بينهم حماى وحماتى وأخو زوجتى بل حتى أختى نفسها ، ألايستضيفونى فى بيوتهم على الاطلاق، وألا أتناول حتى جرعة من الماء عندهم . ومع أنهم كانوا على استعداد جميعا لتفادى هذا الحرمان فى السر ، فقد تعارض ذلك مع طبيعتى وكرهت أن أفعل فى الخفاء ما لا أفعله فى العلن .

وكان من أثر هذا التزمت من جانبي ، أننى جنبت نفسى كل ما من شأنه أن يحنق الطائفة على حتى لأستطيع أن أقول اننى لم ألق الا كل عطف وكرم من عامة أفراد الفريق الذى كان لا يزال يرى أن أبقي طريدا محروما ، بل ان بعضهم كان يساعدنى فى عملى دون أن ينتظر منى أن أعمل للطائفة نظير ذلك شيئا على الاطلاق . والحق انى مؤمن بأن كل خير صادقى فى حياتى ، انما كان مرده نزعى الى عدم المقاومة . فلو أننى ثرت على من أقصونى عنهم وأرغبت وأزبدت لكى أعود الى حظيرة الطائفة ، أو لو أننى حاولت أن أزيد الطائفة انقساما

على انقسامها ، اذن لثأروا لأنفسهم ، وبدلا من أظل بعيدا عن العاصفة الهوجاء كنت وجدت نفسى على اثر وصولى من انجلترا فى دوامة عنيفة من الاضطراب والقلق ، وكنت من الجائز قد اضطرتت الى الانغماس فى بعض أعمال النفاق والمخادعة •

على أن المشكلة الأولى التى كانت تواجهنى بعد رجوعى الى بلدى ، كانت مشكلة عملى • فلو أننى بدأت أمارس المحاماة فى راجكوت لكان ذلك مدعاة الى سخرية لا شك فيها ، اذ لم يكن لدى من المعلومات ما يصل فى مرتبته الى معلومات محام من المحامين المؤهلين للمرافعة أمام المحاكم الجزئية ، ومع ذلك فقد كنت أنتظر أن أتقاضى عشرة أضعاف ما يتقاضاه • وإذن فلن يوجد من الموكلين من تبلغ به الحماقة حدا يحمله على توكيلى فى قضية له ، وحتى اذا كان وجود مثل هذا الموكل أمرا محتملا فهل يليق بى أن أضيف الى جهلى غرورا وزورا ، فأزيد من عبء الدين الذى فى عنقى نحو العالم ؟

وقد نصحنى بعض الأصدقاء بأن أذهب الى بومباى بعض الوقت لأكتسب فيها خبرة ومرانا على أعمال المحكمة العليا ، ولكى أدرس القانون الهندى فيها ، وأحاول الحصول على ما قد يتيسر لى من القضايا • على أن الإقامة فى بومباى أكثر من أربعة شهور أو خمسة على أقصى تقدير كانت ، بالنسبة لى ، أمرا مستحيلا ، اذ كان لا بد لى فيها من دخل يسد نفقاتى المتزايدة •

وتصادف أن جاءنى فى ذلك الوقت عميل يدعى ماميباى بقضية له وكانت « قضية صغيرة » ، فقال لى أحد الناصحين : « عليك أن تدفع عمولة للسمسار » ، ولكنى أبيت أن أدفع العمولة واحتفظت بالقضية لنفسى ، وكانت سهلة هينة تقاضيت عليها أتصابا قدرها ثلاثون روبية ، ولم يكن من المحتمل أن يستمر نظرها أمام المحكمة أكثر من يوم واحد •

كانت هذه أول قضية لي أمام المحاكم الجزئية ، فوقفت أدافع عن المدعى عليه ، فكان على بيذه الصفة استجواب شهود المدعى . غير أنني ما كدت أتقدم أمام هيئة المحكمة حتى غاص قلبي الى قدمي ، ودارت رأسي ، وشعرت بأن قاعة المحكمة بمن فيها وما فيها تدور معي . ولا بد أن القاضى تملكه الضحك وقتها ، وأن المحامين الجالسين شعروا بمتعة لا حد لها وهم يشاهدون هذا المنظر الفريد ، ولكنى كنت قد تجاوزت المرحلة التى أستطيع أن أدرك فيها شيئا ، أو أحس بما يجرى حولى ، فجلست وأنا أقول لموكلى اننى لا أستطيع أن أسير فى القضية ، وخير له أن يوكل باتل ، ودعوته الى استرداد الأتعاب التى كان قد دفعها لى . وتم توكيل باتل بالفعل نظير أجر قدره واحد وخمسون روبية . وبالطبع كانت القضية بالنسبة له لا تزيد على أن تكون كاللعبة فى يد الطفل .

وسارعت أغادر قاعة الجلسة ، دون أن أعرف هل كسب عملي القضية أم خسرها ، وقررت بعد ذلك ألا أقبل قضية أخرى الا بعد أن أجد فى نفسى الشجاعة على رعايتها والسير بها أمام المحاكم . ثم لم ألبث أن فكرت فى الالتحاق بوظيفة من وظائف التدريس ، فقد كانت معرفتى باللغة الانجليزية طيبة الى الحد الذى يسمح لى بتدريسها ، وكنت أتمنى لو أتيح لى أن أدرسها لتلاميذ احدى المدارس الذين يعدون أنفسهم لامتحان الماتريكوليشن ، فقد كان من شأن ذلك أن يعيننى على مواجهة بعض نفقاتى الضرورية .

ووقعت عيناي على اعلان فى احدى الصحف يقول : « مطلوب مدرس لغة انجليزية للتدريس ساعة واحدة فى اليوم - المرتب ٧٥ روبية » . وكان الاعلان صادرا عن مدرسة ثانوية معروفة فتقدمت اليها بطلبى ودعيت لمقابلة أولى الشأن فيها . وذهبت فى الموعد المقرر

وأنا أشعر بالسعادة والغبطة ، ولكن ناظر المدرسة ما كاد يعلم بأننى غير متخرج فى احدى الجامعات حتى أبدى أسفه على أنه لا يستطيع أن يقبل طلبى .

قلت له : « ولكننى نجحت فى امتحان الماتريكيوليشن من جامعة لندن ، وكانت اللاتينية اللغة الثانية فى ذلك الامتحان » .

ورد يقول : « قد يكون هذا صحيحا ، ولكننا نريد واحدا من الخريجين » .

ولم تكن لى حيلة بعد ذلك ، ففكرت يدى حسرة وأسى ، كما شعر أخى حين علم بذلك بكثير من الهم ، ووصل كلانا الى أنه لافائدة ترجى من بقائنا أزيد من ذلك فى بومباى .

وغادرت بومباى والحسرة تملأ نفسى ، وذهبت الى راجكوت حيث أقمت لنفسى مكتبا فيها . وقد استطعت وأنا فيها أن أشق طريقى بعض الشئ ، فقد كان تدبيج العرائض وكتابة المذكرات يعود على فى المتوسط بدخل قدره ٣٠٠ روبية فى الشهر ، وان كنت مدينا بذلك لنفوذ من كانوا حولى أكثر مما كنت مدينا به لكفايتى ومقدرتى الشخصية . فقد كان لشريك أخى مكتب للأعمال القضائية ، فكان يعهد بالقضايا الهامة الى كبار المحامين . أما القضايا الصغيرة ، وكانت فى العادة لا تزيد على تحرير عرائض الدعوى الخاصة بالعملاء الفقراء ، فكان يبعث بها الى .

٢٢ - أول صدمة لي

كان أخي يعمل سكرتيرا للمغفور لها زوجة أمير بورباندر ، قبل أن يتولى منصبه الحالي ، وكان في الوقت الذي نتحدث عنه يواجه تهمة اعطاء مشورة خاطئة حين كان في منصبه الأول ، ثم انتقل موضوعه في ذلك الوقت الى يد المندوب السياسي ، وكان هذا متحاملا عليه . وكنت قد عرفت هذا المندوب ، وأنا في إنجلترا ، الى حد يسمح بأن يقال انه كان معي على درجة لا بأس بها من العلاقة الودية . وقد رأى أخي الآن أن أفيد من هذه الصلة فأوصى به لديه حتى أنتزع من نفسه ما كان يحمله لأخي من بغض . ولم ترقني هذه الفكرة . فقد كنت أرى أنه لا يليق بي أن أستغل الصنة البسيطة التي كانت لي بهذا الموظف الكبير ، وأنا في إنجلترا ، في مثل هذا الغرض . ثم اذا كان أخي مذنباً حقا فماذا عسى أن تفيده توصيتي ؟ أما اذا كان بريئا خان واجبه كان يقتضيه أن يتقدم بالتماسه بالطريق المألوف ، وأن يواجه النتيجة بعد ذلك وهو مؤمن ببراءته . ولكن أخي لم يستسغ نصيحتي ، واستطرد يقول : « انك لا تعرف كاثياواد ، وما زال أمامك وقت طويل لكي تفهم الدنيا . انه لاشيء يجدي هنا ، كما تجدي الوساطة ، ولا يليق بك ، وأنت أخي الشقيق ، أن تحجم عن أداء واجبك ، بينما تستطيع أن توصي به خيرا لدى موظف كبير لك به معرفة ، »

ولم يكن في استطاعتي ، بعد ذلك ، أن أرد رجاؤه . وهكذا ذهبت الى هذا الموظف على كره مني ، فقد كنت أدرك أنه لا حق لي في أن أتصل به في مثل هذا الموضوع ، وأعرف حق المعرفة أنني باتصالي به انما أقامر باحترامي لنفسى . ولكنني مع ذلك طلبت تحديد موعد

لمقابلته وظفرت بذلك . فلما ذهبت اليه ذكرته بما كان بيننا من معرفة ، ولكنني سرعان ما أدركت أن كائناوإاد غير انجلتريا ، وأن موظفا يقابله الانسان وهو فى اجازته غيره وهو يجلس الى مكتبه ليباشر مهام منصبه . فقد اعترف هذا المنسوب السامى بمعرفتنا السابقة وان كانت تذكرته بها فيما يبدو قد جعلته يجمد فى مكانه ، كما لو كان لسان حاله يريد أن يقول : « أرجو ألا تكون قد حضرت هنا لكى تسيء استخدام هذه المعرفة » . بل لقد بدا هذا المعنى واضحا جليا فى عينيه . وعلى الرغم من ذلك ، فقد دخلت فى الموضوع . وهنا بدا أن صبره قد عيىل ، فصاح يقول : « ان أخاك دساس ، ولا أريد أن أستمع الى أكثر من ذلك منك ، فليس عندى وقت لذلك . واذا كان لدى أخيك ما يجب أن يقوله ، فليرفعه الى بالطريق المعتاد » . كان هذا الرد كافيا ، بل هو رد استحقفته بسلوكى . غير أن حب الذات يعمى بصيرة الناس ، فاستطردت أقص عليه قصة أخى ، فما كان من سيادته الا أن هب واقفا وهو يقول : « يجب أن تنصرف الآن » .

وناشدته أقول : « أرجو أن تستمع الى الى النهاية » ، ولكن عبارتى زادته غضبا فوق غضبه فنادى حاجبه وأمره بأن يخرجنى . وكنت لا أزال أقف موقف المتردد حين جاء الحاجب فوضع يده فوق كتفى ودفعنى الى الخارج .

وخرجت وأنا أغلى من الغيظ ، فكتبت له رسالة على الفور هذا معناها : « لقد أهنتنى ، بل لقد اعتديت على على يد حاجبك ، فاذا أنت لم تعمل على تصحيح هذا الوضع فسوف أكون مضطرا الى اتخاذا الاجراءات القانونية ضدك » .

وجاء رده سريعا على يد ساعيه . قال فيه : « لقد كنت غير مهذب معى . فلقد طلبت اليك أن تنصرف فأبيت ، فلم يعد أمامى الا

أن أمر حاجبي بأن يخرجك • وحتى بعد أن طلب اليك حاجبي أن تنصرف من مكنتي أبييت أن تخرج ، وبقيت في مكانك ، فلم يعد أمامه الا أن يستخدم من القوة القدر الضروري لاجراك • ولك الحرية بعد ذلك في أن تفعل ما تشاء ، •

حملت هذا الرد في جيبى وعلت الى بيتى حزينا مبتئسا ، وأخبرت أخى بكل ما حدث ، فحزن لذلك ، ولم يدر كيف يواسينى • وقد تحدث فى ذلك الى بعض أصدقائه من المحامين ، بعد أن عجزت عن أن أتبين الطريق السوى لاتخاذ الاجراءات القانونية ضد هذا المندوب • وتصادف أن كان السير فيروز شاه ميهتا فى راجكوت فى ذلك الوقت ، اذ كان قد حضر اليها من بومباى ليتراجع فى احدى القضايا • ولكن أنى لى ، وأنا المحامى الناشئ ، أن أجرؤ على مقابلة من كان مثله ؟ فبعثت اليه بجميع أوراق الموضوع عن طريق محام يعمل بمكتب الاعمال القضائية الذى اختاره للمرافعة فى القضية التى جاء الى راجكوت من أجلها ، برجا أن يتفضل على برأيه • فقال للمحامى الذى حمل الأوراق اليه : « قل لغاندى ان ما وقع له حادث عادى فى حياة كثيرين من المحامين • انه لا يزال حديث الذاكرة بالأمور فى انجلترا ولا يزال محتفظا بحماسة • انه لا يعرف كبار الموظفين البريطانيين هنا • ان عليه اذا أراد أن يكسب قوته وأن يحيا هنا حياة ليس فيها ما ينغص عليه عيشه، أن يترك هذه المذكرة وأن يزدرد الالهانة التى لحقته ، فهو لن يجنى من وراء اتخاذ اجراءات قانونية ضد المندوب شيئا ، بل هو على العكس سيهدم نفسه بنفسه اذا سار فيها الى النهاية • قل له انه ما زال فى حاجة الى أن يعرف أساليب الحياة ، •

كان لهذه النصيحة فى نفسى أثر السم الزعاف ، وان وجدتنى مضطرا الى العمل بها • وهكذا ازدردت الالهانة التى وقعت على ، بعد أن أقلت منها فائدة كبرى • فقد قلت لنفسى : « لن أضع نفسى مرة

أخرى في مثل هذا الوضع الزائف، ولن أحاول في المستقبل أن أستغل
الصدقة على هذا النحو ، • ولم أتخل يوما عن هذا الذي اعتزمته •
بل ان هذه الصدمة التي تلقيتها قد غيرت مجرى حياتي نفسه •

وما من شك في أنني كنت مخطئا في الذهاب الى هذا الموظف
الكبير ، وان كان ضيق صدره بي وتعاليه على وهو في سورة غضبه
أكثر مما يتناسب مع خطئي ولم يكن ليبرر بحال من الأحوال طردى
من مكتبه • والأدهى من ذلك أن معظم عملي كان أمام محكمته ، ولكنني
مع ذلك لم أشأ أن أعمل على استرضائه ، بل الواقع انني بعد أن
هددت بمقاضاته لم أحب أن أظل ساكتا •

وكنت في الوقت نفسه قد بدأت أتعلم شيئا عن الأساليب
التافهة التي تجرى في الولاية • فلما كانت ولاية كاثياواد تتألف
من مجموعة من المقاطعات الصغيرة فقد كان طبيعيا أن يكون حظها من
مخترفي السياسة ويرا حتى أضحت المؤامرات بين مقاطعة ومقاطعة ،
وبين الموظفين أنفسهم وهم يتنازعون على السلطان ، أمرا عاديا ،
وصار الأمراء تحت رحمة من دونهم ، يستمعون الى الوشائيات من كل
واش وحاسد • حتى حاجب المندوب السياسي كان لابد من استرضائه •
أما رئيس الكتاب فقد كان أشد بأسا من سيده ، فهو عينه التي يرى
بها ، وأذنه التي يسمع بها ، ورجله الذي يعتمد عليه في ترجمة
ما يدور حوله ، حتى أضحت رغبته قانونا ، وثورته ، فيما تدور
به الروايات المتناقلة ، تزيد على ثروة رئيسه • وقد يكون في ذلك
بعض المبالغة ، ولكن الواقع الذي لا سبيل الى تجاهله انه كان يحيا
حياة تفوق مرتبه •

وقد بدا هذا الجو في نظري ساما يمرض النفس حتى صارت
مشكلتي الدائمة هي كيف أستطيع أن أعيش في هذا الجو دون أن
تدركني شروره •

وضاقت نفسى بكل ذلك • وبينما أنا أفكر فى همى اذ بأحد البيوت التجارية فى بورباندر يكتب لائخى ليعرض عليه العرض التالى : « ان لنا أعمالا فى جنوب أفريقية ومتجرنا فيه من أكبر المتاجر ، ولنا قضية كبيرة منظورة أمام القضاء هناك ندعى فيها بمبلغ ٤٠٠٠٠ ر. جنيه • وقد ظلت هذه القضية قائمة فترة طويلة واستخدمنا من أجلها خيرة مكاتب الأعمال القضائية وخيرة المحامين • فلو انك أرسلت أخاك هناك لكان وجوده نافعا لنا وله ، اذ يتيح له توجيه مستشارينا القانونيين خيرا مما نستطيع نحن من هنا ، فضلا عما يجنيه من مشاهدة جزء جديد من العالم وانشاء صداقات جديدة » • وسألتهم : « ما المدة التى تريدون أن تحصلوا فيها على خدماتى؟ وما هو أجرى ؟ » •

وكان جوابهم : « مدة لاتزيد على السنة ، وسندفع لك أجر السفر والعودة بالدرجة الأولى ، ثم ١٠٥ من الجنيهات بما فيها كل شئ » •

ولم يكن معنى ذلك اننى سأذهب هناك بوصفى محاميا بل ، موظفا من موظفى هذا البيت التجارى • على أننى كنت راغبا الى الهند فقبلت العرض دون أخذ أو رد وشرعت أستعد للسفر الى جنوب أفريقية •

٢٤ - وصولي الى جنوب أفريقية

دربان هي عاصمة ناتال . فلما وصلت اليها كان عبد الله شيت في استقبالى على الميناء . وقد تبين لى عندما أخذت السفينة تنقى مراسيها أن الهنود هناك لم يكونوا موضع احترام كبير ، بل لم يفتنى أن ألحظ نوعا من الترفع فى سلوك أولئك الذين كانت لهم معرفة بعبد الله شيت وفي معاملتهم له . وحز كل ذلك فى نفسى ، وإن كان عبد الله فيما يبدو قد اعتاد تلك المعاملة . أما من كانوا ينظرون الى فقد كانوا يرمقوننى فى كثير من الفضول ، فقد كانت ملابسى تختلف عن ملابس سائر الهنود ، اذ كنت وقتئذ ألبس الفروك وأضع فوق رأسى عمامة على نحو ما يفعل أهل البنغال .

وأخذنى عبد الله شيت الى مقر الشركة وأدخلنى الى الحجرة التى خصصت لى ، وكانت تجاور مكتبه . على أن عبد الله لم يستطع أن يفهمنى ، ولا أنا استطعت أن أفهمه . لقد قرأ الأوراق التى حملتها له أخوه من الهند فازداد حيرة وارتباكاً ، كما لو كان أخوه قد بعث له بفيل أبيض . وقد راعه منى أسلوبى فى اللبس وطريقتى فى الحياة ورأى فى كل ذلك أسلوباً باهظ النفقات كأسلوب الأوروبيين . يضاف الى ذلك انه لم يكن هناك عمل محدد يستطيع أن يعهد به الى ، فقد كانت قضيتهم منظورة أمام محاكم الترنسفال ولم يكن هناك ثمة ما يدعو الى ايفادى اليها على وجه السرعة . ثم ما هو المسدى الذى يستطيع عنده أن يطمئن الى كفايتى ونزاهتى ؟ فهو لن يكون فى ريتوريا ليراقبنى ، بينما المدعى عليهم يقيمون فيها ، ومن يدرى ، فلعلهم يستطيعون أن يؤثروا فى بوسائلهم المختلفة . ثم اذا كان

لا يستطيع أن يعهد الى بالأعمال المتصلة بتلك القضية فأى عمل آخر يمكن أن يعهد به الى ؟ مع ملاحظة أن أى عمل غير هذا يستطيع أى كاتب عادى أن يؤديه خيرا مما أوديه . والكاتب فوق ذلك يمكن استجوابه ومؤاخذته ان هو أخطأ ، فهل كان يستطيع أن يؤاخذنى ان أنا أخطأت ؟ وما دام لا يستطيع أن يعهد الى بعمل يتصل بهذه القضية فان معنى ذلك أن أبقي بدون عمل .

ولم يكن عبد الله شيت بالرجل المتعلم ، ولكنه كان يحظى بذخيرة كبيرة من التجارب ، ويستمتع ببديهة حاضرة ، واستطاع أن يلتقط عن طريق المران العملي قدرا كافيا من اللغة الانجليزية يسمح له بالتحدث بها ، وهذا القدر ، على ضالته ، كان يكفيه لمباشرة أعماله المختلفة ، سواء أكان يتعامل مع مديرى البنوك ، أم مع تجار من الأتجانب ، أو كان يشرح قضيته لمستشاره القانونى . وكانت له فوق ذلك منزلة رفيعة فى نفوس الهنود . كما كان متجربه وقتئذ أكبر المتاجر الهندية فى جنوب أفريقية أو على الأقل من أكبرها .

وقد صحبنى عبد الله شيت فى اليوم الثانى أو الثالث لوصولى ليرينى محكمة دربان . فلما كنا هناك عرفنى الى عدد من الناس ، ثم أجلسنى الى جوار وكيل شتونه القانونية ، وإذا بالقاضى يحملق فى وجهى ، ثم يطلب الى أن أخلع عمامتى ، غير أنى رفضت ما دعانى اليه ، وغادرت قاعة الجلسة .

واذن فقد كتب على الكفاح هنا كذلك !

وكتبت للصحف أروى لها الحادث ، وأدافع عن لبس العمامة داخل الجلسة ، وتناولت الصحف هذا الموضوع بالبحث ، وتعددت كتاباتها عنه ، وان وصفتنى بأننى « زائر غير مرغوب فيه » . وهكذا أضفى على هذا الحادث ، ولما يمض على فى جنوب أفريقية الا أيام معدودات ، دعاية لم أكن أتوقعها ، وانقسم الناس حزبين ، منهم من يدافع عنى ، ومنهم من ينفذ حماقتى . ولكن العمامة مع ذلك ظلت تلازمنى الى نهاية اقامتى فى جنوب أفريقية .

٢٥ - الى بريتوريا

تسلم المتجر في ناتال خطابا من محاميه في بريتوريا يوصونه فيه بالاستعداد للقضية ، ويطلبون من عبد الله شيت أن يحضر اليها بنفسه ، أو يرسل اليها من ينوب عنه . وأعطاني عبد الله شيت الخطاب وسألني ان كنت أحب أن أسافر الى بريتوريا . وقلت له : « اننى لا أستطيع أن أقول شيئا فى ذلك الا بعد أن أفهم القضية منك . اننى وأنا عند هذه المرحلة لا أدرى ما يجب على أن أفعله هناك » . وطلب عبد الله شيت الى كتبتة أن يشرحوا لى تفاصيل القضية .

وغادرت دربان فى اليوم السابع أو الثامن من وصولى الى ناتال، بعد أن احتجزوا لى مكانا فى الدرجة الأولى بالقطار . وكانت العادة هناك أن يدفع الانسان خمسة شلنات اضافية نظير استئجار مقصورة للنوم ، وقد ألح على عبد الله شيت أن أحجز لنفسى مكانا للنوم ، ولكنى رفضت ذلك بدافع العناد والكبرياء ، ورغبة منى فى أن أقتصد خمسة شلنات . وعاد عبد الله يحذرنى وهو يقول : « استمع الى : هذا بلد يختلف عن الهند . ونحن بحمد الله عندنا من المال الكفاية وأزيد من الكفاية ، فلا تقتر على نفسك فى شىء قد ترى نفسك فى حاجة اليه » .

وشكرته على شعوره الطيب ورجوت منه ألا يقلق باله من أجلى .

ووصل بى القطار الى ماريتزبرج ، عاصمة ولاية ناتال ، فى الساعة التاسعة مساء ، وكانت العادة أن توزع الأسرة فى تلك المحطة .

وجاءني أحد فراشى السكة الحديد يسألني ان كنت أريد أن أحتجز
سريرا ، فلما قلت له لا ! ان معي فراشى ، ذهب الى حال سبيله • الا
أن راكبا آخر دخل المقصورة التي كنت فيها بعد ذلك ثم جعل
يحدق في بصره ويتفرسني من قمة رأسي الى أخمص قدمي • فلما
وجدني « ملونا » خرج مستاء بم عاد ومعه اثنان من موظفي السكة
الحديد ووقف الجميع ساكتين الى أن لحق بهم موظف ثالث ، فقال
لي : « تعال معي ! فان مكانك في الدرجة الثالثة » •

– ولكنني أحمل تذكرة للسفر بالدرجة الاولى » •

– « هذا لا يهم في شيء • لقد قلت لك يجب أن تذهب الى
الدرجة الثالثة » •

– « وأنا أقول لك لقد سمح لي بالسفر في هذه المقصورة من
دربان ، وأنا مصر على أن أبقى فيها » •

غير أن الموظف استمر في عناده ، ثم أخذ يهددني قائلا : « هذا
لن يكون • يجب أن نترك هذه المقصورة ، والا استدعيت البوليس
ليخرجك منها عنوة » •

– « فلتفعل ما تريد ، فانني أرفض أن أخرج من هنا طائما » •

وجاء شرطى فأمسك بيدي ثم دفعني خارج المقصورة وألقى
بحقائبي الى الرصيف ، ولكنني رفضت أن أذهب الى الدرجة الثالثة
كما أرادوا ، وانطلق القطار في طريقه حتى خرج من المحطة وأنا واقف
مكانى أرقبه •

واتجهت الى حجرة الاستراحة فجلست فيها حاملا معي حقيبة

اليد • أما سائر حقايبى فقد تركتها حيث كانت بعد أن تعهدت بها
ادارة المحطة •

كان الفصل فصل الشتاء ، والشتاء فى الاقاليم المرتفعة فى
جنوب أفريقية شديد البرودة • ولما كانت ماريتزبرج شديدة الارتفاع ،
فقد كان بردها قارسا • ولم يكن معطى معى ، فقد كنت تركته بين
متاعى ، ولكنى فضلت أن أجلس حيث أنا ، وأن أظل أرتعد من شدة
البرد ، على أن أطلبه فأهان مرة أخرى •

وأخذت أفكر فيما يجب على أن أفعله • هل أدافع عن حقوقى ثم
أعود الى الهند على الفور ؟ أم أواصل سفرى الى بريتوريا دون أن أبالى
بهذه الاهانة ، ولا أعود الى الهند حتى تنتهى القضية ؟ اننى لو هربت
الى الهند قبل أن أتم التزاماتى لكان ذلك الجبن بعينه • أما التجربة
القاسية التى تعرضت لها الآن فليست سوى مسألة عارضة ومظهر
من مظاهر ذلك الداء الدفين الذى تولد فى عقول الناس بسبب التمييز
العنصرى • وأما واجبى الحقيقى فهو العمل بقدر ما أستطيع على اقتلاع
هذا الداء الدفين ، وأن أتحمل فى سبيل ذلك كل ما يعترضنى من
صعاب •

ولهذا فقد قررت أن أركب القطار التالى الى بريتوريا •

وأرسلت فى الصباح برقية مطولة الى مدير عام السكة الحديد ،
كما أنبأت عبد الله شيت بما كان لى فتوجه من فوره لمقابلة المدير •
وقد حاول هذا فى خلال حديثه معه أن يبرر سلوك موظفيه ، وان
طمأنه بعد ذلك على أنه قد أرسل على أية حال تعليمات الى ناظر محطة
ماريتزبرج يطلب اليه فيها أن يعمل على التأكد من وصولى الى حيث
أريد •

وأبرق عبد الله من ناحيته الى التجار الهنود في ماريتزبرج ،
والى أصدقائه في جهات أخرى ، برجوهم مقابلتي والاهتمام بأمرى •
وجاء التجار لاستقبالي في المحطة وحاولوا جهدهم أن يسروا عني
فأخذوا يقصون على ما صادفهم من صعاب في عذا الصدد ، ويؤكدون
لي أن ما حدث لي انما هو أمر عادي في حياتهم ، وأن الهنود الذين
يسافرون بالدرجة الأولى أو الثانية ، يجب أن يتوقعوا كثيرا من
المضايقات من موظفي السكة الحديد ومن الركاب البيض •

ومر التناز وأنا أستمع الى هذه القصص المخزية حتى وصل
قطار المساء فركبته وكان لي فيه مكان محجوز ، وان كنت حرصت في
هذه المرة على شراء تذكرة لمقصورة النوم التي رفضت أن أحتجزها
وأنا في دربان •

وبلغ القطار مدينة تشارلستون في الصباح ، ولم يكن هناك في
ذلك الوقت خط حديدي يربط بين تشارلستون وجوهانسبرج ، فكان
الركاب يسافرون اليها بالعربات التي تجرها الجياد وبيبتون ليلتهم
في الطريق في مدينة ساندرتون • وكنت أحمل معي تذكرة للسفر
في إحدى هذه العربات ، وكانت التذكرة لا تزال صالحة للاستعمال •
رغم تخلفي في محطة ماريتزبرج يوما كاملا •

ولكن مندوب الشركة التي تسير هذه العربات لم يكن يعوزه الا
أوهي الأسباب لكي يحول بيني وبين ركوب العربة ، فزعم أولا أن
تذكرتي قد أصبحت ملغاة ، وان كان السبب الحقيقي شيئا آخر غير
هذا ، فقد كان عليه أن يجلس الركاب داخل العربة ، ولكن أما وقد
كنت في نظره واحدا من « الكولى » (ومعناها حمال ، وهو لقب يطلق
في جنوب أفريقيا على الهنود على سبيل التحقير) فقد رأى ألا يسمح
ن بالجلوس بين الركاب ، وأن يجلسني بدلا من ذلك في أحد المكاتب

الذين يقعان على جانبي السائق • وكان «الريس» - كما كان يطلق على الرجل الأبيض الذى يشرف على العربى - يجلس عادة فى أحد هذين المكانين ، ولكنه فى هذه المرة جلس داخل العربى وأعطاني مكانه • لقد كنت أدرك أن ما فعله ينطوى على ظلم فاحش وعلى اهانة بليغة لى ، ولكنى فضلت أن أتغاضى عن ذلك ، فلم يكن لى سبيل الى اقحام نفسى داخل العربى بالقوة ، فضلا عن أننى لو احتججت على هذا العمل لانطلقت العربى من غيرى ، مما يترتب عليه ضياع يوم آخر ، ولا يعلم الا الله ماذا كان يحدث فى اليوم التالى • ولهذا ، فطلى الرغم مما كان يعمل فى قرارة نفسى من غيظ مكبوت ، فقد آثرت سبيل الحكمة ، وجلست الى جانب السائق •

وفى حوالى الساعة الثالثة من بعد الظهر وصلت بنا العربى الى بارديكوف ، وبينما نحن هناك رغب «الريس» فى الجلوس مكانى اذ كان يريد أن يدخن ، ولعله كان يريد الى جانب ذلك أن يستمتع بالهواء الطلق • فما كان منه الا أن أخذ من السائق قطعة قذرة من قماش الاكياس فوضعه على سلم العربى ، وقال يخاطبني : « اجلس أنت هنا ، فانى أريد أن أجلس قريبا من السائق » • لقد كانت هذه اهانة لا قبل لى على احتمالها ، فقلت له وأنا أرتعد فرقا « بل أنت نفسك الذى اجلستنى هنا ، مع أن مكانى كان يجب أن يكون داخل العربى ، وقبلت الاهانة مع ذلك • والآن تريد منى أن أجلس تحت قدميك لأنك تريد أن تجلس فى الهواء الطلق وتدخن • اننى لن أفعل ما تطلب منى ، وان كنت مع ذلك مستعدا لأن أجلس داخل العربى » •

وبينما كنت أجاهد لكى تخرج تلك الكلمات هزيلة متناقلة من بين شفتى ، اذ بالرجل يهجم على ويعمل فى ضربا ولطما ثم يمسك بذراعى ويحاول أن يجرنى جرا من مكانى • وتشبثت بالسياج النحاسى الذى يحيط بالمقعد الذى أجلس عليه ، وصممت على أن أظل

متشبهًا به حتى ولو انكسر معصمى دون ذلك . وجلس الركاب يشهدون هذا المنظر : الرجل وهو ينهال على سبا ويوسعنى ضربا ولكما ، ويحاول أن يجرنى من مكاني جرا ، وأنا وقد بقيت نابتا فى مكاني لا أتزحج ، وهو القوى وأنا الضعيف الهزيل . وأخذت الشفقة بعضهم فصرخوا فى الرجل : « يا رجل ! دعه وشأنه ! لا تمسه بسوء ! انه لا ذنب له . انه على حق . اذا كان لا يستطيع أن يجلس مكانه فنبأت ليجلس معنا هنا » . وأجابهم الرجل : « لا ! هذا لن يكون » قالها وان كان بدا متهالكا متخاذلا بعد أن كف عن ضربى . وأخيرا رفع قبضته من حول ذراعى وهو يلعن ويتوعد ، ثم طلب الى السائس الذى يجلس فى الناحية الأخرى من السائق أن يجلس على سلم العربة ليخلى مكانه له .

وعاد الركاب الى مقاعدهم داخل العربة، وانطلقت انصفاً رة ايدنا لها بالسير . كان قلبي يدق دقات متواصلة ، فقد كنت بدأت أشك فيما اذا كنت سأصل الى المكان الذى أقصده حيا ، وكان الرجل لا يكف عن النظر الى بين الحين والحين بعين ملؤها الغضب وهو يقول : « احترس ! فسوف ترى ما أنا صانع بك عندما نصل الى ساندرتون » . وهكذا جلست فى مكاني صامتا لا أنطق بكلمة وأنا أدعو الله أن يمد الى يد العون .

ووصلنا الى ساندرتون ، بعد أن غابت الشمس ، وحل الظلام ، فلما وقع بصرى على بعض الهنود تنفست الصعداء ، وما كدت أنزل من العربة حتى تقدم منى هؤلاء الأصدقاء ليقولوا : « جئنا لاستقبالك واصطحباك الى متجر عيسى شيت ، بعد أن تسلمنا بريقة من دادا عبد الله » ، فلما وصلناه اجتمع صاحبه ومن يعملون معه من الكتبة حولى . فلما رويت لهم ما كان من أمرى فى الطريق أسفوا لما سمعوه وأخذوا يقصون على تجاربهم المريرة لكى يسروا عنى ويخففوا من وطأة ما لقيت .

وأردت أن أبلغ الأمر الى وكيل شركة العربيات ، فكتبت له خطابا
رويت له فيه كل ما حدث ، ولفت نظره الى تهديد رجله لى ، كما
طلبت منه توكيدا بأن يعمل على اجلاسى مع سائر الركاب فى مقعد
بداخل العربة عندما نستأنف سفرنا فى الصباح . وأجاب الوكيل على
رسالتى بما معناه : « سيكون لدينا من ساندرتون عربة أكبر يتعهدا
رجال غير أولئك ، ولن يكون الرجل الذى شكوته من بينهم ، وسيكون
لك مقعد مع الركاب الآخرين » . وكان لهذه الرسالة أثرها فى
تخفيف بعض همى ، اذ لم يكن فى نيتى بطبيعة الحال أن اتخذ أية
اجراءات قانونية ضد الرجل الذى اعتدى على . وهكذا أسدل الستار
على قصة هذا الاعتداء .

وفى الصباح جاء رجل من قبل عيسى شيت ليصحبني الى العربة ،
وقد ظفرت بمقعد طيب بداخلها ، ووصلت جوهانسبرج سالما فى
المساء .

وإذا كانت ساندرتون قرية صغيرة فان جوهانسبرج مدينة
كبيرة . وكان عبد الله قد أبرق الى جوهانسبرج كذلك ، كما كان قد
أعطاني قبل سفرى اسم متجر محمد قاسم قمر الدين وعنوانه فيها .
غير أن الرجل الذى جاء ليستقبلني عند موقف العربيات ، نيابة
عن هذا المتجر ، لم يتعرف على ، ومن ثم فقد قررت أن أذهب الى أحد
الفنادق ، وكنت أعرف أسماء بعضها ، واكتريت عربة طلبت من سائقها
أن يذهب بي الى فندق جراند ناسيونال ، فلما طلبت من مديره أن
يعد لى حجرة نظر الى هنيهة ثم قال فى أدب جم ، وهو يهم بتوديعي
الى الباب : « انى أسف ، فان جميع الحجرات مشغولة » ، فعدت أطلب
الى سائق العربة أن يتجه بي الى متجر محمد قاسم قمر الدين
فوجدت عبد الغنى شيت فى انتظارى هناك . وقد رحب بي ترحيبا
حارا ، وضحك من أعماق قلبه لما سمع بما حدث لى فى الفندق وهو

يقول : « كيف خطر ببالك أن يكون نزولك في أحد الفنادق هنا أمرا
ممكنا ؟ » .

وسالته : « لماذا ؟ »

قال : « ستعرف بعد أن تقيم بيننا أياما معدودات . وفي الحق
انه لا أحد غيرنا يستطيع أن يعيش في بلد كهذا ، فاننا في سبيل
جمع المال لا نبالي اذا أهنا » . ثم أخذ بعد ذلك يقص على قصة الهنود
في جنوب أفريقية وما يلقونه من عنت فيها .

ثم استطرد يقول : « ان هذا البلد ليس لأمثالك . ان عليك أن
تذهب الى بريتوريا غدا وستجد نفسك مضطرا الى السفر بالدرجة
الثالثة ، فالأحوال في الترنسفال أسوأ منها في ناتال ، وتذاكر الدرجة
الأولى والثانية لا تصرف فيها للهنود ألبتة » .

وقلت له : « اننى أريد أن أسافر بالدرجة الأولى ، فاذا لم
أستطع فسأكتري عربة الى بريتوريا ، وهى لا تزيد على مسيرة
٣٧ ميلا » .

ولفت عبد الغنى شيت نظرى الى ما يستوجبه ذلك من زيادة
في النفقات وضياح للوقت ، ولكنه عاد فوافق على اقتراحى السفر
بالدرجة الأولى . ومن ثم فقد أرسلت الى ناظر المحطة مذكرة قلت له
فيها اننى محام وأسافر دائما بالدرجة الأولى ، وذكرت له حاجتى
الى السفر الى بريتوريا فى أسرع وقت ، وقلت له ان وقتى لا يتسع
لانتظار رده كتابة ، واننى لذلك سأتلقي جوابه على هذه المذكرة شفاهما
عندما أذهب الى المحطة ، واننى على أية حال أنتظر أن أتسلم تذكرة
سفر بالدرجة الأولى . وكان لى هدف من قولى اننى « سأتلقي رده
شفاهما » . فلو أنه أعطى هذا الرد كتابة لكان جوابه بالنفى قطعاً .

يدفعه الى ذلك بصفة خاصة الصورة التي لا بد أن تعلق في ذهنه عن محام من « الكولى » . لذلك رأيت من الأرفق أن أتقدم اليه بنفسى فى زى انجليزى لا تشوبه شائبة ، وأن أتحدث اليه لعل أستطيع اقناعه بصرف تذكرة بالدرجة الأولى . وهكذا ذهبت اليه فى بذلة الفروك وما يتبعها من رباط العنق الخاص ووضعت جنيها ذهبيا أمام شبك التذاكر وطلبت تذكرة بالدرجة الأولى .

وسألنى : « أنت أرسلت الى هذه المذكرة ؟ »

قلت : « نعم ! وأكون شاكرا لك جميلك لو صرفت لى تذكرة بالدرجة الأولى ، اذ لا بد لى من الوصول الى بريتوريا اليوم » .

وابتسم ناظر المحطة ثم قال ، وقد أخذه الشعور بالشفقة : « اننى لست من أهل الترنسفال ، بل أنا من أصل هولاندى ، ولذلك فانى أقدر شعورك ، وأشارك احساسك ، وأود مخلصا أن أصرف لك التذكرة التى تطلبها ، ولكن بشرط واحد ، هو ألا تورطنى فى شىء اذا طلب منك كمسارى القطار الانتقال الى الدرجة الثالثة . أقصد بذلك ألا تتخذ اجراءات قانونية ضد الشركة لو حدث ذلك . اننى أرجو لك سفرا سعيدا ، فانى أراك جنتلمانا بمعنى الكلمة » .

بهذه الكلمات على لسانه صرف ناظر المحطة التذكرة فشكرته وأعطيته التوكيدات اللازمة .

وكان عبد الله شيبث قد جاء الى المحطة ليكون فى توديعى . وقد أدهشه هذا الحادث دهشة يخالطها السرور ، ولكنه حذرني قائلا : « سأحمد الله اذا وصلت الى بريتوريا سالما ، ولكننى أخشى ألا يتركك الكمسارى تجلس فى هدوء ، وحتى اذا تركك ، فان الركاب لن يتركوك » .

وجلست في مقعدى باحدى مقصورات الدرجة الاولى وتحرك بنا انقطار وأنا جالس في مكانى . وجاء الكمسارى ليفحص التذاكر فبدا عليه الغضب ، وأشار الى بأصبعه أن أذهب الى الدرجة الثالثة ، فلما أبرزت له تذكرة الدرجة الاولى كان رده : « هذا لا يهم . هيا الى الدرجة الثالثة » .

ولم يكن معى فى المقصورة غير راكب واحد ، كان انجليزيا ، فأخذ يناقش الكمسارى الحساب . قال له : « ماذا تقصد من اطلاق هذا السيد ؟ ألا ترى أنه يحمل معه تذكرة بالدرجة الأولى ؟ اننى لا أمانع اطلاقا فى بقائه معى فى نفس المقصورة » ثم التفت الى يقول : « يجب أن تبقى مكانك وألا تدع شيئا يقلقك » .

وتمتم الكمسارى يقول : « ما دمت تقبل على نفسك أن تسافر مع واحد من « الكولى » فماذا يعنينى ؟ » .

ووصل القطار بى الى بريتوريا فى الساعة الثامنة مساء .

٢٦ - أول أيامى فى بریتوريا

فكرت عند وصولى الى محطة بریتوريا فى أن أنتظر حتى ينصرف جميع الركاب ويخف الضغط على جامع التذاكر الواقف عند مدخل المحطة فأعطيه تذكرتى ثم أسأله أن يدلنى على فندق متواضع ، أو أى مكان آخر من هذا القبيل ، أستطيع أن آوى اليه ، والا أمضيت ليلتى فى المحطة . وأعترف أننى خشيت أن أسأله حتى هذا السؤال البسيط خوفا من الاهانة .

دخلت المحطة من زكائها أخيرا فقدمت تذكرتى إليه ثم أخذت أستفسر منه عما كنت أبغى ، وأجابنى فى أدب ، وان لم أتبين من اجابته ما يمكن أن يفيدنى كثيرا . وكان أحد الزوج الأمريكيين واقفا على مقربة منا فتدخل فى الحديث وقال يخاطبني « انى أراك غربيا على المكان ولا أصدقاء لك فيه ، فان شئت أن تصحبني أخذتك الى فندق صغير صاحبه أمريكى ولى به معرفة وثيقة واعتقد أنه لن يرفض استضافتك » .

ومع أن الشك كان يراودنى فيما يقول ، فقد قبلت اقتراحه شاكرا ، فصحبني الى « فندق جونستون للعائلات » ، فلما كنا هناك انتحى بصاحبه جانبا ، وجعل يتحدث اليه . وقبل المستر جونستون أن يستضيفني بفندقه تلك الليلة ، بشرط أن أتناول عشائي فى حجرتي ، ثم أضاف معتذرا : « أحب أن أؤكد لك أننى برىء من كل تفرقة بين الناس بسبب لونهم ، الا أن زبائنى جميعا من الأوروبيين ،

وأخشى ان أنا سمحت لك بتناول عشاءك في قاعة الطعام ، ان يفضوا عن الفندق » •

وردت عليه اقول : « انتمرك حتى لمجرد استضافتي ليلاتي •
انى ادرك بعض ظروف احياة سى هذا المكان ، وأفهم حرج موقفك •
ولا مانع عدى من ان تقدم لى العشاء فى حجرتى ، وارجو ان أتمكن
من ترتيب أمورى فى الغد » •

وقادنى المستر جونستون الى حجرة للنوم ، حيث جلست أنتظر العشاء ، واستسلمت بحكم وحدتى الى التفكير العميق فيما كنت فيه •

ولم يكن عدد نزلاء الفندق كبيرا ، ومن نم فقد كنت أنتظر أن يأتيني النادل بعشائي قبل انقضاء وقت طويل • أما ما حدث بالفعل فهو أن المستر جونستون كان هو الذى دخل على وهو يقول : « لقد شعرت بالخجل وأنا أطلب اليك أن تتناول طعامك هنا • ولهذا فقد تحدثت الى الضيوف الآخرين بشأنك وسألتهم ان كانوا يمانعون فى تناولك العشاء معهم فى قاعة الطعام ، فأبدوا جميعا موافقتهم على ذلك ، وقالوا انهم لا يمانعون فى بقائك بالفندق كما تشاء • ولهذا فانى أرجو منك أن تاتى الى قاعة الطعام ان شئت وأن تبقى بيننا كما تريد » •

وشكرته مرة أخرى ، وذهبت الى قاعة الطعام ، فتناولت عشاء شهيا •

٢٧ - اتصالات بالمسيحية

في صباح اليوم التالي على وصولي الى بريتوريا ذهبت لزيارة المستر ا. و. بيكر ، وكيل الشؤون القضائية لحل عبد الله شيت . وكان عبد الله قد زودني ببعض المعلومات عنه . فلم يدهشني ترحيبه بي ، فقد استقبلني استقبالا كريما وجعل يستفسر عن أحوالي . وشرحت له كل ما يتصل بي ، فقال ، بعد أن استمع الى في اهتمام : « ليس لدينا عمل لك هنا كمحام مترافع ، فقد استخدمنا لهذا الغرض خيرة المحامين هنا . والقضية قضية طويلة ومعقدة ، ولذلك فسوف أستعين بك الى الحد الضروري للحصول على البيانات اللازمة . وسوف ييسر بقاؤك هنا بطبيعة الحال اتصالي بموكلي ، فتأتيني جميع البيانات التي أطلبها منه عن طريقك ، وهذا ولا شك غنم كبير لي . انني لم أحجز لك حتى الآن حجرة لسكنك وفضلت أن أنتظر حتى ألقاك ، فالناس هنا شديدو التعصب بسبب فارق اللون ، وليس من السهل أن أوفق الى مكان لمن على شاكلتك ، ولكنني أعرف امرأة فقيرة ، هي زوجة أحد الخبازين ، وأعتقد أنها لن تمنع في اقامتك عندها . تعال معي نذهب اليها ! »

وأخذني معه الى بيتها ، فلما ذهبنا اليه تحدث اليها على انفراد وقبلت أن تستضيفني في بيتها لقاء ٣٥ شلنا في الأسبوع .

وكان المستر بيكر الى جانب عمله في الشؤون القانونية واعظا غير محترف ، شديد التحمس لعمله ، وهو ما زال حيا الى هذا اليوم ينعم بثروة طيبة ، ويكرس حياته لأعمال التبشير بعد أن تخل عن

نشاطه القانوني ، وما زال يكتبني الى يومنا هذا ، ولكنه لا يكتب الا في موضوع واحد ، هو التغني بمحاسن المسيحية ، فهو يؤمن بأن من المستحيل على الانسان أن يجد السلام الدائم والسكينة الباقية الا اذا تقبل المسيح على أنه ابن الله الواحد ، وانه منقذ البشرية ومخلصها .

وقد حرص المستر بيكر ، في أول مقابلة بيني وبينه ، على أن يستوثق من ديانتني فقلت له : « انني هندوسي مولدا ، وان كانت معرفتي بالهندوسية قليلة . وأقل منها معرفتي بغيرها من الأديان . بل الواقع أنني لا أعرف أين أنا ولا ما يجب أن أؤمن به . على أن في نيتي أن أدرس ديانتني دراسة مستفيضة ، وكذلك غيرها من الديانات الأخرى » .

وقد انشرح صدر المستر بيكر لسماع ذلك مني وأفضى الى يقول : « انني أحد مديري البعثة التبشيرية الرئيسية في جنوب افريقية ، وقد بنيت كنيسة على نفقتي ، وأقوم بالوعظ فيها بصفة منتظمة ، كما أجتمع أنا وبعض الرفاق الذين يتعاونون معي في هذا العمل كل يوم في الساعة الواحدة لكي نصلي من أجل السلام ، ونسعى الى النور الرباني ، ويسرنني لو أنك حضرت اجتماعاتنا لكي أعرفك بزملائي الذين يسعدهم أن يقابلوك » . فشكرته على دعوته ، ووافقت على حضور صلاة الساعة الواحدة بانتظام بقدر ما في استطاعتي .

وفي اليوم التالي ذهبت الى هذا الاجتماع فقدمني الى الأنسة هاريس والأنسة جاب والمستر كوتس وغيرهم . أما الأنستان هاريس وجاب فقد كانتا عانسين . وأما المستر كوتس فقد كان من أتباع مذهب الكويكرز . وكانت السيدتان تشتركان في مسكن واحد فوجهتا الى دعوة مستديمة لتناول الشاي معهما ومع أصدقائهما في الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم أحد بمنزلهما ، فكنت كلما اجتمعت بهذا الجمع أقدم للمستر كوتس بيانا بما فعلته خلال

الأسبوع فى النواحي الدينية وأتحدث معه فى الكتب التى قرأتها وأثر كل منها فى نفسى . فلما توثقت صلاتنا شرع يعطينى كتباً مما يختاره لى حتى ضاق رف كتبى بما عليه . وقد قرأت عدداً كبيراً من هذه الكتب خلال عام ١٨٩٣ .

كان حب المستر كوتس لى حياً صادقاً شديداً . رأى مرة حول عنقى عقداً مصنوعاً من حبات التولاسى التى يلبسها أتباع مذهب فيشنافا فاعتبر ذلك خرافةً وانطلق يقول لى : « ان هذا أمر لا يليق بك . دعنى أقطع هذا العقد ! » .

ومنته وأنا أقول : « لا ! لن تفعل ذلك فهو هدية مقدسة من أمى » .

— « ولكن أتؤمن أنت به ؟ » —

.. « اننى لا أعرف ما قد يكون لهذا العقد من مغزى غامض قد يخفى على . ومع أننى لا أعتقد بأننى سوف أتعرض للأذى ان أنا خلعتة فاننى لا أستطيع ، من غير مبرر قوى ، أن أتخلى عن عقده وضعتة أمى حول عنقى تسييراً عن حبها لى وإيماناً منها بأنه سيضعف من سعادتى وهنائى . أما حين يتأكل بمضى الزمن ، أو ينقطع من تلقاء نفسه ، فلن تكون بى رغبة بعد ذلك فى أن أضع عقداً آخر مكانه . أما هذا العقد بالذات فلن أسمح بقطعه » .

ولم يقدر المستر كوتس حجتى لأنه كان لا يشعر بالعطف نحو دينى ، بل كان يتطلع الى خلاصى من جاهليتى ، فكان حريصاً على أن يقنعنى بأنه لا نجات لى الا اذا تقبلت الدين المسيحى — مهما كان للأديان الأخرى نصيب من الصحة — فهو الدين الذى يتمثل فيه ؛ لنحى فى أجلى صورته ، وبأن خطاياى لن تغسل الا اذا كان المسيح شفيعى ، ولن يغنينى عن ذلك عمل مهما كان طيباً .

ولم أر سببا يحملنى على تغيير عقيدتى - دينى الذى آمنت به .
وقد كان من المستحيل على أن أسلم بأننى لن أدخل الجنة ، ولن
يكون لى خلاص ، الا اذا اعتنقت المسيحية . فَمَا أَطْلَعْتُ أَصْدِقَائِى
المسيحيين على هذا الرأى صراحة استعاذوا اشفاقا على .

والواقع أن عقلى المدرك لم يكن مستعدا لأن يتقبل حرفيا الرأى
الذى يقول بأن المسيح بموته وتضحيته قد اقتدى خطايا الناس
جميعا ، وان كان من الجائز أن يكون لهذا الرأى نصيب من الصحة
من الناحية المجازية . وتقول المسيحية فوق ذلك ان الروح هى من
خصائص الأدميين وحدهم دون سائر الكائنات الحية ، وان هذه
الكائنات لا تلبث أن تتلاشى الى عدم بعد موتها ، بينما عقيدتى التى
أدين بها تختلف اختلافا بينا عن ذلك . لقد كنت مستعدا لأن أتقبل
المسيح على أنه شهيد تمثل فيه روح التضحية والفداء ، وأنه معلم
سماوى عظيم ، ولكنى لم أكن مستعدا لأن أتقبله على أنه أكمل من
ولد من الرجال جميعا .

ولم يوح الى ما شهدته فى حياة بعض المسيحيين من تقوى
وورع بشئ لم توح به حياة غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى .
فقد رأيت فى حياة الآخرين نفس الدعوة الى الإصلاح التى سمعتها
من أفواه المسيحيين . وليس فى المسيحية من الناحية الفلسفية شئ
غير عادى . أما ناحية الفداء فيها فقد بدا لى أن الهندوس يفوقون
المسيحيين فى ذلك .

وإذا كنت قد عجزت عن تقبل المسيحية ، لا بوصفها دينا كاملا،
ولا بوصفها خير دين أخرج للناس ، فقد كانت فكرتى عن الهندوسية
لا تخرج عن ذلك ، إذ كانت عيوبها قد أخذت تزداد وضوحا أمام
عيني . فإذا كان نظام المنبوذين يمكن حقا أن يكون جزءا من الديانة

الهندوسية فهو اما جزء متعفن واما جزء دجيل عليها . أكثر من ذلك
انتى لا أرى نمة ما يسوغ تعدد الطبقات الطائفية وتعدد المذاهب فى
الهندوسية . ثم ما معنى ما يقال من ان الفيدا هى كلام الله المنزل ؟

وقد دفعنى ذلك الى أن أكتب الى رايتشاندهاى خطابا أبشه
فيه هذه الشكوك التى كانت تراودنى كما كتبت الى بعض الهيئات
الدينية فى الهند ، وجاءتنى ردودها ، فكان لرد الذى جاءنى من
رايتشاندهاى أثر جميل فى نفسى اذ بعث بعض الطمأنينة الى
قلبى . فقد نصحنى بالصبر وبدراسة الهندوسية دراسة أكثر عمقا
واستفاضة ، وقال فى احدى عباراته لى : « انى مؤمن ، وأنا أنظر
نظرة منزهة الى هذا الموضوع ، انه ما من دين آخر فيه من كياسة
انفكرة وعمقها ما للهندوسية ، أو له ما لها من روح الخير وتقدير
الروح » .

وكما كان أصدقائى المسيحيون يحاولون أن يحملونى على
اعتناق دينهم كذلك كان أصدقائى المسلمون يحاولون حملى على
اعتناق الاسلام . فقد ظل عبد الله شيت يقنعنى بدراسة الاسلام
فاشتريت ترجمة للقرآن من عمل سميل وأخذت أقرؤها كما اشتريت
كتبا أخرى عديدة عن الاسلام .

وعلى الرغم من اننى سلكت طريقا آخر غير ما أراده لى أصدقائى
المسيحيون فقد بقيت أشعر بما فى عنقى من جميل لهم ، فقد أثاروا
فى نفسى شوقا الى البحث الدينى ، وسأظل أحمل دائما ذكرى
اتصالاتهم الجميلة .

٢٨ - بداية تعرفى بالمشكلة الهندية

كان للوجيه حاجى خان محمد فى بريتوريا نفس المكانة التى كانت لعبد الله فى ناتال . فلم تكن هناك مسألة من المسائل العامة الا وتزعمها . وقد تعرفت اليه فى الأسبوع الأول بعد وصولى ، وأطلعتة على رغبتى فى الاتصال بكل هندى فى بريتوريا وشوقى الى دراسة أحوال الهنود فيها ، وطلبت منه أن يعاوننى على ذلك فوافق عن طيب خاطر .

وكانت أول خطوة لى فى سبيل ذلك الدعوة الى اجتماع حضره جميع الهنود فى بريتوريا ، رسمت لهم فيه صورة مما يلاقيه الهنود من عنت فى الترنسفال ، واقترحت عليهم تأليف رابطة للسعى لدى السلطات المختصة الى ازالة الصعوبات التى تعترض الهنود ، وعرضت عليهم أن أضع تحت تصرفهم كل ما فى مكنتى من جهد ووقت . وقد تقرر على ما أذكر أن تتكرر هذه الاجتماعات مرة كل أسبوع ، أو لعلها كانت مرة كل شهر ، فكانت هذه الاجتماعات تعقد عادة بانتظام فيتبادل الحاضرون الرأى ، حتى لم يعد فى بريتوريا هندى لم أعرفه أو حالة لم أكن ملما بها .

وقد اضطررنى ذلك الى التعرف على المندوب البريطانى لبريتوريا، المستر جاكوباس دى ويت . كان المستر دى ويت يعطف على الهنود ولكنه كان فى الوقت نفسه قليل الحيلة . وقد وافق على أية حال على مساعدتهم فى تحقيق مطالبهم بقدر ما فى استطاعته ودعائى لزيارته كلما أردت .

واتصلت بعد ذلك بالسلطات المشرفة على ادارة السكة الحديد فى بريتوريا وأوضحت لها موانع السفر التى تطبق على الهنود وليس لها ما يسوغها حتى بمقتضى لوائح السكك الحديدية التى وضعتها هذه السلطات نفسها ، فوصلنى منها رد تقول فيه ان تذاكر السفر بالدرجتين الأولى والثانية سوف تصرف للهنود اذا كانوا فى بزة لائقة . ولم يكن فى هذا الرد الترضية الكافية ، فقد ترك الأمر فى يد ناظر المحطة يقرر من من الهنود يرتدى « بزة لائقة » .

وهكذا هيات لى اقامتى فى بريتوريا فرصة لدراسة أحوال الهنود الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الترنسفال وفى ولاية أورانج الحرة دراسة عميقة مستفيضة . ولم أدر وقتها أن هذه الدراسة قدر لها أن تكون ذات فائدة كبرى لى فى مستقبلى ، فقد كنت فكرت فى العودة الى الهند فى نهاية العام ، أو حتى قبل ذلك ، اذا انتهت القضية التى جئت من أجلها فى خلال السنة .

ولكن الله شاء أمرا آخر .

فقد نص القانون المعدل الذى صدر وقتها على أن يدفع جميع الهنود ضريبة على الرسوم قدرها ثلاثة جنيهات لكل فرد ، كرسوم لدخول الترنسفال . ولم يكن للهنود فوق ذلك حق الملكية الا فى أماكن محددة خصصت لهم ، ولم تكن مع ذلك ملكية حرة خالصة . كذلك لم يكن لهم حق التصويت . كل هذا بمقتضى القانون الخاص بالآسيويين الذين لم يقف بهم الحرمان عند هذا الحد بل تعدها الى تطبيق القوانين الخاصة بالأجناس «الملونة» عليهم الى جانب ذلك كله .

فلم يكن للهنود بمقتضى قوانين الملونين الحق فى أن يمشوا فى الشوارع على الأفرانز أو يخرجوا من منازلهم بعد الساعة التاسعة

مساء الا باذن . وكنت كثيرا ما أخرج بالليل للتريض مع المستر كوتس ، وكنت نادرا ما أعود الى بيتي قبل الساعة العاشرة ، فكان مما يزعجنا ويقلق بالننا فكرة احتمال القبض على بسبب ذلك . نعم ، فماذا يكون الأمر لو قبض على البوليس ؟ بل لقد كان المستر كوتس أشد قلقا على من نفسى . لقد كان يعطى جوازات مرور بعد الساعة التاسعة لخدمه من الزوج ، ولكن أنى له أن يعطينى جوازا بذلك ؟ فالسيد وحده هو الذى يحق له أن يعطى مثل هذا الجواز لخدمه . ولذلك فلو انتى طلبت منه جوازا للمرور ، حتى على افتراض انه كان مستعدا لاعطائه ، لما استطاع أن يفعل ذلك ، لأن الأمر يكون فى هذه الحالة مما يدخل تحت باب الاحتيال .

وهكذا أخذنى المستر كوتس ، أو واحد من أصدقائه ، الى الدكتور كراوس ، نائب عام الولاية ، الذى اتضح لى عندما قابلته أنه ينتمى الى نفس رابطة المحامين بلندن التى أنتمى اليها . وقد أبت عليه نفسه أن يكون مثلى فى حاجة الى تصريح لكى يبقى خارج منزله بعد الساعة التاسعة ، ولذلك فبدلا من أن يصدر أمره بمنحى مثل هذا التصريح أعطانى خطابا يبيح لى البقاء فى الخارج فى أى ساعة من ساعات النهار أو الليل دون تدخل من البوليس ، فكنت أحتفظ بهذا الخطاب معى كلما خرجت . واذا كنت لم أجد نفسى يوما فى حاجة الى استعماله فما ذلك الا وليد الصدفة وحدها .

أما اللائحة الخاصة باستعمال أفاريز الشوارع فقد كانت لى بشأنها تجربة أشد وأنكى . فقد اعتدت كلما خرجت للتريض أن أتجه عبر « شارع الرئيس » ومنه الى سهل مكشوف على أطراف المدينة . وكان بيت الرئيس كروجر يقع فى ذلك الشارع ، وكان بيتا متواضعا الى أقصى حدود التواضع ، ليس فى مبانيه ما يلفت النظر ، وليست له حديقة ، ولا يميزه عن غيره من البيوت فى تلك المنطقة شىء .

ولم يكن هناك ما يدل على أن ذلك البيت هو بيت أحد كبار رجال الدولة غير وجود حارس من رجال البوليس أمامه ، فكنت دائما أسير على الافريز وأمر بالحارس دون عائق أو مانع .

غير أن الحارس كان يتغير من وقت لآخر حسب نوبة الحراسة . وقد حدث في احدى هذه المرات أن انقضى على أحد هؤلاء الحراس وأنا أمر أمامه دون انذار سابق ، وحتى دون أن يطلب مني النزول من فوق الافريز ، فأوسعني ركلا بقدمه وهو يدفعني بعيدا عن الافريز . وتولاني شعور باليأس والحسرة ، ولكنني قبل أن أجد وقتا لسؤاله عن سبب هذا الاعتداء سمعت المستر كوتس يناديني ، وتصادف أن كان يمر بهذا المكان فوق حصانه ، وهو يقول :

« غاندى ! لقد رأيت كل شيء بعيني ، وأنا على أتم استعداد لأن أدلى بشهادتي أمام المحكمة اذا شئت أن تتخذ اجراء قانونيا ضد هذا الرجل . اني أسف أشد الأسف على هذه الاهانة التي لحقتك » .

وقلت له : « لا تحمل هما ! فماذا يعرف هذا المسكين ؟ ان جميع الملونين واحد في نظره . انه لا شك يعامل الزوج كما عاملني بالضبط ، وقد وضعت لنفسى قاعدة هي ألا ألبأ الى القضاء فى أى اعتداء يقع على شخصى ولذا فانى لا أعتزم اتخاذ أى اجراء قبله » .

وقال المستر كوتس : « هكذا أنت دائما . أرجوك أن تفكر فى الأمر مرة أخرى فان من واجبنا أن نلقن مثل هذا الرجل درساً لا ينساه » . ثم اتجه الى الحارس يؤنبه على فعلته . ولم أستطع أن أتتبع حديثهما فقد كان يجرى بينهما باللغة الهولندية بالنظر الى أن الحارس كان من البوير ، ولكنه اعتذر عقب الحديث عما فعل ، وما كانت به فى الواقع حاجة الى الاعتذار فقد كنت عفوت عنه .

ولكنى لم أعاود السير في هذا الشارع مرة أخرى بعد ذلك ،
فقد يكون هناك غيره من رجال البوليس فى نوبة من نوبات حراستهم
ممن لم يسمعوأ بما حدث فيفعلوا ما فعل . فلماذا اذن أجلب علي
نفسى اعتداء آخر فى غير موجب ؟ ومن ثم فقد اخترت لنفسى طريقا
آخر .

وتبينت من كل هذا أن جنوب أفريقية ليس المكان الذى يليق
بهندى يحترم نفسه ، وأخذت فكرة اصلاح هذه الحالة ووسيلة هذا
الاصلاح تشغلنى شيئا فشيئا . ولكن المسألة العاجلة التى كانت
تتطلب كل جهدى وعنايتى فى ذلك الوقت كانت قضية الأب
عبد الله .

٢٩ - القضية

بان لى من دراسة وقائع قضية عبد الله أن الحق كان فى جانبه، وأن القانون لابد منتصف له . ولكنى رأيت فى الوقت نفسه أن التقاضى أمام المحكمة ، لو سار فى طريقه ، لا بد أن ينتهى بخراب الطرفين : المدعى والمدعى عليه ، وكلاهما قريب الآخر ومن نفس المدينة . وما كان أحد فوق ذلك يستطيع أن يتنبأ بالمدة التى قد يستغرقها نظر القضية . وفكرت : أأترك القضية تسير فى مجراها الى أن يبت فيها أمام القضاء ، وقد تظل فى هذه الحالة الى ما لانهاية، دون أن يكون فى ذلك مصلحة لأحد الطرفين ؟ ان كلا الطرفين كان على العكس حريصا على الانتهاء منها على الفور ما أمكن .

واتصلت بطيب شييت ورجوته أن يقبل التحكيم فيها ، واقترحت عليه أنه لو أمكن تعيين حكم يتمتع بثقة الطرفين فإن القضية لا بد أن تنتهى فى وقت قصير . لقد كانت أتعاب المحامين تتزايد وتتراكم بسرعة حتى كان من الممكن أن تبتلع مواردهما على سعة هذه الموارد ، وهما التاجران الكبيران . أضف الى ذلك أن شئون هذه القضية قد شغلت عليهما بالهما فلم تدع لهما وقتا يفكران فيه فى شئون تجارتيهما ، فضلا عن أن بقاء القضية معلقة كان كقبلا بأن يزيد لهيب الحقد والكراهية بينهما .

وتملكنى التفكير بهذا الأسلوب حتى رأيتنى أشمئز من مهنتى . أليس على المحامى عن أى الطرفين أن يفرغ فى أعماق القضية ليستجمع جميع النقاط القانونية التى تؤيده فى دفاعه عن موكله ؟

وقد بدا لي كذلك ، للمرة الاولى ، أن الطرف الذي يكسب القضية لا يستعيد جميع نفقاته التي أنفقها . فالمحاكم عندما تقضى في قضية بين طرفين تقدر أتعاب المحاماة وفق فئات معينة تحددها لوائحها ، على حين أن المصروفات التي يتكبدها كل منهما بينه وبين محاميه أكثر من ذلك بكثير .

شعرت وقتها بأن ذلك كان أكثر مما يحتمل ضميري ، وأن واجبي يقتضيني مصادقة كلا الطرفين والعمل على التقريب بينهما . وحاولت كل جهدي أن أصل الى اتفاق يرضى الطرفين . ووافق طيب شيت ، وتم الاتفاق على تعيين حكم عدل بينهما استطاع بعد استعراض وقائع الخلاف ومناقشة وجهة نظر كل من الطرفين أن يقضى فيها ، وجاء قضاؤه في مصلحة عبد الله .

ولكني لم أفتح بذلك . فلو أن موكلى أراد تنفيذ الحكم الذي قضى له به على الفور لاستحال على طيب شيت أن يدبر المبلغ المطلوب كله دفعة واحدة . ومن القوانين غير المكتوبة بين مسلمي بورباندر المقيمين في جنوب أفريقية أنه خير للمرء أن يموت على أن يوصم بالافلاس . ولما كان من المستحيل على طيب شيت أن يدفع المبلغ الذي حكم به عليه وقدره ٣٧٠٠٠ من الجنيهات ، عدا المصاريف ، على الفور ، وقد أبت عليه كرامته أن ينقص من هذا المبلغ درهما ، وكان في الوقت نفسه لا يريد أن يعلن افلاسه ، فلم يبق أمامه الا طريق واحد ينقذه من هذه الورطة ، وهو أن يقبل عبد الله أن يكون الدفع على أقساط معقولة ، فكان عبد الله كريما فيما طلبه منه طيب شيت وقبل أن يقسط المبلغ على أجل طويل .

وكانت مهمتي في الحصول على مبدأ التقسيط أشق من مهمتي في حمل الطرفين على الموافقة على مبدأ التحكيم ، وان كان كلا الطرفين

قد فرح بهذه التسوية في آخر الامر وارتفع قدره في أعين الناس .
أما فرحى أنا فلم يكن له حد ، فلقد تعلمت منذ ذلك الوقت فن
المحاماة على وجهها الصحيح . تعلمت أن ألتمس في الناس الجانب
الطيب من طبيعتهم البشرية ، وأن أشق طريقى الى قلوبهم ، وأدركت
أن واجب المحامى ، كما يجب أن يكون ، هو الجمع بين طرفين فرقت
بينهما الخصومة . وانطبع هذا الدرس فى أعماق قلبى حتى أصبحت
أكرس معظم وقتى بعد ذلك ، خلال السنوات العشرين التى زاولت
فيها مهنة المحاماة ، وفى مئات من القضايا ، لكى أصل الى التقاء
الطرفين المتخاصمين عند حل وسط بعيدا عن ساحة القضاء .

ولم أخسر من جراء ذلك شيئا . حتى المال لم أخسره . أما
روحى فانى واثق من أننى احتفظت بها مبرأة من كل رجس أو دنس .

٣٠ - الانسان في التفكير والله في التدبير

أما وقد انتهت القضية الآن فلم يعد ما يستوجب بقائي في بريتوريا ، ومن ثم فقد عدت الى دربان وأخذت أعد العدة للعودة الى الهند . ولكن عبد الله شيت لم يكن بالرجل الذي يدعى أسافر دون تكريم فأقام حفلا لوداعي في مدينة سيدنهام .

وكانت الخطة الموضوعة تقضى بأن أمضى النهار كله في تلك المدينة . وبينما أنا هناك أقلب صفحات بعض الجرائد وقع بصرى بطريق المصادفة البحتة على فقرة في ركن من أركان صفحاتها تحت عنوان « حق التصويت للهنود » . كان الخبر يشير الى مشروع القانون المعروض يومئذ على المجلس التشريعي ، وينص على حرمان الهنود من حق التصويت في انتخابات مجلس ناتال التشريعي . لقد كنت أجهل أمر هذا القانون من قبل وكذلك كان جميع الضيوف المجتمعين في سيدنهام .

وسألت عبد الله شيت في ذلك فكان جوابه : « وما قدر فهمنا في مثل هذه الأمور ؟ اننا لا نفهم من الأمور الا ما كان له صلة بأعمالنا التجارية » . ولما كنت على وشك العودة الى بلادي فقد ترددت في ذكر ما كان يساورني في تلك اللحظة من المخاوف بشأن هذا القانون المقترح ، واكتفيت بأن أقول لعبد الله : « ان مشروع القانون هذا لو قدر له أن يصير قانونا فسيجعل حظنا في الحياة عسيرا لا يحتمل . انه أول مسمار يثق في نعشنا . انه يهدم احترامنا الذاتي من أساسه » .

وكان بعض الضيوف ينصتون الى حديثنا باهتمام ، فقال
أحدهم : « هل أدلك على ما يجب أن تفعله ؟ أن تلغى سفرك على هذه
السفينة وأن تمكث بيننا شهرا آخر نجاهد فيه وفق الخطة التي تشير
بها علينا ، وانضم اليه جميع الحاضرين في هذا الرأي .

ورسمت في عقلي صورة عامة للحملة التي يجب شنها في هذه
المسألة ، وبعد أن استوثقت ممن كانت أسماؤهم واردة في كشوف
الانتخاب قررت أن أبقى شهرا آخر .

وهكذا حدد الله لي اتجاه حياتي في جنوب أفريقية وغرس في
قلبي بذور الكفاح من أجل الكرامة والوطنية .

كان أول شيء فعلناه أن بعثنا ببرقية الى رئيس المجلس التشريعي
نرجوه ارجاء بحث مشروع القانون المشار اليه ، وبرقية مماثلة لها
الى رئيس الوزراء .

وانتهينا بعد ذلك من تدبير الالتماس الذي اعتزمنا رفعه الى
المجلس التشريعي بعد أن بذلت جهدا كبيرا في اعداده وقرأت في
سبيل ذلك كل ما استطعت أن أصل اليه من الموسوعات التي تعالج
هذا الموضوع . وذبل الالتماس بعد كتابته بعشرة آلاف توقيع تم
الحصول عليها في أسبوعين اثنين . ولم يكن الحصول على هذا العدد
الضخم من التوقيعات ، من جميع أرجاء الولاية ، بالأمر الهين ،
ولا سيما اذا ذكرنا أن أصحابها كانوا حديثي عهد بهذا النوع من
الكفاح ، فكان علينا من أجل ذلك أن نختار متطوعين ممن تتوافر فيهم
الكفاية لجمع هذه التوقيعات ، فقد كان من المتفق عليه ألا يوقع أحد
على الالتماس الا اذا فهم فحواه . زد على ذلك أن أهل القرى كانوا
مبعثرين في مسافات بعيدة مترامية ، فلم يكن في الامكان الحصول

على تلك التوقيعات بالسرعة الواجبة الا اذا تولاه نفر من المتطوعين
المتحمسين الذين يضعون كل قلبهم فى هذا العمل . وهو ما فعله من
اضطلعوا بهذه المهمة .

ورفع الالتماس الى المجلس بعد ذلك ، كما طبعت منه ألف
نسخة أخرى للتوزيع ، كان من اثرها اطلاق رأى العام الهندى للمرة
الأولى على حقيقة الأحوال فى ناتال ، كما أرسلت صور منها الى أمهات
الجرائد التى أعرفها والى جميع المشتغلين بأمر الاعلان والدعاية .

وكتبت جريدة « تايمس أوف انديا » مقالا افتتاحيا أيدت فيه
مطالب الهنود . كما كتبت جريدة « التايمس » اللندنية تؤازرها .
وهكذا بدأ يراودنا الأمل بأن يكون مصير مشروع القانون المذكور الى
الرفض .

ولم يعد فى استطاعتى بعد ذلك أن أغادر ناتال ، فقد أحاط بى
أصدقاى الهنود من كل جانب وألحوا على فى البقاء بينهم بصفة
دائمة . وهكذا استقر بى المقام فى ناتال .

٣١ - المؤتمر الهندي بناتال

لم يكن ارسال الالتماس بشأن حرمان الهنود من حق التصويت الى المجلس التشريعي كافيا وحده ، بل كان لا بد من أن نتبع ذلك بحركة دائبة يكون لوقعتها صدى لدى وزير المستعمرات البريطاني . وقد رؤى لهذا الغرض انشاء منظمة دائمة . واستشرت في ذلك الوجهه عبد الله وغيره من الاصدقاء وانفق رأينا جميعا على تأليف هيئة عامة يكون لها طابع الدوام . وهكذا ظهر المؤتمر الهندي بناتال الى الوجود في اليوم الثاني والعشرين من شهر مايو .

وعلى الرغم من أن عضوية المؤتمر كانت تشمل من بين من تشملهم الهنود المولودين في تلك المستعمرات ، وتشمل طبقة الكتاب كذلك ، فان العمال غير الفنيين ، أولئك الذين كان يؤتى بهم من الهند للعمل في جنوب أفريقية لمدد معينة بمقتضى عقود ملزمة ، قد ظلوا بعيدين عنه . ذلك أن المؤتمر لم يكن مؤتمرههم بعد ، فقد كانت وسائلهم المادية أضعف من أن تمكنهم من دفع رسوم الاشتراك التي يقتضيها الانضمام الى عضويته . وما كان المؤتمر ليستطيع أن يجتذبهم إليه ، ويحملهم على الانضمام الى عضويته ، الا عن طريق خدمة يؤديها لهم . وسرعان ما سنحت الفرصة المواثية لأداء تلك الخدمة . فلم أكد ممارس الحمامة في ناتال ثلاثة أو أربعة أشهر ، ولم يكد المؤتمر يحبو خلال الشهور الأولى من طفولته ، حتى جاءنا رجل تامبلي ، أغبر الوجه ، ممزق الملبس ، يحمل قلنسوته في يده ، وقد انكسرت سنتان من أسنانه الأمامية وأخذ الدم ينزف من فمه . جاءنا يرتعد ويبيكي بعد أن ضربه سيده ضربا مبرحا حتى أدماه . وقد عرفت كل شيء عن هذا

الزائر المسكين من كاتبي وهو تاميلي مثله • فقد كان بالاسوندرام - وهذا هو اسم البائس المسكين - يقضى مدة العمل التى يفرضها عليه عقد العمل فى خدمة أحد الأورويين المعروفين من المقيمين فى دربان • وقد غضب عليه سيده يوما وفقد رشده فأوغل فى ضربه حتى كسر سنتيه •

وبعثت به على الفور الى طبيب يفحصه ويضمده جراحه ، ولم يكن هناك فى تلك الأيام من الأطباء الا الأطباء البيض • وكنت فى الواقع أريد شهادة طبية من الطبيب عن نوع الإصابة التى لحقته ومداها • وحصلت على الشهادة المطلوبة وذهبت بها من فورى الى قاضى الأمور الجزئية ومعى المصاب وقدمت له بلاغا بما حدث ، فلما قرأه القاضى استشاط غضبا وأرسل فى طلب المخدم •

كان القصاص من المخدم على فعلته أبعد ما يكون عن رغبتى ، فقد كان كل ما يعينى أن أعفى بالاسوندرام من العمل فى خدمته ، اذ كنت قد اطلعت على القانون الخاص بالعمل التعاقدى فوجدته ينص على أن الخادم العادى اذا ترك خدمة سيده دون انذار سابق كان عرضة لأن يقاضيه سيده أمام المحكمة المدنية • أما الخادم الذى يعمل فى ظل النظام التعاقدى فله شأن آخر ، فهو يتعرض فى تلك الحالة الى المحاكمة أمام محكمة الجنايات ، وقد ينتهى به الأمر الى السجن اذا ثبتت ادانته • ولعل هذا ما حدا بالسير ولیم هنتر الى وصف نظام العمل التعاقدى بأنه نظام يكاد يصل فى مساوئه الى مرتبة الرق ، فالعامل الذى يعمل فى حدود هذا النظام ، شأنه فى ذلك شأن الرقيق تماما ، هو ملك لسيده •

ولم يكن أمام بالاسوندرام سوى طريقين اثنين لكى يعفى من خدمة سيده الذى اعتدى عليه ، فاما الحصول على موافقة راعى العمال

المتعاقدين ، على الغاء عقده أو تحويل هذا العقد لمصلحة مخدوم آخر ،
واما حمل مخدومه على اطلاق سراحه . ومن ثم فقد ذهبت الى
مخدومه وقلت له : « اننى لا أريد أن أسير فى اجراءاتى القانونية
ضدك بغية القصاص منك ، ولا أخالك الا مدركا أنك قد ضربت هذا
الرجل ضربا مبرحا ، ويكفينى أن تحول عقد خدمته الى شخص آخر
غيرك » ، فوافق على هذا العرض فى غير تردد . ثم قابلت راعى العمال
فوافق كذلك ، على شريطة أن أجد له مخدوما آخر غيره .

وهكذا أصبح لزاما على أن أجد مخدوما لبالاسوندرام غير
مخدومه الاوّل . وانطلقت أبحث عن هذا المخدوم الجديد . وكان لا بد
أن يكون من الأوروبيين ، فما كان يحق للهنود أن يستخدموا عمالا
تعاقديين . ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت من الأوروبيين الا عددا
محدودا . وقد قابلت أحدهم فأظهر استعدادا كريما وقبل أن يلحقه
بخدمته . أما مخدومه الاوّل فقد أدانته المحكمة واكتفت بتسجيل
موافقته على نقل عقد العمل الى شخص آخر .

ووصل حادث بالاسوندرام الى آذان كل هندی من العمال الذين
يعملون تحت نير هذا النظام فشرعوا ينظرون الى على أنتى صديقهم
المخلص ، ورحبت بهذه الصلة أيضا ترحيب ، وأخذت أفواجهم تتدفق
على مكنتى من كل حذب وصوب ، مما أتاح لى فرصة أتعرف فيها على
آلامهم وآمالهم ، على مسراتهم وماآسيهم .

٣٢ - ضريبة الجنيهات الثلاثة

في حوالى سنة ١٨٦٠ ، أحس الأوروبيون ، بعد أن تبين لهم وجود فرص كبيرة أمامهم لزراعة قصب السكر ، بافتقارهم الى الأيدي العاملة ، وبأن زراعة قصب السكر وصناعته لن تتأبيا الا بالاستعانة بعمال من الخارج ، اذ كان الزولو من أهل ناتال لا يصلحون لمثل هذا العمل . ومن ثم فقد اتصلت حكومة ناتال بحكومة الهند واستطاعت أن تظفر منها بتصريح يخول لها جلب العمال اللازمين ، فكان على هؤلاء العمال أن يوقعوا تعهدا بالعمل فى ناتال خمس سنوات يكون لهم بعدها حق الاستقرار فيها والتمتع بحقوق ملكية الارض . هذه هى سبيل الاغراء التى كانت تقدم لهؤلاء العمال لتشجيعهم على الهجرة .

على أن الهنود قد أعطوا ناتال أكثر مما كان يطلب منهم ، فقد ضاعفوا من زراعة الخضر فيها ، كما أدخلوا أنواعا جديدة منها مما يزرع فى الهند ، واستطاعوا فوق ذلك انتاج الأنواع الوطنية منها بتكاليف أقل ، كذلك كان لهم الفضل فى ادخال زراعة المانجو فى ناتال . ولم تقف جهودهم عند حد الزراعة . فقد ولجوا كذلك أبواب التجارة واشتروا الأرض لاقامة المباني عليها . وهكذا ارتقوا بأنفسهم من مرتبة الاجراء الى مرتبة الملاك من أصحاب البيوت والاراضى . وتبع هذا الرعيلى الأول تجار آخرون جاءوا من الهند بعد ذلك واستقروا فى جنوب أفريقية بقصد الاتجار . وكان المغفور له الوجيه أبو بكر آمود فى طليعة هؤلاء فنجح فى تكوين أعمال تجارية واسعة النطاق .

وانزعج التجار البيض لذلك . فهم حين رحبوا بالعمال الهنود فى أول الأمر لم يكن يدور بخلداهم أن تكون لهم هذه القدرة على ادارة

الأعمال التجارية • وقد يكون من السهل احتمالهم كمزارعين يشتغلون لحساب أنفسهم • أما أن ينافسوا البيض في مجال التجارة ، فهو ما لا يمكن التفاوض عنه •

ومن هنا بدأت بذور الكراهية للهنود والحدق عليهم تنمو وتترعرع ، وساعد على نموها عوامل أخرى مختلفة • فقد وجدت هذه الكراهية متنفسا لها في التشريعات التي تهدف الى مضايقة الهنود وعرقلة جهودهم ، منها مشروع القانون بحرمان الهنود من حق التصويت ، ومشروع القانون الآخر الذي ينص على فرض ضريبة على العمال الهنود الذين يعملون تحت نير نظام العقود • وهناك غير هذا وذاك نواح أخرى لا تتصل بالتشريع ، ولكنها كانت أشبه بوخز الإبر ، ساعدت بدورها على تسميم الجو •

فقد اقترح أولا ترحيل العمال الهنود بالقوة الى الهند قبل أن يحل أجل انتهاء عقود العمل التي يرتبطون بها • ولما كان من غير المحتمل أن توافق حكومة الهند على هذا الاقتراح ، فقد اقترح إجراء آخر هذا مضمونه :

١ - أن يعود العامل الهندي الى بلاده على الفور بمجرد انتهاء مدة عقده أو

٢ - أن يوقع العامل الهندي عقدا جديدا كل سنتين ، على أن تعطى له علاوة في كل حالة من حالات التجديد •

٣ - اذا رفض العامل العودة الى الهند ، أو أبى تجديد عقد عمله ، فعليه أن يدفع ضريبة قدرها ٢٥ جنيها في السنة •

وأوفد السير هنرى بينز والمستر ميسون في وفد الى الهند ليحاولوا الحصول على موافقة حكومتها على هذا الاقتراح • وكان نائب

الملك في الهند في ذلك الوقت هو اللورد الجين فاعترض على أن تكون الضريبة ٢٥ جنيها ووافق بدلا من ذلك على ضريبة على الرسوم قدرها ثلاثة جنيهات في السنة . واعتقدت وقتها ، ولا زلت أعتقد ، أن هذا العمل من جانب نائب الملك ينطوي على خطأ جسيم ، فان جباية ضريبة سنوية تصل الى ١٢ جنيها من عائلة قوامها أربعة أشخاص – رجل وزوجته وطفلاهما – بينما متوسط دخل الزوج لا يزيد في جميع الحالات على ١٤ شلنا في الاسبوع ، كان عملا ظالما ، لا عهد للناس به في أى مكان آخر في العالم .

وأصبح لزاما علينا بعد ذلك ، أن ننظم حملة عنيفة لمقاومة تلك الضريبة . وما لا شك فيه أن جماعة الهنود لو أنها لانت قناتها وتقاعست عن جهادها ، أو لو أن المؤتمر تخلى عن جهوده في هذا السبيل وقبل هذه الضريبة على أنها مسألة لا حيلة له فيها ، لظلت هذه الضريبة الكريهة تجبى من الأجراء الهنود الى يومنا هذا ، مع كل ما ينطوي عليه ذلك من معرة للهنود جميعا في جنوب أفريقية وفي الهند على السواء .

وكنت في ذلك الوقت قد قضيت ثلاث سنوات في جنوب افريقية عرفت خلالها الناس وعرفوني . وفي سنة ١٨٩٦ استأذنت زملائي في السفر الى الهند لمدة ستة أشهر أعود بعدها اليهم ، بعد أن تبينت أن الظروف تقضى على بالاقامة في جنوب أفريقية اقامة طويلة ، فقد كان لي فيه مكتب ناجح ، وكنت فوق ذلك أدرك أن الهنود المقيمين به كانوا يشعرون بحاجتهم الى وجودي بينهم . ومن ثم فقد قررت أن أرجع الى الهند ثم أعود ومعى زوجتى وأطفال .

٣٣ - في الهند مرة أخرى

ذهبت الى راجكوت عقب وصولي الى الهند دون أن أتوقف في بمبائى ، وعكفت على الفور على وضع كتيب عن الموقف في جنوب أفريقية ، استغرقت كتابته وطبعه قرابة شهر . وكان لهذا الكتيب غلاف أخضر ، ومن ثم فقد صار يعرف باسم « الكتيب الأخضر » . وقد تعمدت فيه أن أرسم صورة مضغوطة عن أحوال الهنود في جنوب أفريقية . وطبع من هذا الكتاب عشرة آلاف نسخة أرسل بعضها الى مختلف الصحف وزعماء الأحزاب السياسية المختلفة في الهند ، فكانت جريدة « البيونير » (الطليعة) أول جريدة تعلق على ما جاء فيه في مقال افتتاحي لها ، أبرقت وكالة أنباء رويتر ملخصا له الى انجلترا ، ثم أبرق مكتب رويتر في لندن ملخصا لهذا الملخص الى ناتال لم يزد طوله على ثلاثة أسطر . وكان هذا الملخص صورة مصغرة ، وان كانت صورة مبالغ فيها ، للصورة التي كنت رسمتها في كتيبى عن المعاملة التي يلقاها الهنود في ناتال ، صورة صيغت في عبارة غير عبارتى . وسنرى فيما بعد ما كان لذلك من وقع فى ناتال . وفى الوقت نفسه أخذت كل جريدة من الجرائد التي يعتد بها تعلق فى اسهاب على هذا الموضوع .

ولم تكن مهمة ارسال نسخ من هذا الكتيب بالمهمة اليسيرة ، بل كان من الجائز الى جانب ذلك أن تكون عملية كثيرة التكاليف باهظة النفقات لو أنني استعنت فى أدائها بمعاونين مأجورين يتولون عملية التغليف وما اليها من النواحي الضرورية الأخرى ، ولولا أنني اهتديت الى خطة تتسم بالبساطة بقدر ما كانت تمتاز بقلّة المصروفات . ذلك

أننى جمعت أطفال الحى الذى أعيش فيه ، وطلبت اليهم أن يتطوعوا لمعاونتى ساعتين فى صباح يوم من الأيام حتى لا يكون عليهم أن يذهبوا الى المدرسة . وقبل الأطفال ذلك عن طيب خاطر ووعدهم فى نظير ذلك بأن أباركهم وبأن أعطيهم على سبيل المكافأة بعض طوابع البريد المستعملة التى كنت قد جمعت منها مجموعة كبيرة . وأتم الأطفال عملهم فى أسرع ما يمكن ، فكانت هذه أول تجربة لى فى استخدام الأطفال كمتطوعين ، وما زال اثنان من هؤلاء الأصدقاء الصغار يعملون معى الى هذا اليوم .

واذ كنت فى راجكوت أعمل على اعداد هذا الكتيب ، سنحت لى فرصة لزيارة بومباى زيارة خاطفة ، فلم أتردد فى الافادة منها ، فقد كان فى نيتى أن أعد الرأى العام فى المدن الهندية الكبرى وأستدر عطفه على الهنود فى جنوب أفريقية عن طريق اجتماعات عامة تعقد لهذا الغرض . فلما كنت فى بومباى بدأت أولا بمقابلة رانادى القاضى بمحكمة الاستئناف فاستمع الى باهتمام كبير ثم أشار على بمقابلة السير فيروز شاه ميهتا(❖) فلما قابلته فى نهاية الامر كانت تطغى على نفسى الهيبة من لقائه ، فقد كنت سمعت عن الألقاب الشعبية التى أضفتها عليه الجماهير وكنت أدرك أننى مقبل على المثول أمام « أسد بومباى » و « ملك الولاية غير المتوج » . ولكن لا « الأسد » ولا « الملك » أخافنى ، فقد لقينى كما يلقي الأب الكريم ابنه الكبير ، وأنصت الى وأنا أتحدث اليه ، ثم التفت الى وهو يقول : « غاندى : انى أعتقد أن من واجبى أن أساعدك ولا بد لى من الدعوة الى اجتماع عام فى المدينة » .

(❖) أحد كبار رجال الأعمال فى بومباى وكان على صلة وثيقة بمؤتمر الهند الوطنى ، بل كان له ضلع فى تكييف سياسته وتوجيهها وكان من السياسيين المعتدلين .

بهذه الكلمات اتجه السير فيروز شاه الى سكرتيره ، السيد
منشى ، وطلب اليه تحديد موعد لهذا الاجتماع ، وحدد الموعد بالفعل ،
ثم استودعنى الله وهو يحيينى أطيب تحية .

وعقد الاجتماع فى قاعة معهد السير كواس جى جيهانجر . وكنت
قد سمعت أن هذا المكان على سعته يقص بالحاضرين حتى لا يبقى
مكان لقدم ، كلما كان المتحدث هو السير فيروز شاه ، ولا سيما من
الطلبة المتشوقين الى سماعه ، فكان هذا الاجتماع أول تجربة لى من
نوعها . وقد أعجب السير فيروز شاه بخطابى الذى ألقيته فيه مما
أسعدنى حقا .

وقد يسر السير فيروز شاه بذلك مهمتى فى الأيام المقبلة وفتح
الطريق أمامى فى الجهات الأخرى التى ذهبت إليها .

وذهبت من بومباى الى بونا . كان فيها حزبان ، ولكنى آثرت
أن أظفر بمعاونة الناس جميعا على اختلاف ميولهم وآرائهم . وقد
ذهبت أولا لمقابلة لوكامانيا تيلاك (**) فقال لى :

« انك على حق فى التماس المعاونة من جميع الأحزاب ، فلن
يختلف الرأى فى موضوع جنوب افريقية ، ولكن الواجب يقضى كذلك
بأن يرأس الاجتماع رجل غير حزبي . ويجدر بك من أجل ذلك أن
تقابل الاستاذ بهاندركار ، فقد ظل بمنأى عن جميع الحركات العامة
فى المدة الأخيرة ، وقد يكون فى موضوعك ما يخرجك من عزلته .
قابله ثم دعنى أعرف ما يقوله لك ! اننى أريد معاونتك الى أقصى حد ،
وبالطبع فى استطاعتك مقابلتى فى أى وقت تشاء فأنا تحت تصرفك» .

(**) سياسى متطرف عمل على اثاره الروح الوطنية فى صفوف
العامة .

ثم قابلت جو كهاال (**) بعد ذلك فاستقبلني استقبالا حافلا وأسر
قلبي منذ اللحظة الأولى بأسلوبه وحديثه . كان هذا أول لقاء بيننا ،
ومع ذلك ، فقد خيل الى وهو يحدثني أننا انما نستعيد صداقة قديمة
كانت بيننا . لقد بدا السير فيروز شاه أمامي كالهيمالايا . أما
لوكامانيا فقد كان أشبه بالمحيط . وأما جو كهاال فكان كنهر الكنج .
ففي هذا النهر المقدس يستطيع المرء أن يغتسل فتنتعش روحه . أما
جبال الهيمالايا فهي تستعص على كل من يريد أن يرتقيها . وأما
المحيط فليس من السهل على المرء أن يعبره .

لقد أخذ جو كهاال ، عندما التقينا ، يتفحصني عن كثب كما
يتفحص المعلم تلميذا يريد أن يلتحق بالمدرسة ، فجعل يحدثني عن
يجب على أن أتصل به ، وكيف أتصل به ، وطلب أن يطلع على خطابي
الذي أعدته ، وتجول بي في أنحاء الكلية ، ثم أكد لي أنه يضع نفسه
تحت تصرفي ورجاني أن أطلعه على نتيجة مقابلتى للدكتور بهاندركار ،
وودعني وأنا أسعد ما أكون .

واستقبلني الدكتور بهاندركار استقبال الأب لابنه . لقد كان
الوقت ظهرا عندما ذهبت لمقابته فأعجب هذا العالم الكبير ، الذي
لا يعرف الكلل الى نفسه سييلا ، أن يراني وقد انهمكت في عمل الى
حد مقابلة الناس في تلك الساعة من النهار ، كما كان لاصراى على
ألا يرأس الاجتماع الا رجل غير حزبي صداه في نفسه فاستجاب الى
رجائي على الفور .

(**) هو مؤسس « جماعة خدام الهند » وهو سياسى معتدل ،
ووطنى غيور؛ وكان شديد الحذب على الفقراء .

وهكذا استطاع هذا الفريق من الرجال من أهل بونا ، أولئك الذين تنزهوا عن كل أنانية ، أن يعقدوا اجتماعا عاما في مكان متواضع في غير جلبة أو ضوضاء ، حتى تركتهم وأنا أكثر ايمانا بمهمتي .

وانتقلت بعد ذلك الى مدراس فوجدتها شعلة من الحماس ، اذ كان لحادث بالاسوندرام صدها فيها . ومع أن خطابي الذي ألقيته فيها كان في نظري طويلا بعض الطول ، فقد أنصتت الجماهير المحتشدة باهتمام الى كل كلمة من كلماته ، وما كاد ينتهي الاجتماع حتى تهافت الناس على اقتناء نسخ من الكتيب الأخضر ، وكنت قد طبعت منه عشرة آلاف نسخة أخرى ، فيبيع منها عدد كبير .

ومن مدراس ذهبت الى كلكتا ، وبينما أنا هناك وصلتني برقية من دربان تقول : « سيفتتح البرلمان في يناير ، عد سريعا ! » .

وكان دادا عبد الله قد فرغ في ذلك الوقت من شراء الباخرة « كورلاند » فأصر على أن أسافر عليها أنا وعائلتي دون أن يتقاضى على ذلك أجرا . وقيلت شاكرا ، ثم أبحرت في شهر ديسمبر في طريقى الى جنوب افريقية للمرة الثانية ، ولكنى في هذه المرة كنت أصطحب معى زوجتى وولدى والابن الوحيد لاختى المترملة . وقد سافرت معنا في نفس الوقت سفينة أخرى اسمها « ناديرى » كان وكلاؤها هم دادا عبد الله وشركاؤه كذلك . ولا بد أن عدد الركاب الذين حملتهم السفينتان كان يصل الى نحو ثمانمائة راكب ، نصفهم كانوا في طريقهم الى الترנסفال .

٣٤ - وصول عاصف الى جنوب افريقية

أَلقت الباخرتان مراسيهما في ميناء دربان في يوم ١٨ ديسمبر ، أو حوالي ذلك التاريخ . وكان النظام في موانئ جنوب افريقية يقضى بالألا يسمح لأحد من الركاب بالنزول من السفينة الا بعد أن يفحص فحصا طبيا دقيقا ، فاذا تبين أن أحدا من ركبها مصاب بمرض من الأمراض المعدية ، احتجزت السفينة كلها في الحجر الصحي فترة من الوقت . ولما كان مرض الطاعون متفشيا في بومباي عندما أبحرنا ، فقد خشينا أن نتعرض لفترة قصيرة من الحجر الصحي . وبالفعل جاء الطبيب الى الباخرة ليفحص ركبها ثم أمر بوضعنا تحت الحجر لمدة خمسة أيام ، اذ كان من رأيه أن ميكروب الطاعون يبقى ثلاثة وعشرين يوما ، على أكثر تقدير ، قبل أن تظهر أعراضه . وهكذا صدر الأمر الى باخرتنا بالبقاء في الحجر الصحي حتى اليوم الثالث والعشرين من يوم ابحارنا من بومباي . على أن هذا الأمر كان يخفى وراءه ما هو أكثر من الأسباب الصحية .

فقد كان السكان البيض في دربان هائجين مائجين في ذلك الوقت يطالبون باعادتنا الى الهند ، فكان هياجهم هذا أحد أسباب هذا الأمر . كانوا يعقدون الاجتماعات الحاشدة فيتهددون ويتوعدون ، بل لقد لجأوا الى محاولة استعمال سبيل الاغراء مع شركة عبد الله وشركائه ، فعرضوا عليهم تعويض الشركة عن كل ما قد يصيبها من ضرر اذا عادت السفينتان بنا الى الهند . ولكن رجال الشركة لم يكونوا بالرجال الذين يخشون وعيدا ، أو يثنيهم اغراء . فقد صمم الوجيه عبد الكريم حاج آدم ، وكان في ذلك

الوقت الشريك الذى يشرف على ادارة الشركة ، على ارساء السفينتين
عند رصيف الميناء لينزل منهما الركاب مهما كلفه الأمر •

لقد تحولت دربان فى تلك الأيام الى مسرح لمبارزة عنيفة ، كان
طرفاها غير متساويين ، فكان فى ناحية منه نفر من الهنود الذين
لا حول لهم ولا قوة يساندهم عدد محدود من أصدقائهم الانجليز ،
بينما اصطف فى الناحية الأخرى منه جميع البيض ، أقوياء بكثرتهم ،
أشداء بأسلحتهم وبشرواتهم وبحظهم من التعليم ، تظاهروا بالحكومة
فى موقفهم ، وتشد من أزرهم • نعم فلقد كانت حكومة ناتال تساعد
البيض علنا ، بل لقد كان المستر هارى اسكومب ، وهو أشد أعضاء
الوزارة فى ناتال بأسا وأقواهم نفوذا فى ذلك الوقت ، يشترك معهم
فى اجتماعاتهم التى كانوا يعقدونها •

وبينا مسرح الحوادث فى دربان يعج بحركة لا تنقطع كنا فى
سفينتنا ننظم الألعاب بغية تسلية الركاب • على أننى فى الوقت
الذى كنت أشارك فيه فى هذه التسلية كان عقلى مشغولا بما يجرى
فى دربان ، فقد كنت أدرك أننى الهدف المقصود من كل هذه الحركة ،
وأعلم أننى متهم بتهمتين : الأولى أننى ، وأنا فى الهند ، أطلقت لنفسى
العنان للحط من شأن سكان ناتال البيض ، والثانية أننى ، رغبة
منى فى اغراق ناتال بالهنود ، قد تعمدت أن أصطحب معى ملء
سفينتين منهم ليستقروا فيها •

وفى الحق اننى كنت أشعر فى ذلك الوقت بما فى عنقى من
مسئولية • كنت أدرك أن المشرفين على شركة دادا عبد الله وشركائه
قد خاطروا بأنفسهم وبشركتهم من أجل ، وأن حياة الركاب كانت فى
خطر ، وبأننى قد عرضت عائلتى للتهلكة باحضارها معى •

ولكننى كنت أعلم من ناحية أخرى أننى برىء من كل ما نسب
الىّ، فأنا لم أحمل أحدا على المجيء الى ناتال، بل لم أكن أعرف
الركاب عندما استقلوا السفينة، وإذا استثنينا قريبتين اثنتين من
أقاربي، كنت لا أعرف اسم واحد من المئات الذين جاءوا على ظهر
السفينة أو أعرف عنوانه. زد على ذلك أننى لم تصدر منى وأنا فى
الهند كلمة واحدة ضد البيض فى ناتال لم أكن قلتها فى ناتال نفسها
من قبل، بل كان عندى من الأدلة ما يكفى لتعزير كل كلمة قلتها .
وطالت بنا الأيام بما تباطأت ونحن على ظهر السفينة .

وأخيرا سمح للسفينتين بدخول الميناء بعد انقضاء الأيام الثلاثة
والعشرين المقررة، وصدر الاذن للركاب بالنزول الى أرصفة الميناء .
غير أن المستر اسكومب كان قد أرسل الى قائد السفينة يخطره
أنه بالنظر الى ما كان عليه السكان البيض من ثورة عارمة ضدى،
وبالنظر الى ما قد يتهدد حياتى من جراء ذلك، فقد يكون من الخير
أن أنتظر فى السفينة، وألا أنزل منها الا تحت جناح الظلام، فيتولى
المستر تاتام، قومندان الميناء، حراستنا، أنا وأسرتى، حتى نصل
الى بيتنا . وأوصل قائد السفينة هذه الرسالة الى فوافقت عليها .
ثم لم يمض على ذلك نصف ساعة حتى كان المستر لوتون قد حضر
ليقول لقائد السفينة : « أريد أن أصطحب المستر غاندى معى اذا لم
يكن عنده مانع من ذلك، وأنا بوصفى المستشار القانونى للشركة
أقول لك انك غير ملزم بتنفيذ الرسالة التى أبلغها لك المستر
اسكومب » . وجاء قائد السفينة الى بعد ذلك ليقول لى ما معناه :
« اذا لم تكن خائفا فانى أقترح عليك أن تذهب المسز غاندى والأطفال
الى منزل رستم جى وأن نتبعهم، أنا وأنت، سيرا على الأقدام، فانى
لا أحب لك أن تدخل المدينة تحت ستار الليل كما يدخلها للصمص،

بل اننى لا أعتقد بأن هناك خطرا حقيقيا من أن يعتدى عليك أحد ،
فقد تفرق البيض وأصبح كل شيء هادئا فى المدينة ، وقبلت
ما عرضه على شاكرا ، فذهبت زوجتى مع الأطفال الى منزل المستر
رستم جى فى احدى العربات فبلغوه سالمين . أما أنا فقد نزلت من
السفينة مع المستر لوتون ، بعد استئذان قائدها ، وكان منزل
المستر رستم جى يقع على مسيرة ميلين من الميناء .

غير أننى ما كدت أهبط من السفينة حتى عرفنى بعض الصبيان
فأخذوا يصيحون : « غاندى ! غاندى ! » ولم يلبث أن لحق بهم نحو
سنة من الرجال يشاركونهم فى صياحهم . وخشى المستر لوتون أن
يزداد عدد المتجمهرين فنادى على عربة يجرها رجل . ولم أكن فى
يوم من الأيام أستعذب ركوب هذا النوع من العربات ، ولو قدر لى أن
أركبها وقتئذ لكانت أول مرة فى حياتى ، ومع ذلك فقد حال الصبيان
بينى وركوبها وجعلوا يخيفون الرجل الذى يجرها ويطاردونهُ
حتى انطلق يطلب النجاة لنفسه . وكنا كلما سرنا فى طريقنا ازداد
عدد المتظاهرين حتى استحال علينا السير بعد ذلك . ولم يلبث
المتظاهرون أن أمسكوا بالمستر لوتون فباعدوا بينه وبينى . فلما تم
لهم ذلك ، أخذوا يرجموننى بالحجارة والبيض الفاسد ، ثم هجم على
واحد منهم فخطف عمامتى ، بينا انهال على الآخرون ضربا وركلا حتى
انتابنى شعور بالاغماء ، فأمسكت بدرازين أحد البيوت حتى لا أقع
على الأرض ، فازداد هياج الجماهير وصخبهم وأوغلوا فى الاعتداء على
بأيديهم وأرجلهم . وتصادف أن كانت المسز الكسنندر ، زوجة مدير
البوليس ، تمر فى تلك اللحظة ، وكانت تعرفنى ، فأبت عليها
مروءتها الا أن تتقدم لمساعدتى ، ففتحت مظلتها ، على الرغم من أن
الشمس لم تكن فى السماء ، ووقفت بينى وبين الجماهير حتى
استحال عليهم أن يتمادوا فى الاعتداء على دون أن يصيبوها بأذى .

وكان أحد الشبان الهنود الذين شهدوا الحادث ، قد جرى في أثناء ذلك الى مركز البوليس يستنجد به ، فأرسل مديره بعض رجاله لكي يحتاطوا بي ويخفروني الى حيث أريد الذهاب . واستطعنا أخيرا أن نصل تحت حماية البوليس الى منزل المستر رستم جي ، دون أن يقع على اعتداء آخر ، وان كنت قد أصبت مع ذلك بكدمات ورضوض في جميع أجزاء جسمي لم يلبث أن تعهدا الدكتور داديبارجور طبيب السفينة ، وكان قد حضر الى المنزل ، بعنايته وقدم لي كل الاسعافات الطبية الممكنة .

كان السكون يخيم على منزل المستر رستم جي في الداخل ، أما في الخارج فقد أحاطت به جموع البيض على الرغم من ظلام الليل وهم يصيحون : « لا بد لنا من غاندى ! » . وجاء مدير البوليس يحاول أن يهدئ من صخبهم ، ولجأ الى الترغيب دون التهديد لكي يصرفهم عما كانوا فيه . ثم أرسل الى في الخفاء رسالة يقول فيها : « اذا أردت أن تنقذ منزل صديقك وتنقذ حياة عائلتك فعليك الهروب ، بعد أن تتخفي على النحو الذي أقترحه عليك » .

وعلى نحو ما اقترحه على مدير البوليس تنكرت في زي شرطي هندي ووضعت فوق رأسي كوفية مدراسية ملفوفة حول طبع من المعدن لتقوم مقام الخوذة ، ثم صحبني اثنان من المخبرين أحدهما يتخفي في زي تاجر هندي ، بعد أن صبغ وجهه بطلاء يصفى عليه بشرة الهنود . أما الآخر فلا أذكر الآن كيف كان يتخفي ، حتى اذا وصلنا الى الباب الخلفي لمتجر قريب عن طريق حارة ضيقة أخذنا نشق طريقنا عبر مخزنه ، وسط الأكياس المكسمة من البضائع ، حتى خرجنا من بابه العام ودخلنا الى عربة كانت تنتظرنا في نهاية الشارع . وسارت بنا العربة حتى وصلنا الى مركز البوليس حيث

جاء المستر الكسندر بعد ذلك لاستقبالى فشكرت له ، كما شكرت
للمخبرين اللذين اصطحباني ، حسن صنيعهم بى .

فبينما كنت أحاول الهرب من منزل المستر رستم جى وفق
النخطة التى اقترحها المستر الكسندر كان هو يحاول ملاحظة الجماهير
وصرفهم عن مطاردتى بترتيل هذه الانشودة :

اشنقوا غاندى العجوز ، اشنقوه !
فوق شجرة التفاح الحامض

حتى اذا بلغه أننى قد وصلت الى مركز البوليس سالما قال
للجماهير المحتشدة : « لقد هربت فريستكم عن طريق حانوت قريب ،
وأولى بكم الآن أن تذهبوا الى بيوتكم » . فلما سمع المتظاهرون ذلك
منه غضب بعضهم ، وضحك بعضهم الآخر ، ورفض البعض أن
يصدق ما سمع .

واستطرد قائد البوليس يقول : « اذا كنتم لا تصدقون
ما أقول ، فما عليكم الا أن تنتدبوا واحدا أو اثنين من بينكم ليريا
بتنفسيهما ، وأنا مستعد لأن أدخل معهما الى المنزل ، فإذا عثرا على
غاندى فيه فأنا كفيل بأن أسلمه اليهما وأنا جد مغتبط . أما اذا لم
يعثرا له على أثر فان عليكم أن تنصرفوا من هنا ، فأنا واثق من أنكم
لا تبغون اتلاف منزل المستر رستم جى ، أو ايذاء زوجة المستر
غاندى أو أطفاله » .

وأرسل المتجهرون مندوبين عنهم الى المنزل ليفتشاه ، فلم يلبثا
أن عادا اليهم بالنبا الذى خيب آمالهم . وانفضوا أخيرا . أما
كثرتهم فكانت معجبة بحكمة مدير البوليس وحسن تصرفه . وأما
قلتهم فكانت حانقة غاضبة .

وقد أبرق المغفور له المستر تشمبرلين، وكان وزير المستعمرات

البريطاني في ذلك الوقت يطلب الى حكومة ناتال معاقبة المعتدين ، فأرسل المستر اسكومب في طلبى ، فلما ذهبت اليه أبدى أسفه على ما وقع على من اعتداء ، وما أصابنى من أذى . ثم قال : « صدقنى اننى لا يمكن أن يداخلى أذنى شعور بالسعادة لأقل اذى يمكن أن يقع على شخصك . لقد كان من حقك أن تقبل مشورة المستر لوتون وأن تواجه بذلك أسوأ ما كان يمكن أن يحدث لك ، ولكنى واثق من أنك لو أوليت اقتراحي عليك بعض عنايتك لما وقعت هذه الحوادث المؤلمة . ومع هذا فاذا استطعت أن تتعرف على المعتدين عليك فانى مستعد للقبض عليهم ومحاكمتهم ، بل ان المستر تشمبرلين يريد منى ذلك » .

فكان ردى عليه : « اننى لا أريد محاكمة أحد . وقد يكون فى استطاعتى أن أتعرف على واحد أو اثنين منهم ، ولكن ما الفائدة من عقاب هؤلاء ؟ بل أكثر من ذلك اننى لا ألوم أولئك الذين اعتدوا على ، فقد قيل لهم اننى أدليت وأنا فى الهند بتصريحات عن البيض فى ناتال تتسم بالمبالغة ، واننى اغتبتهم وأنا هناك ، فاذا كانوا قد صدقوا ما ألقى فى روعهم فهم لا شك كانوا محنقين على . ان الزعماء - اذا سمحت لى بأن أقول ذلك - وأنت من بينهم ، هم المومون عما حدث . فقد كان فى استطاعتكم أن توجهوهم توجيهها خيرا من ذلك . حتى أنت قد صدقت ما أبرقت به رويتر ، واعتقدت مثلهم اننى قد أطلقت لنفسى العنان فى مثل هذه المبالغات وأنا فى الهند . اننى لا أريد القصاص من أحد ، وأنا واثق من أنهم حين يعرفون الحقيقة سيשמعون بالحزن والأسف على ما صدر منهم » .

ورد المستر اسكومب يقول : « هل تسمح بأن تعطينى رأيك هذا كتابة ؟ اذ لا بد لى من أن أبرق به الى المستر تشمبرلين . اننى لا أريد منك أن تتعجل فى ردك ، وقد تحب أن تستشير المستر لوتون وبعض أصدقائك قبل أن تصل الى قرار نهائى فى ذلك ، وان كنت

اعترف لك في الوقت نفسه بأنك لو تنازلت عن حقل في القصاص
من اعتدوا عليك ، فسوف تساعدني بذلك مساعدة قيمة على إعادة
الهدوء والأمن ، فضلا عما يعود عليك من جراء ذلك من ارتفاع قيمتك
في أعين الناس » .

وقلت له : « أشكرك ، فلست في حاجة إلى استشارة أحد من
الناس » . لقد كونت رأيي في هذا الموضوع حتى قبل أن أحضر
إليك . ان رأيي الذي لا أحيده عنه هو أنه لا ينبغي محاكمة المعتدين .
وأنا على استعداد لأن أسجل في هذه اللحظة قراري هذا كتابة » .

وما أن فرغت من كلمتي هذه حتى شرعت أكتب له اقرارا
بذلك .

وكان مندوب جريدة « ناتال أوبزرفر » قد حضر لمقابلتي قبل
نزولي من السفينة وقدم إلى عددا من الأسئلة استظمت خلال ردي
عليها أن أدحض كل فرية وجهت إلى ، وكان من حسن حظي ، والفضل
في ذلك للسير فيروز شاه ميها ، أنني لم ألق وأنا في الهند من
الخطب إلا ما كان مكتوبا . وكان معي عندما قابلني مندوب الجريدة
نسخ من تلك الخطب ومن كتاباتي الأخرى التي كنت قد بعثت بها
إلى الصحف المختلفة ، فأعطيت صورة من هذه وتلك للمندوب وأبنت
له أنني لم أقل وأنا في الهند شيئا لم أقله في عبارة أشد وأنا في
جنوب افريقية ، كما أوضحت له أنني لا أيد لي في احضار هذا العدد
من الركاب في الباخرتين كورلاند وناردير إلى جنوب افريقية ، بل ان
عددا كبيرا منهم كان يقيم فيه من مدة وان أغلبهم لا يفكرون في البقاء
في ناتال بل يعتزمون الذهاب إلى الترنسفال . وكانت الترنسفال
تهيب في ذلك الوقت ظروفا خيرا مما كانت تهيئه ناتال بالنسبة لمن
كانوا يسعون وراء جمع المال ، ومن ثم فقد كان معظم الهنود يفضلون
الإقامة فيها .

وكان لهذه المقابنة الصحفية ولامتناعي عن محاكمة المعتدين أثر عميق في النفوس الى حد أن شعر الأوروبيون من سكان دربان بالخجل من سلوكهم الذي سلكوه ، كما أعلنت الصحف براءتي مما نسب الي وأظهرت سخطها على الرعاع الذين اعتدوا على • وهكذا أنبت القصاص العرفي الذي كان المعتدون يريدونه لي انه كان نعمة وبركة على ، أو بعبارة أصح كان نعمة وبركة على القضية التي تبنيها . فزاد من سمعة الجالية الهندية في جنوب افريقية ويسر لهم سبل العمل فيه • ولم تَمْضِ ثلاثة أيام أو أربعة حتى كنت قد عدت الى بيتي وأخذت أستقر في حياتي • على أن هذا الحادث قد ساعد على رواجي في عملي في ميدان المحاماة •

٣٥ - تربية الأطفال

لما نزلت من السفينة فى دربان فى يناير عام ١٨٩٧ كان يصحبنى ثلاثة أطفال ، ابن أختى ، وكان عمره وقتئذ عشر سنوات ، تم ولداى ، وكان عمر أكبرهما تسع سنوات والثانى خمس . ومنذ ذلك الوقت والسؤال الذى كان يشغل بالى فى شأن مستقبلهم هو : أين أعلمهم ؟

لقد كنت أستطيع أن أبعث بهم الى مدارس الأطفال الخاصة بالأوروبيين ، ولكن دخولهم تلك المدارس كان لا يتأتى الا على سبيل المنة والاستثناء ، اذ ما كان يتاح لأحد غيرهم من أطفال الهنود أن يلتحقوا بها ، وانما كان هؤلاء يذهبون الى مدارس أنشأتها لهم البعثات المسيحية . ولم أكن مستعدا فى الوقت نفسه لادخال أبنائى مدارس المبشرين ، فقد كنت لا أميل الى نوع التعليم الذى يعلم فيها ، ف لغة التعليم فيها كانت الانجليزية أو على أحسن الفروض اللغة التاميلية أو الهندية المحرفة . أضف الى ذلك اننى لم أكن أستطيع أن أغمض عيني على بعض المساوىء الأخرى التى يتسم بها التعليم فى تلك المدارس . وقد كنت فى الوقت نفسه قد شرعت أحاول أن أعلمهم بنفسى .

والحق اننى كنت فى حيرة من أمرى . لقد كرهت أن أبعث بهم الى الهند مرة أخرى ، فقد كنت أو من ، حتى فى ذلك الوقت ، انه لا ينبغي لصغار الأطفال أن يفترقوا عن آبائهم ، فالتربية التى يتلقاها الطفل فى بيت سليم منظم لهي خير مما يمكن أن يناله فى بيت من بيوت الطلبة . لذلك آثرت أن أكفل أبنائى بنفسى وأن أبقهم فى حضانتى .

وما كنت مع ذلك بمستطيع أن أكرس لهؤلاء الأطفال من الوقت ما كنت أحب أن أكرسه لهم . بل لقد حال عجزى عن أن أوجه اليهم العناية الكافية ، بالإضافة الى اعتبارات أخرى لم يكن لي سبيل الى تجنبها ، دون تربيتهم التربية الأدبية التي كنت أحبها لهم أو التي كانوا يحبونها لأنفسهم ، مما جعلهم يحسون بأثر ذلك طوال حياتهم ، فكانوا كلما التقوا بأحد ممن يحملون درجة الماجستير أو البكالوريوس أو حتى ممن جازوا امتحان الماتريكيوليشن شعروا بقصورهم ، وأحسوا بما فاتهم من تعليم مدرسى . ومع ذلك فلست أظن ، وأنا أسترجع الماضى ، اننى أهملت فى أداء واجبى نحوهم ، ولست آسفا على أننى لم أدخلهم المدارس العامة .

اننى مؤمن بأننى لو كنت أصرت على أن يتلقوا تعليمهم فى احدى المدارس العامة لحرموا من ناحية تربوية ما كان لهم أن يظفروا بها الا فى مدرسة التجارب أو عن طريق اتصالهم بأبويهم . اننى أعرف اليوم عددا من الشباب كانوا معاصرين لأبنائى فى صغرهم ، ولست أظن أنهم ، اذا قيسوا الى أبنائى من حيث أشخاصهم ، يمكن أن يفضلوهم فى شىء أو أن أبنائى يعوزهم ما يمكنهم أن يلتمسوه عند هؤلاء .

على أن النتيجة النباشية التي قد تسفر عنها هذه التجربة لا تزال فى عالم الغيب ، وكل ما أتبعه من ذكر هذه التجربة الآن انما هو التيسير على المشتغلين بدراسة تاريخ الحضارة وتزويدهم بمقياس يوازنون به بين التعليم البيئى المنظم وبين التعليم المدرسى وما للأباء من أثر فى تشكيل حياة أطفالهم ، وأن أبين المدى الذى قد يذهب اليه من كان يريد لنفسه أن يكون لسان صدق ، ومدى ما يفرضه طلب الحرية على من كان ينشد الحرية من ضروب التضحية المختلفة .

فلو اننى كنت مجردا من الشعور بالاحترام الذاتى ورضيت
بأن يتلقى أولادى تعليما لا يستطيع غيرهم من امثالهم أن يظفروا به
لكنت حرمت أولادى من أن يتلقوا دروسا عمنية فى الحرية وفى
احترام النفس على نحو ما يفتنهم اياه بوسائلى الخاصة ، حتى وان
كان ذلك على حساب تربيتهم الأدبية . وفى الحق لو أن الامر
استحال الى خيار بين الحرية وبين التعليم فمن ذا الذى لا يؤثر
الحرية على التعليم ألف مرة ؟

أن الشباب الذين طلبت اليهم فيما بعد ، فى سنة ١٩٢٠ ، أن
ينجوا بأنفسهم من قلاع الاستعباد - المدارس والكليات - ونصحتهم
وقتها بأنه خير لهم أن يحفظوا لأنفسهم كرامتها وأن يشتغلوا فى
قطع الأحجار فى سبيل الحرية من أن يواصلوا تعليمهم وقد كبلت
أيديهم بسلاسل الاستعباد - هذا الشباب يستطيع الآن أن يتتبع
نصيحتى له الى منابعها الأولى .

٣٦ - بساطة فى الحياة

كانت قائمة حساب الكواء الذى يتولى غسل ملابسنا وكيها
باهظة مرهقة ، ولم تكن المحافظة على المواعيد فوق ذلك احدى
خصائصه ، حتى أضحي ما أملكه من قمصان وياقات - وكان عددها
« دستتين » أو ثلاثا - لا يكاد يكفي لسد حاجتى ، فقد كان على أن
أبدل ياقتى مرة كل يوم وان أبدل قميصى ان لم يكن مرة فى اليوم
فلا أقل من مرة كل يومين . وكان معنى ذلك زيادة فى النفقات
خنتها أمرا لا ضرورة له . ومن ثم فقد عملت الى تزويد نفسى بمعدات
الغسل والكى واشترت كتيباً تعلمت منه هذا الفن ثم علمته بعد
ذلك لزوجتى . صحيح ان مباشرة غسل ملابسنا وكيها فى البيت
قد زاد من عبء العمل الذى يقع على كاهلى ولكن جدته جعلته مبعث
سرور لى .

ولن أنسى أول ياقة من ياقاتى غسلتها بنفسى ، فقد استخدمت
فى كيهها من النشاء أكثر مما يجب ، ولم أحم الكوابة الى القدر اللازم ،
ولم أضغط عليها الضغط الواجب حتى لا تحترق ، وكانت النتيجة
أن يبست الياقة الى الحد المعقول ولكن النشاء الزائد العالق بها ظل
يتساقط منها . وذهبت الى المحكمة وقد ارتديتها فأثار ذلك سخرية
اخوانى المحامين ، ولكنى ، حتى فى تلك الأيام ، كنت أتمتع بمناعة
كبيرة ضد سخرية الناس فلا تنفذ الى نفسى .

وقلت لهم : « هذه أول تجربة لى فى كى ياقاتى وهذا سبب
ما ترونه من النشاء السائب . ان الأمر لا يزعجنى فضلا عما هياه
لى كيهها من تسلية » .

وقال صديق : « أرجو ألا يكون ذلك عن قلة في عدد محال
الغسيل والكي في المدينة » .

وأجبتة : « ان قائمة حساب الكي كبيرة مرهقة اذ تكاد تبلغ
تكاليف غسل الياقة وكيها ثمن شرائها . ثم هناك بعد كل ذلك
اعتمادك على الكواء . اننى أفضل بكثير أن أتولى ذلك بنفسى » .
وبنفس الطريقة التى تحررت بها من رق الكواء استطعت أن
أتخلص كذلك من اعتمادى على الحلاق . ان كل من يذهب الى انجلترا
يتعلم فن حلاقة ذقنه بنفسه ، ولكنى لا أعلم عن أحد تعلم فيها فن
حلاقة شعر رأسه . ومع ذلك فقد كان على أن أتعمم ذلك الآن . فقد
ذهبت مرة الى حلاق انجليزى فى بريتوريا فرفض باباء أن يقص
شعرى . لقد شعرت وقتها بالاهاانة ولا شك ، ولكنى ذهبت من
فورى فاشتريت مجزا وأخذت أقص شعرى أمام المرأة . وقد نجحت
الى حد ما فى قص الجزء الأمامى ، أما الجزء الخلفى فقد شوهته
تشويها . فلما أبصرنى أصدقائى فى المحكمة على هذا الحال ضحكوا
حتى كادوا يموتون من شدة الضحك .

— « ماذا دهى شعرك يا غاندى ؟ هل عبثت به الفيران ؟ » .
— « لا وانما الحلاق الأبيض أبى أن يننازل فيلمس شعرى
الأسود ، ولهذا فضلت أن أقصه بنفسى مهما شوهته فى سبيل
ذلك » .

ولم يدهش أصدقائى لهذا الرد .

والواقع أن الحلاق لم يكن مخطئا حين رفض أن يقص شعرى .
فلو أنه خدم زبونا أسود لفقد زبائنه البيض . اننا فى الهند
لا نسمح لحلاقينا بأن يقصوا شعر اخواننا « المنبوذين » ، وها أنذا
قد نلت جزائى على ذلك وأنا فى جنوب افريقية ، لا مرة واحدة بل
مرات ومرات . نعم لقد كان ايمانى بأن ما لقيته على يد هذا الحلاق
انما هو جزاء وفاق على ما نقترفه نحن فى الهند سببا فى أننى لم
أثر ولم أغضب وقتها .

٣٧ - ذكرى وتوبة

تضافت حوادث مختلفة ، وقعت لى فى حياتى ، على تقريب الصلات بينى وبين أناس من مختلف العقائد والأجناس ، حتى ليحق لى من تجاربى معهم أن أقول انى لم أعرف التمييز بين قريب وغريب ، بين مواطن وأجنبى ، بين أبيض وأسود ، بين هندوس وهنود من أصحاب المذاهب الأخرى ، سواء أكانوا مسلمين أم مجوسا ، مسيحيين أم يهودا . بل انى لأذهب الى حد القول بأن نفسى كانت تعجز عن مثل هذا التمييز ، وان كنت لا أزعم لنفسى فضلا فى ذلك ، فقد كان الأمر مجرد جزء من طبيعتى .

من ذلك أن كتبة مكتبى ، حين كنت أمارس عملى فى الحمامة فى دربان ، كثيرا ما كانوا يجلسون معى . كان فيهم الهندوسى والمسيحى أو ، لو شئنا أن نميزهم حسب مواطنهم فى الهند ، كان فيهم الجوجيراتى والتامبلى . ولست أذكر مرة واحدة أننى عاملتهم الا على أنهم أهلى وبنو جلدتى . بل لقد كنت أعاملهم على أنهم بعض أفراد أسرتى ، وأخاصم زوجتى لو أنها حاولت أن تحول بينى وبين معاملتهم على هذا الوصف ، وكان أحدهم مسيحيا من أبوين ينتميان الى ما يسمونه طبقة « المنبوذين » .

كان بيتى مبنيا على الطراز الغربى ، فلم تكن فى حجراته منافذ لتصريف الماء القدر ، ومن ثم فقد كان فى كل حجرة من حجراته وعاء خاص لهذا الغرض . فكنت أنا وزوجتى نتولى تنظيف أوعيتنا بنفسينا بدلا من أن نعهد بذلك الى خادم أو كناس . وكان كتبة

مكتبي الذين نزلوا أهلا على بيتنا يعتبرون أنفسهم من أصحاب الدار فكان طبيعيا أن يقوموا هم كذلك بتنظيف أوعيتهم بأنفسهم . أما الكاتب المسيحي الذي أشرت إليه ، فقد كان حديث عهد بنا ، فكان من واجبنا أن نعى بأمر حجرة نومه بأنفسنا . غير أن زوجتي استكثرت على نفسها أن تقوم بتنظيف وعاء من كان « منبوذا » ، فقد كان ذلك في نظرها أكثر مما يمكن أن تحتمل . وتشاجرنا أنا وهي . فقد كانت لا تقبل أن تراني أتولى تنظيف وعائه ، ولا هي في الوقت عينه تحب أن تتولى ذلك بنفسها . ولا زالت الى يومنا هذا أذكر منظرها وهي تؤنبنى ، وقد احمرت عينها من الغضب ، وتساقطت الدموع على خديها ، وهي تنزل السلم والوعاء في يدها . لقد كنت زوجا قاسيا ولكن في شفقة وحنان . كنت أعد نفسي معلمها ، فكنت أقسو عليها حبا منى فيها .

ولم أقنع بأن أراها تحمل الوعاء لمجرد أن تطيع رغبتى . لقد كنت أريد أن أراها تفعل ذلك بنفس راضية . قلت لها وأنا أرفع صوتى : « انى لن أقبل مثل هذا العبث فى بيتى » .

ونفذت تلك الكلمات الى قلبها كما ينفذ السهم .

وصرخت فى تقول : « أبق عليك بيتك ودعنى أخرج منه » . وأنساني الشيطان نفسى ، فنضب معين الرحمة من قلبى هنيهة ، وأمسكت بها من يدها وسحبت تلك المرأة المسكينة الى باب المنزل ، وكان يقع فى مواجهة السلم ، ثم شرعت أفتحه وفى نيتى أن ألقى بها منه ، فكانت الدموع تنهمر من عينيها وهي تقول : « ألا تخجل من نفسك ؟ هل لا بد أن تنسى نفسك الى هذا الحد ؟ والى أين أذهب ؟ انى لا أهل لى ولا أقارب هنا أذهب اليهم . أوتظن أن من واجبى أن أحتمل وكرك وركلك لا لشيء سوى أننى زوجتك ؟ أستحلفك أن

تكون خيرا من ذلك مسنكا • اقبل هذا الباب ولا تدع الناس يرونا
ونحن على هذا الوضع المشين •

وحاولت أن أليس قناعا من الشجاعة ، وان كنت شعرت في
قرارة نفسى بخزى شديد • وأقفلت الباب ، فإذا كانت زوجتى
لا تستطيع أن تتركنى ، فقد كنت كذلك لا أستطيع أن أتركها • لقد
كنا كثيرا ما نتشاجر ، ولكن شجارنا كان ينتهى دائما الى سلام ،
وان كانت الزوجة ، بما تبديه من قدرة على الاحتمال ، هى التى
تنتصر دائما •

اننى اليوم في وضع يسمح لى بأن أقص هذا الحادث في غير
تكلف أو تحفظ ، فهو ينتمى الى فترة قد ودعتها الى الأبد بعد أن لم
أعد الزوج المقتتن بزوجه ، ولا البعل الذى نصب نفسه معلما لها •
ان فى استطاعة كاستورباى اليوم أن تسيء الى بقدر ما كنت أسيء
اليها فى تلك الأيام دون أن يؤثر ذلك فى علاقتنا شيئا ، فقد
أصبحنا صديقين لا تفصم صداقتنا الأحداث ، ولا يعتبر أحدهنا الآخر
مثار شهوة جنسية له •

٣٨ - حرب البوير

لابد لي من اغفال عدد عديد من التجارب الأخرى التي وقعت لي ما بين سنتي ١٨٩٧ و ١٨٩٩ ، وأن أتجه بقصتي الى حرب البوير مباشرة .

وحسبي أن أقول هنا ان ولائي للحكم البريطاني دفعني وقتئذ الى الاشتراك في تلك الحرب في صف الامبراطورية البريطانية . كان شعوري في ذلك الوقت ، انني اذا كنت أطالب بحقي كموطن بريطاني فلا أقل من أن أشارك في الدفاع عن الامبراطورية البريطانية ، كما كان من رأيي يومئذ أن الهند لا تستطيع أن تحقق حريتها الكاملة الا اذا كان ذلك داخل نطاق الامبراطورية البريطانية . وهكذا جمعت من أمكنني أن أجمعهم من الرفاق ، واستطعت بعد عناء كبير أن أكفل قبول خدماتهم في فرقة الاسعاف .

لقد كان عامة الانجليز ، ينظرون الى الهندي على أنه جبان لا يقدر على مواجهة الأخطار أو التطلع الى ما وراء منفعته الشخصية العاجلة . ولذلك فقد جعل كثيرون من أصدقائي الانجليز يشطون عزيمة فيما كنت مقبلا عليه من الاشتراك بفرقتنا في أعمال الاسعاف ، ما عدا الدكتور بوث(*) ، فقد شجعني من كل قلبه على المضي في خطتي ، وجعل يدرينا على أعمال الاسعاف والتضميم حتى حصننا على الشهادات التي تثبت لياقتنا للقيام بهذه الخدمات . كذلك كان المستر لوتون ، والمفقور له المستر اسكومب من أشد المتحمسين في تشجيعهم للخطة التي كنت أعتمدها .

(*) أحد رجال البعثات في جنوب افريقية .

وتقدمنا أخيراً بطلب نلتمس فيه السماح لنا بأداء عملنا في جبهة القتال . كان عدد فرقتنا يومئذ ١٠٠ من المتطوعين ، من بينهم أربعون من ذوى النخمة المسموعة بين أفراد الجالية الهندية ، ونلامائة من الهنود الأحرار . أما الباقون فقد كانوا من الهنود الذين يرتبطون بقيود العمل التعاقدي . ومع أن نشاطنا كان انكروض فيه أن يكون خارج نطاق خط النار ، وكنا فى أدائه نتمتع بحماية الصليب الأحمر ، فقد طلب إلينا فى إحدى مراحل الحرب أن نعمل بالقرب من جبهة القتال . ولم يكن هذا التحفظ الخاص بشروط خدمتنا وبجعل ميدان نشاطنا بعيداً عن خط النار من عملنا ، بل السلطات المسئولة نفسها هى التى لم ترد منا أن نخاطر بأنفسنا فوضعت تلك الشروط . غير أن الموقف تغير عندما صدرت الجيوش البريطانية عند مدينة سبيون كوب ، إذ أرسل الجنرال بولر وقتها رسالة يقول فيها اننا وان كنا غير ملزمين بالمجازفة بأنفسنا عند خط النار ، فان الحكومة ستحمى لنا عملنا لو أتينا بالجرحى من ميدان القتال . ولم نتردد من جانبنا فى قبول هذه الدعوة ، فكان علينا أن نقطع مسافة تتراوح بين ٢٠ ، ٢٥ ميلاً فى اليوم الواحد سيراً على الأقدام حاملين الجرحى فوق النقلات .

وأخيراً سرحت فرقتنا بعد أن عملت فى خدمة الاسعاف ستة أسابيع .

وقد لقي عملنا هذا ، على تواضع شأنه ، ترحيباً واستحساناً من كل جهة ، وارتفع مركز الهنود بسببه فى أعين الناس ارتفاعاً كبيراً ، وأخذت الجرائد تنشر كلمات الاستحسان والاعجاب فى عبارة مسجوعة وهى تعلن فى النهاية «اننا على كل حال أبناء الامبراطورية» ، كما أشاد الجنرال بولر فى تقاريره العسكرية بجهودنا ، وأنعم على الزعماء فيناً بميدالية الحرب .

كذلك أوضحت الجالية الهندية بعد هذه التجربة أكثر تنظيميا ،
وتوثقت صلاتي بالهنود الذين يعملون بمقتضى القيود التساقدية ،
وأخذ الجميع يشعرون شعورا صادقا بأن الهندوس والمسلمين
والمسيحيين ، وبأن التاميلي والجوجيراتي والسندى ، كلهم أخوة من
أم واحدة .

وقد أصبح كل واحد منا بعد ذلك مؤمنا بأن أوضاع الهنود
المهيئة يجب أن تصحح . وكان مسلك البيض وقتها مشجعا على هذا
الظن ، بعد أن تبدل مسلكهم بإزاء الهنود عما كان عليه من قبل ،
ونشأت بيننا وبينهم علاقات طيبة ، واختلطنا بالآلاف من جنودهم
فى جبهة القتال . ولقينا منهم جميعا ودا وتقديرا .

بل لعل من واجبي أن أسجل فى هذا المقام إحدى ذكرياتي
الخطرة عن طبيعة الخير الكامنة فى الانسان وكيف تتجلى فى أحسن
صورها فى أوقات المحنة . فقد كنا نسير خلال الحرب ناحية معسكر
سوينلى حيث كان الملازم روبرتس ، وهو ابن النورد روبرتس ، قد
أصابه جرح مميت ، وكان لفرقتنا شرف حمل جثمانه من ميدان
القتال . كان اليوم يوما عبوسا قمطيرا ، وكنا جميعا فى ظمأ
شديد الى الماء ، ومررنا فى طريقنا بعين ماء صغيرة نستطيع أن نروى
منها بعض ظمأنا . ولكن من منا يا ترى كان الذى يشرب قبل
أخيه ؟ لقد اقترحنا أن يكون دورنا فى الشرب بعد أن يكون الجنود
المحاربون قد أطفأوا ظمأهم . أما الجنود فقد أبوا الا أن نكون أول
الشاربين . وهكذا دار بيننا نقاش جميل استغرق بعض الوقت عن
أينا يسبق الآخر .

٣٩ - اصلاحات صحية بين الهنود

كنت أكره دائما أن أتستر على سوءات مواطني ، أو أطالب بحقوقهم الا اذا تطهروا منها . ومن ثم فقد ظلمت ، منذ أن استقر بي المقام في ناتال ، أعمل على ابرائهم من أدران وصحة التصقت بهم فكانوا كثيرا ما يعيرون بها . ولم تكن هذه الوصمة خالية من قدر من الصدق ، فقد شاع عنهم أن الهنود غير نظيفين في عاداتهم ، قليلو العناية ببيوتهم ، عديمو الاكتراث بما يحيط بهم . على أن أعيان الجالية الهندية كانوا مع ذلك ، قد أخذوا يعنون بشئون بيوتهم ، ويرعون النواحي الصحية في حياتهم .

ولم يحدث أن فتشت بيوت الهنود ، بيتا بيتا ، الا عندما جاءت التقارير تنبئ باحتمال تفشى الطاعون في دربان . ومع ذلك فلم يجر هذا التفتيش الا بعد استئذان مشايخ المدينة وموافقهم على ذلك ، بعد أن أبدوا رغبتهم في تعاوننا معهم على مقاومة هذا الوباء ، فكان لتعاوننا معهم أثره الطيب ، اذ سهل عليهم عملهم بقدر ما قلل من حرجنا .

وبينما عملية التفتيش تجرى في طريقها وقعت لي تجارب مريرة تبين لي منها أنني لم أكن أستطيع أن أعتد على معاونة الجالية الهندية وأنا أحاول حملها على أداء واجبها نحو نفسها بالقدر الذي كنت أستطيع أن أعتد عليها فيه وأنا أطالب بحقوقها . فقد كنت في بعض هذه البيوت أقابل بالشتم والسباب ، وبفتور مهذب في بعضها الآخر . فقد كان أصحابها يستكثرون علينا أن نطالبهم بأن يكلفوا

أنفسهم عناء تنظيف بيوتهم • أضف الى ذلك ناحية النفقات التي تتطلبها العناية ببيوتهم • اذ أين لهم بالمال الذي يقتضيه ذلك ؟

وقد علمتني هذه التجربة الآن ، أكثر من أى وقت مضى ، أنه لا سبيل لك الى حمل جماعات الناس على عمل شيء تريده الا بكثير من الصبر والأناة • فالمصلح هو الذى يتحمس للإصلاح ، لا المجتمع الذى يراد إصلاحه • لذلك كان على المصلح ألا ينتظر ، وهو فى سبيل الدعوة الى الإصلاح ، غير المعارضة والكراهية ، والاضطهاد المميت فى بعض الأحيان •

ولست أدري وأيم الحق لم ينظر المجتمع الى دعوة الإصلاح على أنها رجوع به الوراء ؟

وأيا كان الأمر ، فقد كان لهذه التجربة أثرها فى حياة الجالية الهندية ، اذ علمتها ضرورة المحافظة على نظافة بيوتها ورعاية شئون بيتها • أما أنا فقد خرجت من كل ذلك بمزيد من تقدير السلطات ، اذ أصبحت ترى أنني وان كنت قد كرسيت جهودى لرفع مظالم الهنود والمطالبة بحقوقهم المهذرة ، لم أكن أقل تحمسا فى دعوتى الى تطهير أنفسنا من جميع الأدران والشوائب •

٤٠ - هدايا قيمة

أحسست بعد أن أعفيت من واجباتي في حرب البوير ، بأن مكاني الصحيح لم يعد في جنوب افريقية بل هو في الهند . فقد كان أصدقائي فيها لا ينفكون يلحون على بالعودة الى الوطن ، وكنت من ناحيتي أحس كذلك بأنني أكون أكثر نفعا وأنا في الهند . ومن ثم فقد رجوت زملائي في الجهاد أن يعفوني من البقاء في جنوب افريقية فاستجابوا لرجائي بعد مشقة كبيرة ، وبشرط أن أتعهد لهم بالعودة مرة أخرى اذا أحست الجالية الهندية بأنها في حاجة الى .

وعقدت الاجتماعات لتوديعي في كل مكان وقدمت لي هدايا قيمة ، كان من بينها بطبيعة الحال أشياء من الذهب والفضة الى جانب بعض الحلى الثمينة من الماس .

ولكن بأى حقّ كان يمكن أن أتقبل مثل هذه الهدايا ؟ واذا أنا تقبلتها فكيف أستطيع أن أقنع نفسي بأنني كنت أخدم الطائفة من غير مقابل ؟ فمما لا شك فيه أن جميع هذه الهدايا ، باستثناء قلة قدمها لي بعض موكلي ، كانت من أجل ما قدمته للجالية الهندية من خدمات ، بل لم أستطع حتى أن أفرق في ذلك بين موكلي وبين زميل في الكفاح ، فقد كان موكلي من بين الزملاء الذين تعاونوا معي على هذه الخدمات .

وكان من بين هذه الهدايا عقد من الذهب يساوي خمسين جنيها كان المقروض من اهدائه لي أن يكون من نصيب زوجتي ، ولكن حتى

هذا العقد لم يعط لها الا بسبب خدماتي للجالية ، واذن فما كان لي
سبيل الى التفريق بين نظرتي الى هذا العقد ، ونظرتي الى سائر
الهدايا .

وانتابنى أرق شديد طيلة الليلة التي قدم لي فيها القمط
الأكبر من تلك الهدايا ، فجعلت أمشى فى حجرتى جيئة وذهابا ، وأنا
قلق النفس سقيم الفؤاد ، أفكر فيما يجب على أن أفعله فلا أهتدى
الى حل . فقد كان من الصعب على أن أتنازل عن هدايا تبلغ قيمها
بضع مئات من الجنيهات ، وكان أصعب منه أن أحتفظ بها .

وحتى لو استطعت أن أحتفظ بتلك الهدايا فماذا عساه يكون
حال اولادى ، وحال زوجتى ؟ وهم الذين كانوا يعدون أنفسهم لحياة
تقوم على خدمة الناس وترى فى العمل الطيب نفسه الجزاء الأوفى .

لقد كان بيتى خلوا من زخرف الحياة ، وكانت حياتنا تزداد
بساطة على بساطتها . فكيف بنا الآن وقد أصبح لدينا ساعات من
الذهب ؟ كيف بنا اذا ازدانت صدورنا بسلاسل من الذهب وأصابعنا
بخواتم من الماس ؟ لقد كنت ، حتى فى ذلك الوقت ، أدعو الناس الى
التغلب على شهوة الحلى والجواهر ، فماذا عسأى أفعل الآن بهذه
الحلى والجواهر التي هبطت علينا ؟

واستقر رأيى فى النهاية على أننا لا يمكن أن نحتفظ بهذه
الأشياء ، فجلست أكتب خطابا جعلت فيه تلك الهدايا وديعة تستثمر
لصالح الجالية ، وأقمت رستم جى المجوسى وآخرين أوصياء عليها .

وكنت أعرف أننى لابد ملاق شيئا من الصعوبة فى اقناع
زوجتى ، بقدر ما كنت واثقا من أننى لن ألقى معارضة من جانب

أولادى • ولذلك فقد قررت بينى وبين نفسى أن أتخذ منهم عضدا لى
فيما كنت مقبلا على عمله •

وقد وافقنى أولادى على فكرتى عن طيب خاطر وهم يقولون :
« اننا لا حاجة لنا بهذه الهدايا الثمينة ، ويجب أن نعيدها الى الجالية •
وإذا احتجنا اليها يوما فيمكننا فى هذه الحالة أن نتسريها » •

وعدت أسألهم وقد امتلأ قلبى فرحا بما سمعته منهم : « اذن
فأنتم ستعملون على اقناع أمكم ، أليس كذلك ؟ » •

وأجابوا : « بكل تأكيد ، بل هذا واجبنا ، فهى فى غير حاجة الى
ليس هذه الحلى • نعم انها قد تحب أن تحتفظ بها لنا ، ولكن ما دمنا
لا نريدها فلم لا توافق على النزول عنها ؟ » •

لكن ما أسهل الكلام ! وما أصعب العمل !

فقد قالت لى زوجتى عندما فاتحتها فى الأمر : « قد لا تكون
انت فى حاجة الى هذه الحلى • وقد يكون أولادك كذلك ، فانك لو
ضربتهم لرقصوا على وقع الضربات التى تلهب بها ظهورهم • وقد
أفهم أنك لا تسمح لى بأن أتحدى بهذه الحلى ، ولكن ما الشأن فى
زوجات أولادى؟ فهن ولا شك سيحتجن اليها • ثم من ذا الذى يستطيع
أن يتنبأ بما سيحدث فى الغد ؟ اننى آخر من يتنازل عن هدايا
وهبت لى بدافع من الحب » •

ثم ازداد نقاشها عنفا وحدة ، وأخذت تساند حجتها بالدموع •
أما الأولاد فقد بقوا على رأيهم لا يتزحزون عنه •

وقلت لها فى رفق : « ان الأولاد لم يتزوجوا بعد ، ونحن
لا نحب لهم أن يتزوجوا وهم أحداث • أما حين يكبرون فانهم
يستطيعون أن يعنوا بشئون أنفسهم • ثم نحن من غير شك لن
نزوج أولادنا من زوجات يعشقن الحلى • ولنفرض بعد ذلك أنهم كن

يردون منا أن نعطينهن حلياً فأننى موجود، وما عليك إلا أن تطلبى منى» .

وردت على تقول : « أطلب منك ؟ أظن أننى أعرفك جيداً الآن .
لقد حرمتنى من حبيبى ولم تدعنى أنعم بها فى سلام . سم تصور أنك
تعرض على الآن أن تشتترى حلياً لزوجات أولادك ! أنت يا من تريد
أن تجعل من أطفالى نساكاً وهم فى هذه السن . لا ! ان الحلى لئن ترد .
ثم دعنى أسألك : أى حق لك فى أن تتصرف فى العقد وهو هدية لى؟»

وأجبتها : « وهل أعطى هذا العقد لك من أجل خدماتك ؟ أم
من أجل خدماتى أنا ؟ » .

وردت تقول : « هذا صحيح ، ولكن خدماتك ماهى الا خدماتى .
لقد أشققت نفسى ليلاً ونهاراً حتى أنهكتها من أجلك ، أليست هذه
كلها خدمات أديتها ؟ بل لقد فرضت على أصدقائك ومن كانوا حولك
حتى كنت أبكى وأنا أكدم من أجلمهم وأشقى كما يشقى العبيد » .

كانت كلماتها قارسة قاطعة نفذت الى أعماق نفسى ، ولكنى
ظلمت مع ذلك مصمماً على رد الحلى ، واستطعت فى النهاية أن
أستدرجها حتى ظفرت بموافقتها . وهكذا أعيدت الهدايا جميعها
لتودع فى أحد المصارف بناء على حجة ائتمان حررتها لهذا الغرض
بغية استعمالها فيما يعود على الجالية بالخير وفقى رغبتى أو رغبات
الأوصياء .

ولم أندم يوماً على أننى اتخذت تلك الخطوة ، كما استطاعت
زوجتى على مر الأيام أن تتبين الحكمة فيما فعلت . فقد أنقذتنا تلك
الخطوة من كثير من عوامل الاغراء .

ان رأى الذى لا يداخلنى فيه شك هو أن الرجل الذى يعمل
فى خدمة المجتمع لا يجوز له أن يتقبل الهدايا الثمينة .

٤١ - أول مؤتمر أحضره

أمضيت بعد وصولي إلى الهند بعض الوقت في التنقل في أنحاء البلاد . كان ذلك في عام ١٩٠١ وهو العام الذي اجتمع فيه المؤتمر الهندي الوطني في كلكتا تحت رئاسة المستر (فيما بعد السير) دينشو ونيسا ، وكان طبيعيا أن أحضر ذلك المؤتمر ، فقد كان أول تجربة لي في أعمال المؤتمرات .

وسألت أحد المتطوعين وأنا في طريقي إلى المؤتمر عن مكانى فأخذني إلى كلية ريبون حيث خصصت أماكن لإقامة بعض المندوبين . لقد كان هؤلاء المتطوعون متعارضين متضاربين في إرشاداتهم . كنت تطلب إلى أحدهم أن يفعل شيئا فيحيله على غيره ، ثم يحيله هذا بدوره إلى شخص ثالث ، وهلم جرا . أما المندوبون فلم يكن قد حضر أحد منهم بعد .

وكان إهمال الشئون الصحية في ذلك المكان بالغا حده . كانت المياه تغطي على الأرض فتحيلها إلى مستنقعات . كانت دورات المياه محدودة العدد ، ولا تزال رائحتها الكريهة تزكم أنفي كلما ذكرتها . فلما لفت نظر المتطوعين إلى ذلك أجابوا في غير مداورة : « هذا ليس من عملنا ، بل هو عمل الكناس » ، فلم يسعنى إلا أن أطلب من أحدهم أن يأتيني بمكنسة فحملت في وجهي دهشا . وجئت بمكنسة ثم شرعت أنظف دورات المياه . غير أن الازدحام عليها كان شديدا ، بقدر ما كان عددها قليلا ، مما استوجب تنظيفها المرة تلو المرة في اليوم الواحد ، فكان ذلك أكثر مما كنت أستطيع أدائه .

وكان لا يزال باقيا على انعقاد المؤتمر يومان ، وكنت في الوقت عينه معتزما وضع جهودي في خدمة مكتب المؤتمر حتى أكتسب بعض التجربة من وراء ذلك . كان بابو يهوبندرانات باسو وجوسال يتوليان أعمال السكرتارية فذهبت الى أولهما أعرض عليه خدماتي فقال وهو يتطلع في وجهي : « ليس عندي عمل لك ، ولعل لدى جوسال ما يستطيع أن يعهد به اليك . أرجوك أن تذهب اليه » .

وذهبت الى جوسال فأخذ يتفرس في وجهي ويمحصني ، ثم قال والابتسامة على وجهه : « أنا لا أستطيع أن أعطيك من العمل سوى ما كان متصلا بالشئون الكتابية فهل تقبل ؟ » .

وأجبت : « بكل تأكيد ، فاني ما جئت الا لأعمل كل ما يطلب الى أدائه ما دام ذلك في حدود طاقتي » .

قال : « هذه روح طيبة ، أيها الشاب » ، ثم التفت الى المتطوعين الذين كانوا يحتاطون به وسألهم : « هل تسمعون ما يقوله هذا الشاب ؟ » .

وعاد يلتفت الى وهو يقول : « هاك مجموعة من الخطابات لكي تتصرف فيها . خذ هذا الكرسي وابدأ في مهمتك . انم مئات من الناس كما ترى يأتون لمقابلتى ، فماذا أصنع ؟ هل أقابلهم أم أضيع وقتي في الرد على هؤلاء الفضوليين الذين تتساقط خطاباتهم على كالماء المنهمر ؟ ومع كل ذلك فليس عندي من الكتب من أستطيع أن أعهد اليه بالرد على هذه الخطابات . ان معظمها ليس فيه ما يستحق الذكر ، ولكني أرجو أن تتصفحها كلها ، وأن تعترف بوصول ما يستحق منها أن يعترف بوصوله ، وأن تحيل على ما تراه في حاجة الى ردى » .

وفرحت لهذه الثقة التي أودعها في صاحبنا .

ولم يكن جوسال يعرفنى حين عهد الى بهذا العمل ، فهو لم يسألنى عن هويتى الا بعد ذلك ، فلما علم منى بعض قصتى أسف على أنه أعطانى هذا العمل الكتابى ، فقلت له مطمئنا: « أرجوك ألا تأسف على ذلك ، فمن أكون أنا فى حضرتك ؟ لقد شابت نواصيك فى خدمة المؤتمر ، ثم أنت بعد ذلك أكبر منى سنا . أما أنا فما زلت حدنا غير مجرب ، بل انك قد طوقتني بفضلك حين عهدت الى بما عهدت . ان كل ما كنت أبتغيه هو القيام بشيء يتصل بأعمال المؤتمر ، وأنت قد أتحت لى هذه الفرصة النادرة التى تهيب لى فهم دقائق هذه الأعمال» .

وهكذا أصبحنا صديقين .

ولم تمض الا أيام قلائل حتى كنت قد حذقت كل ما يتصل بأعمال المؤتمر ، وتمكنت من مقابلة معظم أعضائه ومراقبة حركات الشخصيات البارزة التى كانت تجمع الى صلابتها قوة وبأسا ، من أمثال جوكهال وسرندرات ، وأدركت مبلغ ما يضيع من الوقت سدى ، ولاحظت فى حسرة شديدة المكانة البارزة التى كانت للغة الانجليزية فى نواحي حياتنا . نعم ، فان الاقتصاد فى الوقت لم يكن من مميزات هذا المؤتمر ، اذ كان عمل الرجل الواحد يؤديه أكثر من رجل واحد بينما كثير من الأعمال الهامة لم يعن بها أحد على الاطلاق .

على أننى ، على الرغم من هذه العين الناقدة التى كنت انظر بها الى أعمال المؤتمر ، كنت اذا خلوت الى نفسى أجد فى قلبى من روح الخير ما يكفى ليحملنى على أن أقول لنفسي لعلهم فى مثل ظروفهم ما كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر مما فعلوا ، فعصمنى ذلك من التقليل من قيمة أعمال الغير .

وكان السير فيروز شاه قد وافق على ادخال مشروع قرار لى بشأن جنوب افريقية ، ولكنى كنت أفكر فيمن يا ترى الذى سيتقدم

به الى لجنة الموضوعات ومتى يتقدم به . لقد كانت الخطب الضافية
تلقى في مشروعات القرارات الأخرى - وكلها باللغة الانجليزية - اذ
كان لكل منها زعيم يتبناه ويناصره . أما مشروع قرارى فلم يكن الا
أرغولا صغيرا وسط طبول ضخمة . فلما جن الليل أخذت ضربات
قلبي تتزايد . كان كل شخص فى عجلة يريد الخروج من قاعة
اجتماع اللجنة بعد أن كانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة . ولم
أجد فى نفسى الشجاعة على أن أتكلم فانتقلت قريبا من الكرسي الذى
كان يجلس عليه جوكهال ، وكان قد اطلع قبل ذلك على مشروع
قرارى ، وهمست فى أذنه : « أرجوك أن تفعل شيئا من أجلى » .

وسمع السير فيروز شاه ما قلت ، فرد على : « بل لقد فعلنا » .
وصاح جوكهال : « لا ! لا ! فما زال أماننا مشروع يتعلق بجنوب
افريقية ، وقد ظل المستر غاندى ينتظر طويلا » .

وسأله السير فيروز شاه : « هل اطلعت على مشروع قراره ؟ » .

- « بالطبع » .

- « هل أعجبك ؟ » .

- « لا بأس به » .

- « اذن تقدم به يا غاندى ما دام الأمر كذلك ! » .

وتلوته وأنا أرتعد .

وسانده جوكهال .

وصرخ الجميع : « موافقون بالاجماع » .

وقال واتشا : « ستكون أمامك خمس دقائق تتحدث فيها عن

مشروع قرارك أمام المؤتمر » .

ولم يعجبني هذا الاجراء ، فلم أجد واحدا يريد أن يتعب نفسه الى حد فهم مشروع قرارى . كان كل واحد فى عجلة يريد أن يغادر المكان ، قانعا بالموافقة عليه ما دام جو كهال قد اطلع عليه وأقره .

وطلع الصباح فألفانى فى حيرة مما عسأى أن أقوله فى خطابى أمام المؤتمر ، اذ ماذا أستطيع أن أقول فى خمس دقائق ؟ فلما وقفت لكى أتحدث ، وكنت قد أعددت نفسى لتلك المناسبة اعدادا وافيا ، رفضت الكلمات أن تخرج من بين شفتى الا بصعوبة . واستطعت أن أقرأ المشروع فى النهاية كيفما كان . وكان أحد الناس قد طبع ووزع على الحاضرين نسخا من قصيدة كتبها يحبذ فيها الهجرة الى الخارج . وقرأت القصيدة على الحاضرين منوها بما يلقاه المستوطنون فى جنوب افريقية من عنت وظلم ، واذا بالمستر واتشأ فى تلك اللحظة بالذات يدق جرسه . لقد كنت واثقا من أننى لم أستنفد دقائق الخمسة ولم أدرك وقتها أن دق الجرس كان معناه أنه لا يزال باقيا أمامى من الوقت دقيقتان . لقد شاهدت غيرى من قبل يتحدثون فى افاضة نصف الساعة وثلاثة أرباع الساعة ، ولم يدق لهم جرس . والحق اننى شعرت وقتها بأن احساسى قد جرح فجلست بمجرد أن سمعت الجرس يدق .

بل لم يسأل المؤتمر عن رأيهم فى مشروع القرار ، فلم يكن فى تلك الأيام ثمة ما يميز المؤتمرين عن المتفرجين . كان كل واحد من الفريقين يرفع يده فتمر المشروعات بالاجماع . وكذلك كان الشأن فى مشروع قرارى . وهكذا فقد هذا المشروع أهميته بالنسبة لى .

ومع ذلك فان مجرد موافقة المؤتمر عليه كان فى حد ذاته حدثا كافيا لأن يثلج صدرى ، فقد كان شعور المؤتمر من شعور الأمة ، وحسبى أننى ظفرت بقرار من مؤتمر هذا شأنه .

٤٢ - في بومباي

كان جوكهال حريصا على أن أستقر في بومباي ، وأن أزاول عملي فيها في ميدان المحاماة ، وأن أساعده في أعماله العامة خلال ذلك . وهو حين يتحدث عن الاعمال العامة ، كان يقصد بها كل ما كان متصلا بأعمال المؤتمر الوطني . وراقتني فكرته ، وان لم أكن شديد الثقة بنجاحي في المحاماة ، فقد كانت ذكريات الماضي المريرة مانلة أمام عيني ، ومن ثم فقد رأيت أن أزاول عملي في ميدان المحاماة في راجكوت أولا .

وكننت أفكر في البقاء في راجكوت مدة أطول حين جاءني كيوالرام دافي يقول لي : « اسمع يا غاندى ! نحن لن نسمح لك بأن تتعفن هنا . يجب أن تذهب الى بومباي وأن تستقر فيها . انك ولا شك ميسر للأعمال العامة ، ونحن لن نسمح لك بأن تدفن نفسك في كاثياواد . خبرني اذن : متى تذهب الى بومباي ؟ » .

قلت له : « اننى في انتظار تحويل مالى من ناتال وسأذهب اليها بمجرد أن يصلنى هذا التحويل » . وجاء التحويل بعد أسبوعين ذهبت بعدهما الى بومباي . وقد صاحبنى فيها كثير من التوفيق في مهنتى ، أكثر مما كنت مقدر ، فكنت أكسب من عملى ما يكفى لسد حاجاتى .

غير أنه فى اللحظة التى بدت فيها الأمور كما لو كانت أوشكت على الاستقرار على نحو ما كنت أهوى ، اذا ببرقية تصلنى من جنوب

افريقية على غير انتظار تقول : « ينتظر وصول تشميرلين هنا • نرجو
عودتك فورا » •

وتذكرت عهدي الذى قطعه لمواطني هناك ، فأرسلت اليهم
أقول اننى على أهبة اللحاق بهم بمجرد أن تصلنى النقود اللازمة •
واستجابوا لبرقيتى ، وسرعان ما أغلقت مكتبى وأبحرت فى طريقى
الى جنوب افريقية •

كنت أظن أن عملى سيقضىنى البقاء فيه عاما على الأقل ، ومن
ثم فقد احتفظت ببيتى فى بومباى ، وكان يتألف من طابق واحد
لتقيم فيه زوجتى وأطفالى •

ولما كان من رأى حتى ذلك الوقت ، أن من واجب الشباب
الوثاب ، اذا ضاقت بهم سبل الحياة فى بلدهم ، أن يهاجروا الى
غيرها ، فقد اصطحبت معى فى رحلتى أربعة أو خمسة من الشباب
كان ماجانلال غاندى واحدا منهم •

٤٣ - فى جنوب افريقية مرة اخرى

وصلت الى دربان فى موعدى المقرر ، فأكبت على العمل الذى كان ينتظرني فيها بمجرد وصولي . كان موعد مقابلة الوفد للمستمر تشمبرلين قد حدد ، فكان على أن أحرر المذكرة التى سترفع اليه ، وأن أصحب الوفد حين يذهب لمقابلته .

لقد كان هدف المستر تشمبرلين من رحلته فى جنوب افريقية أن يتسلم باسم بريطانيا هبة قدرها ٣٥ مليوناً من الجنيهات ، وأن يظفر الى جانب ذلك بقلوب الانجليز والبوير على السواء ، فلم يكن غريباً أن يعرض عن الوفد الهندى حين ذهب الوفد لمقابلته .

فقد قال لأعضاء ذلك الوفد عندما مثلوا أمامه : « انكم لتعلمون أن الحكومة البريطانية ليس لها من السلطان على المستعمرات التى تمتع بحكم ذاتي الا قدر يسير . على أن مظالمكم تبدو مع ذلك صحيحة ، وسأفعل ما فى مكنتي من أجلكم ، ولكن عليكم فى الوقت نفسه أن تحاولوا استرضاء الأوروبيين اذا كنتم تريدون أن تعيشوا بين ظهرانيم » .

كان وقع هذا الرد على الأعضاء كالماء البارد يلقي فوق رؤوسهم . أما أنا فقد تولاني شعور بالخيبة . ولكن هذه التجربة مع ذلك قد فتحت أعيننا للمستقبل ، ورأيت بعدها أن علينا أن نبدأ كفاحنا من جديد .

وانتقل المستر تشمبرلين بعد ذلك من ناتال الى الترنسفال ،
فكان على أن أعد قضية الهنود فيها ، وأن أقدم اليه مذكرة بأحوالهم ،
ولكن كيف أذهب الى بريتوريا ؟ ان مواطنينا فيها لم يكونوا فى وضع
يمكنهم من الحصول على التسهيلات المشروعة التى تسمح لى بالسفر
اليها فى الوقت المطلوب . أضف الى ذلك أن الحرب كانت قد خلفت
الترنسفال أرضا موحشة ليس فيها من الزاد والملبس ما يكفى أهلها ،
حتى حرم على من سبق أن هاجروا منها خلال الحرب أن يعودوا اليها
الا بعد أن تتزود المتاجر فيها من حاجات الناس ما يكفى استهلاكهم .
لذلك كان على كل ترنسفالى يريد دخولها أن يحصل على تصريح
بذلك . ولم يكن من الصعب على الأوروبى أن يظفر بمثل ذلك
التصريح . أما بالنسبة الى الهندى فقد كان الأمر غاية فى المشقة .
فقد كانت هناك ادارتان للجوازات ، واحدة تختص بالزنج ،
والأخرى بالآسيويين ، فكان على الهنود أن يتقدموا بطلباتهم الى
ثانيتها . وقيل لى وقتها انه ما من تصريح يمكن الحصول عليه من
تلك الادارة الا عن طريق وساطة بعض أصحاب النفوذ ، وان طالب
التصريح كان عليه فى بعض الحالات أن يدفع قدرا من المال قد يصل
الى مائة من الجنيهات فوق جهود من يلوذ بنفوذهم . وهكذا وجدتني
عاجزا عن أن أتبين طريقا يمكن أن ألجئه لكى أستطيع السفر الى
مدينة بريتوريا . وذهبت الى صديقى القديم قومندان بوليس دربان
أستنجده . قلت له : « أرجو منك أن تعرفنى بضابط الجوازات ،
وأن تساعدنى فى الحصول على رخصة بالسفر ، فانك لتعلم أننى
كنت فى وقت من الأوقات من المستوطنين فى الترنسفال » ، فما كان
منه الا أن وضع قبعته فوق رأسه على الفور وخرج ثم عاد الى ومعه
الرخصة التى أنشدها .

وانطلقت فى طريقى الى بريتوريا ، فلما بلغت عكفت على اعداد
المذكرة التى كنا نوشك أن نرفعها الى المستر تشمبرلين باسم الجالية

الهندية في الترنسفال . ولست أذكر أن الجالية الهندية في دربان طلب إليها أن ترفع قائمة بأسماء أعضاء وفدها مقدما . أما هنا فقد طلب منا أن تقدم هذه الأسماء سلفا .

وقدمنا الأسماء المطلوبة ، فاذا بنا نتسلم من مدير ادارة جوازات الآسيويين خطابا يقول فيه انه قد رؤى حذف اسمى من بين أعضاء الوفد الذين سوف يشرفون بمقابلة المستر تشمبرلين ، بعد أن تبين اننى كان لى شرف مقابلته فى دربان .

فكان هذا الخطاب أكثر مما استطاع زملائي أن يحتملوه ، وأشد مما كانت تتسع له طاقتهم من الصبر ، فجعل بعضهم يبكتنى وهو يقول : « لقد ساعدتهم الجالية الهندية فى الحرب بناء على نصيحتك ، وها أنت ترى النتيجة بعينيك » . ولم يكن لهذا التبكيت أثر فى نفسى فقلت لهم : « اننى غير آسف على هذه النصيحة . ولا زلت مؤمنا بأننا أحسنا صنعا حين اشتركنا فى أعمال الحرب ، فنحن باشتراكنا انما فعلنا ما يحتمه علينا واجبنا ، ولا ينبغى لنا أن ننتظر جزاء على عملنا . وأنا مؤمن مع ذلك ايمانا قاطعا بأن كل عمل طيب لا بد أن يؤتى ثمره فى النهاية . فلننس الماضى اذن ولنفكر فى مستقبلنا » . ووافق الجميع .

ثم استطردت أقول لهم : « وفى الحق أن العمل الذى أرسلتم فى طلبى من أجله قد انتهى ، ولكنى أعتقد مع ذلك أن من واجبى البقاء فى الترنسفال حتى ولو سمحتم لى بالعودة الى الهند ، وأن أوصل كفاحى من هنا بدلا من ناتال ، كما كنت أفعل من قبل . ان واجبى يحتم على الآن ألا أفكر فى العودة الى الهند قبل انقضاء عام كامل ، وأن أسجل اسمى أمام محكمة الترنسفال العليا . وعندى من الثقة ما يجعلنى قادرا على معالجة أمر ادارة الجوازات الجديدة ، فنحن اذا لم نفعل ذلك الآن فان جاليتنا سوف تطارد من الولاية بالكلية » .

وهكذا قررت أن أفتح لى مكتبا فى جوهانسبرج ، بعد أن استشرت فى ذلك أولى الرأى من الهنود فى بريتوريا وجوهانسبرج .

فى حوالى ذلك الوقت اتصل بى مادان جى ليستشيرنى فى أمر انشاء مجلة تحت اسم « الرأى الهندى » . ولم يكن مادان جى حديث عهد بالصحافة ، فوافقته على اقتراحه ، وبدأت المجلة فى الظهور فى سنة ١٩٠٤ ، ولا تزال تظهر كل أسبوع حتى يومنا هذا .

وتولى مانسوخلال نازار رئاسة تحريرها فى ذلك الوقت ، ومع ذلك فقد وقع عبء العمل فيها على كاهلى ، حتى كدت آكون المسئول عنها فى معظم الأحيان ، لا لأن مانسوخلال كان عاجزا عن ادارتها ، بل لأنه كان يخشى الكتابة فى الموضوعات الشائكة التى تتصل بالأحوال فى جنوب افريقية ما دمت موجودا ، لما كان له من ثقة كاملة فى حكمتى وكياستى . ومن ثم فقد ألقى بمسئولية الأعمدة الافتتاحية على كتفى .

وما كان يدور بخلدى يومئذ أننى سأضطر الى امداد تلك المجلة بالمال ، غير أننى سرعان ما تبينت أنها لا سبيل لها الى البقاء الا اذا تقدمت لها بالمساعدة المالية ، فقد كان الهنود والأوروبيون على السواء يعلمون بأننى ، وان لم آكن المحرر الرسمى لتلك المجلة ، فقد كنت المسئول عن ادارتها بالفعل . وما كان يهمنى لو أننا لم نبدأ تلك المجلة على الاطلاق . أما وقد بدأتها فقد كان لزاما علينا أن نواصل اخراجها فى غير انقطاع ، نظرا لما كان ينطوى عليه توقفها عن الظهور من خسارة أدبية بجانب ما يلحقنا من المعرة والخزى فى أعين الناس . وهكذا كنت مضطرا الى مواصلة امدادها بالمال حتى أتت على كل

ما ادخرته تقريبا ، فقد بلغ ما كنت أدفعه لها في بعض الأحيان ،
فيما أذكر ، خمسة وسبعين جنيها في الشهر .

ومع ذلك فقد تكشف لي بعد كل تلك السنين ، أن المجلة قد
أفادت الجالية الهندية فائدة كبرى على الرغم من كثرة تكاليفها ، بل
إنها ما قصد منها يوما أن تكون عملا من أعمال التجارة .

والواقع أن التطورات التي طرأت على تلك المجلة كانت - طالما
هي تحت ادارتي - تعكس ما كان يطرأ على حياتي من تغيرات . نعم
فلقد كانت مجلة « الرأي الهندي » في ذلك الوقت ، شأنها شأن
« الهند الفتاة » في الوقت الحاضر ، مرآة تنعكس فيها بعض نواحي
حياتي . كنت أصب في أعمدها من أعماق روعي ، وأشرح مبادئ
الساتياجراها (*) ، كما كنت أهتمها في ذلك الوقت . ولم يصدر
منها طيلة السنوات العشر التي تلت ذلك ، أي حتى سنة ١٩١٤ ،
عدد واحد لم يكن لي فيه مقال بقلمى ، اللهم الا حين اعتكفت مجبرا
وأنا في السجن .

(*) القوة المنبعثة من الحق والمحبة . وهي ما اعتاد بعض
الكتاب أن يسموه « المقاومة السلبية » .

٤٥ - سحر فى كتاب

كنت أتناول كثيرا من وجباتى فى مطعم من مطاعم النباتيين .
وفى هذا المطعم تعرفت بالمستر البرت وست . كنا نتقابل فى هذا
المطعم كل مساء ، ثم نخرج بعد العشاء للتريض سيرا على الأقدام .
وكان المستر وست شريكا فى دار من دور الطباعة ، وقد تطوع
لمعاونتى فرجوته أن يشرف على مطبعة مجلة « الرأى الهندى » فى
دربان . على أن التقرير الذى قدمه لى عن مركزها المالى كان باعنا
على القلق ، فقررت السفر الى دربان على الفور .

وجاء المستر بولاك ، وهو واحد من الأصدقاء الذين تعرفت
بهم فى المطعم المذكور ، الى المحطة لتوديعى وترك لى كتابا أطلعه فى
الطريق قال عنه انه واثق من أنه سيعجبني . كان كتاب راسكين
« حتى هذه النهاية » .

ولم يكن هذا الكتاب من النوع الذى يستطيع المرء أن يلقيه
جانبا اذا هو بدأ يطالعه ، بل لقد أخذ بمجامع قلبى . كانت المسافة
من جوهانسبرج الى دربان تستغرق ٢٤ ساعة ، فلما بلغتها فى
المساء لم تغفل عينى تلك الليلة ، اذ كنت قد صممت على أن أغير
طريقة حياتى حتى توائم المثل العليا التى قرأتها فى ذلك الكتاب .

فلقد رأيت بعض عقائدى التى تكمن فى أعماق قلبى وقد
انعكست فى ذلك الكتاب العظيم ، فما أقدر الشاعر البليغ على

استخراج الخير الكامن في النفس البشرية من مكمنه ، فقد خرجت
من هذا الكتاب بثلاث نتائج :

الأولى : ان خير الفرد في خير المجموع .

الثانية : ان عمل المحامي له من القيمة ما لعمل الحلاق تماما ، من
حيث ان كليهما له حق مماثل لحق الآخر في أن يكسب
معاشه عن طريق العمل الذي يؤديه .

الثالثة : ان الحياة الكادحة التي تقوم على جهد الفرد ، مثال
ذلك ، حياة الفلاح الذي يعمل في فلاحه أرضه ؛ و
الصانع الذي يزاول صناعته ، هي وحدها الحياة
الجديرة بأن يحيها الانسان .

وقمت من الفجر مستعدا لأن أضع هذه المبادئ موضع
التنفيذ .

تحدثت الى المستر وست فيما كان لكتاب راسكين من اثر فى نفسى ، وأطلعتة على ما كان يجيش فى صدرى من الرغبة فى تطبيق النتائج التى وصلت اليها من مطالعته ، واقترحت عليه لذلك نقل مجلة « الرأى الهندى » الى احدى المزارع حيث يفرض على كل واحد فيها أن يكد ويكدح بالنهار وأن يتقاضى فى نظير ذلك أجرا يكفل له العيش بحيث يتساوى مع ما يتقاضاه غيره من الكادحين ، على أن يكون أداء العمل الصحفى فى وقت الفراغ . ووافقنى المستر وست على اقتراحى ، واتفق على أن يكون الأجر الشهري للفرد ثلاثة جنيهات دون تمييز بينهم على أساس من اللون أو الجنسية .

وأعلنت عن رغبتى فى شراء قطعة أرض بجوار دربان تكون قريبة من احدى محطات السكة الحديد . وعرضت على مزرعة فينكس ، فلم يمض أسبوع الا وكنا قد اشترينا عشرين فدانا يتخللها جدول ماء صغير وتنمو عليها بعض أشجار البرتقال والمانجو . وكان على مقربة منها قطعة أرض أخرى مساحتها ثمانون فدانا ، كان بها عدد أكبر من أشجار الفاكهة ، وفيها عشة متهدمة ، فلم نلبث أن اشتريناها كذلك ، ودفعنا ثمننا لكل ذلك ألفا من الجنيهات .

وقد قام بعض النجارين والبنائين من الهنود ، ممن سبق أن عملوا معى خلال حرب البوير ، بمساعدتى على بناء حظيرة لمطبعة « الرأى الهندى » فأتموها فى أقل من شهر ، وقد ظل المستر وست

وبعض أصحابه يلازمونهم خلال تلك الفترة على الرغم مما كان في ذلك من مجازفة شديدة ومن خطر على سلامتيم وحياتهم . فقد كانت المزرعة غير مأهولة وكانت حشائشها الكثيفة مباءة للأفاعى والثعابين .

وقد بقينا في أول الأمر نعيش جميعا في الخيام الى أن نقلنا متاعنا الى المزرعة التي كانت تبعد عن دربان بأربعة عشر ميلا وعن محطة سكة حديد فينكس بميلين ونصف الميل .

وهكذا بدأنا العمل في المزرعة في سنة ١٩٠٤ ، ولا تزال مجبة « الرأي الهندى » تصدر منها على الرغم من كل ما يعترضها من صعاب .

ولكى نساعد كل واحد منا على أن يكسب عيشه عن طريق العمل اليدوى فقد قسمنا الأرض التي تقع حول مبنى المجلة الى قطع صغيرة ، كل واحدة منها ثلاثة أقدنة ، وكان نصيبى حصة من تلك الحصص . وقد أقمنا فوق تلك الحصص جميعا ، على غير رغبة منا ، بيوتا من الصاج المتعرج . فقد كنا نريد في أول الأمر أن نبني عليها عششا من الطين المكسو بالقش أو بيوتا صغيرة من الآجر مما يعيش فيه الفلاح العادى . غير أن الأمور سارت في ذلك على غير ما كنا نستهى بعد أن تبين لنا أن بناءها من الطين أو الآجر سيكون أكثر نفقة وأطول زمنا ، بينما كان كل واحد منا يتحرق الى الاستقرار فى بيت يؤويه فى أقصر وقت ممكن .

على أننا ما كدنا نستقر فى بيوتنا الجديدة حتى وجدتنى مضطرا الى ترك عشى الجديد والسفر الى جوهانسبرج ، فقد كان عملى فيها لا يحتمل أن أتركه زمنا طويلا دون أن يتأثر بذلك .

فلما كنت فى جوهانسبرج أفضيت لبولاك بما كان من أمرنا
وبما استحدثته من تغيير فى أسلوب حياتى ، وكان سروره لا يعرف
حدا حين قلت له ان الكتاب الذى أعارنى إياه قد أحدث أثره فى
نفسى وسألنى : « هل من الممكن أن أشارك معكم فى هذا العمل
الجرىء ؟ » فلما قلت له : « بكل تأكيد » سارع الى انذار رئيسه
بأنه سوف يترك عمله معه بعد شهر واحد ، ثم لحق بالجماعة فى
فينكس بعد ذلك ، حيث استطاع بما كان يتصف به من حسن
المعاشرة ، أن يأسر قلوب الجميع وأن يصبح عضوا دائما من أعضاء
الأسرة ، لولا أنه تبين لى أنني لا أقدر على السماح له بالبقاء فيها
طويلا ، اذ كان من المستحيل على أن أحمل عبء مكتبى فى
جوهانسبرج وحدى ، فاقترحت عليه أن ينضم الى مكتبى وأن يعد
نفسه فى الوقت نفسه لكى يكون وكيلا للأعمال القضائية .

وكتب الى بولاك من فينكس يقول انه على الرغم من انه قد
أغرم بالحياة فيها ، وعلى الرغم من انه سعيد بالاقامة فيها ويأمل أن
يستطيع الارتقاء بأعمال الزراعة فيها فانه على استعداد لتركها
والحضور الى جوهانسبرج ليلتحق بمكتبى ويؤهل نفسه للأعمال
القضائية اذا رأيت أن ذلك يساعد على تحقيق أهدافنا المشتركة فى
أسرع وقت .

وغادر بولاك مزرعة فينكس وجاء الى جوهانسبرج للعمل معى .

كنت في ذلك الوقت قد قطعت كل أمل في عودتي الى الهند في المستقبل القريب . لقد كنت وعدت زوجتي بأن أعود اليها في خلال عام واحد ، وها قد مضى العام دون أن يلوح أمامي أمل في العودة اليها . ولذلك فقد استقر رأيي على أن أبعث في طلبها هي والأطفال .

وإذا كان اتجاهي الى البساطة في الحياة قد بدأ في دربان ، فقد كان بيتي وأنا في جوهانسبرج أكثر بساطة وأشد تقشفا بفضل تعاليم راسكين حتى وصل الى الحد الأدنى الذي كان يليق ببيت واحد من المحامين . صحيح انه كان لابد لي من الاحتفاظ بقدر معين من الأثاث ، ولكن التغيير الذي طرأ على حياتي كان تغييرا في الجوهر أكثر منه في المظهر . فقد زاد عزوفي عن كل ما هو كمالى بقدر ما زاد ميلي الى أن أعمل بيدي كل ما أحتاج اليه . ولم أكتف بنفسى في ذلك بل أخذت أخضع أولادى لنفس النظام .

من ذلك مثلا أننا بدلا من شراء الخبز من الخباز أخذنا نعهده في المنزل . ثم رأينا بعد ذلك أن نستغنى عن الدقيق الجاهز وأن نطحن دقيقنا بأيدينا ، ففي ذلك مزيد من البساطة في الحياة ثم هو فوق ذلك أكثر اقتصادا في النفقات وأضمن للصحة . وهكذا اشتريت طاحونة تدار باليد ودفعت سبعة جنيهات ثمنها لها . فلما تبين لنا أن ادارتها كانت أكثر مما يطيقه فرد واحد وأنها أكثر سلاسة اذا اشترك في ادارتها اثنان جعلنا نديرها أنا وبولاك والأطفال متعاونين . وكثيرا ما كانت زوجتي تمد لنا يد المساعدة في

هذا العمل ، على الرغم من أن الساعة المخصصة له كانت الساعة التي تبدأ فيها عادة عملها في المطبخ .

وقد أثبت العمل في طحن الدقيق أنه تمرين مفيد للأطفال ، فقد كنا لا نفرض عليهم هذا العمل ولا غيره من الأعمال المشابهة ، بل كنا نجعله هواية لهم يشتركون فيها ان شاءوا ويكفون عنها متى شاءوا .

وكان يساعدنا في شئون البيت خادم استخدمناه لهذا الغرض ولكنه كان يعيش معنا كواحد من أفراد الأسرة ، بل كثيرا ما كان أولادنا يساعدونه في أداء واجباته . أما دورات المياه فقد كنا نتولى تنظيفها بأنفسنا ولا نتركها له لينظفها .

حقا لقد أثبتت هذه التجربة أنها كانت مرانا طيبا لأولادنا .

٤٨ - حياة التبتل (براهما تشماريا)

فلما رتبت أموري على هذا النحو وأحسست بأنني قد بدأت أتسهم نسيم السكينة والاستقرار حملت إلينا الجرائد نبأ « نورة الزولو » في ناتال . ولما كنت أعتبر نفسي واحدا من مواطني ناتال ووثيق الصلة برفاهيتها فقد كتبت إلى حاكم الولاية أعرض عليه استعدادي ، إذا اقتضت الضرورة ، لتأليف فرقة هندية تتولى اسعاف المصابين ، فرد على من فوره يقبل ما عرضته عليه .

وقررت أن أغلق بيتي في جوهانسبرج وأن تذهب زوجتي وأطفالنا ليقيموا في مزرعة فينكس . وقبلت زوجتي هذا القرار بنفس راضية .

وذهبت بعد ذلك إلى دربان لكي أستثير حماس الهنود فيها وأناشدهم التطوع في فرقة الاسعاف التي كنت أزمع انشاءها . وقد رأى رئيس الخدمات الطبية ، تسهيلا لعملي ودعمًا لمركزي ، أن يمنحني رتبة الملازم الأول المؤقتة ، وأن يمنح ثلاثة آخرين من أعضاء الفرقة ، اخترتهم بنفسى ، رتبة الملازم الثاني، ورابعًا رتبة الأماشيية ، كما رأى أن تمنحنا الحكومة الزى الرسمي الذى يتفق وعلما .

وقد ظلت فرقتنا تباشر عملها ستة أسابيع كان لساني خلالها ينعقد من هول ما كنت أراه من قتل الانسان لأخيه الانسان ، وكنت كلما خلوت لنفسى استسلمت لتفكير عميق . وكان من بين المسائل

التي شغلت على تفكيري وقتئذ مسألة التبتل وما يعنيه ذلك • ولم ألبث أن آمنت بحكمته • ولم أكن أدرك في ذلك الوقت أن التبتل من أوجب الواجبات لخلاص النفس ، وكل ما كنت أدركه يومها أن من كان يصبو الى خدمة الانسانية بجميع احساساته ومشاعره لابد من أن يحيا حياة التبتل • لقد وضع أمامي يومئذ أنني سأضطر الى مواجهة مناسبات أخرى كثيرة يكون علي فيها أن أؤدي من الخدمات مثل ما أديته خلال حرب البوير وما كنت أؤديه الآن خلال ثورة الزولو ، وشعرت أنني لن أكون ندا لهذا الواجب لو أنني عكفت على الاستمتاع بملذات الجسد التي تهيئها الحياة الزوجية وشغلت نفسي بانجاب الأطفال وتربيتهم •

وفي ايجاز ، لم أستطع أن أجمع بين حياة الجسد وحياة الروح • فلو ان زوجتي كانت تنتظر مولودا حين كنت متفرغا لاسعاف الجرحى لاستحال علي ولا شك أن ألقى بنفسي الآن في لجة الحوادث • ان الجمع بين رعاية الأسرة وبين القيام على شئون الجماعة لا يتأتى الا بحياة التبتل ، فهي وحدها التي تجعل الخدمة في كلتا الناحيتين متكاملة لا تنافر فيها •

وبينما أنا منهمك في هذا العمل المضني للجسم والعقل معا ، ونحن نؤدي واجبنا في ميدان القتال ، وصلتنا الأنبياء بأن القضاء على « الثورة » يوشك أن يتم وأننا سنعفى قريبا من واجباتنا • وقد أعفينا منها بالفعل بعد يومين أو ثلاثة ، ووصلنا الى أهلنا بعد ذلك بأيام ، تسلمت بعدها خطابا من الحاكم ينوه فيه بأعمال فرقة الاسعاف ويشكر لها جليل خدماتها •

فلما كنت في مزرعة فينكس مرة أخرى اتخذت الخطوة الحاسمة التي كانت تشغل بالي فقطعت على نفسي عهدا لأرعين التبتل

مدى الحياة • ولن أتحدث عن الصعوبات التي صادفتها وقتئذ ،
وحسبى أن أقول اننى أحس حتى يومنا هذا بأن تلك الصعوبات
لا تزال تحلق فى وجهى ، وان كان هذا لم يمنع من احساسى بأهمية
هذا العهد وضرورته يوما بعد يوم • ان الحياة من غير تبتل تبدولى
الآن حياة لا طعم لها أشبه ما تكون بحياة الحيوان ، فالحيوان
بطبعه لا يعرف كيف يضبط شهواته • أما الانسان فهو انسان لأنه
يقدر على كبح جماحه الى المدى الذى يباشر فيه ارادته •

وقد تبين لى أن التبتل ، على الرغم مما يحفل به من طاقات
عجيبة ، ليس بالأمر السهل على الاطلاق ، وليس بالأمر الذى يتصل
بالجسد وحده ، فهو يبدأ بفرض القيود على الجسد ، ولكنه لا ينتهى
عند حد الجسد • انه اذا اكتمل لدى شخص حجب عنه مجرد
الفكرة الدنسة فلا تخطر حتى على باله • ان التبتل الصحيح لا يفكر ،
بمجرد التفكير ، فى اشباع شهوة الجسد ، على أن عليه قبل أن يسمو
الى هذه الحالة أن يقطع شوطا طويلا جبارا •

وهكذا أصبح التبتل الذى فرض على فرضا رغم أنفى منذ سنة
١٩٠٠ عهدا واجب الرعاية بعد منتصف سنة ١٩٠٦ •

٤٩ - ممارسة تعاليم الساتياجراها داخل البيت

كان أول عهدى بحياة السجون فى سنة ١٩٠٨ ، وقد بدا لى وقتئذ أن اللوائح التى كانت تطبق على المساجين وكان يتعين عليهم مراعاتها هى مما يجب على المتبتل أن يراعاه بمحض رغبته واختياره . وكان من بين هذه اللوائح واحدة تنص على ضرورة انتهاء المساجين من آخر وجبة من وجبات يومهم قبل غروب الشمس . كذلك كان يحرم على المساجين من الهنود والافريقيين تناول الشاى أو القهوة . وكان فى استطاعتهم أن يضيفوا الى طعامهم المطهو بعض الملح ان شاءوا ، فلما طلبت من طبيب السجن أن يسمح لنا ببعض مسحوق الكارى ، وأن يبيع لنا وضع الملح فى الطعام خلال طهوه ، أجابنى : « أنتم ما جئتم هنا لكى تتلذذوا بطعامكم . ثم ان مسحوق الكارى ليس ضروريا من الناحية الصحية ، أما الملح فليس ثمة فارق بين وضعه خلال الطهو أو بعده » .

وإذا كانت هذه القيود قد عدلت فيما بعد ، وان كان تعديلها قد جاء بعد مجهود غير يسير ، فان قاعدتين منهنما كانتا صالحتين لكل من كان يسعى الى ضبط نفسه . فان الموانع والنواهى اذا فرضت من الخارج نادرا ما تنجح . أما اذا فرضها الانسان على نفسه بنفسه فان أثرها يكون فى العادة صالحا ومفيدا . ولذلك فما كدت أخرج من السجن حتى شرعت أفرض هاتين القاعدتين على نفسى ، فامتنعت عن تناول الشاى بقدر ما كان ذلك ممكنا وقتها ، وآليت على نفسى أن أنتهى من وجبتى الأخيرة كل يوم ، قبل غروب الشمس ، حتى أصبحتنا أمرا عاديا فى حياتى لا يحتاج منى الى عناء أو جهد .

ثم طرأ على ظرف بعد ذلك اضطررتى الى الامتناع عن تناول الملح بالكفية ، وظللت أرعى ذلك عشر سنوات متصلة . فقد كنت قرأت فى بعض الكتب التى تعالج موضوع الغذاء النباتى أن الملح ليس مادة ضرورية فى غذاء الانسان ، وأن الطعام الخلو من الملح هو على العكس أخيد من الناحية الصحية . وخلصت مما قرأته الى أن الامتناع عن الملح يفيد من كان متبتلا مثلى . كذلك كنت قد قرأت من بين ما قرأته فى هذا الموضوع أن أصحاب الأجسام الضعيفة يجب أن يتجنبوا أكل الشطة وكنتم مولعا بها .

وتصادف أن مرضت زوجتى كاستورباى بعد فترة قصيرة من عملية جراحية ، وأخذت تشكو من نزيف مستعص أبى أن يستجيب للعلاج بالماء وحده . فلما فشلت وصفاتى الأخرى فى شفائها ، ألححت عليها أن تكف عن تناول الملح والشطة ، ولكنها رفضت أن تستجيب لهذا الاقتراح على الرغم من توسلاتى إليها ، وعلى الرغم مما كنت أستشهد به من المراجع الطبية لتعزيز حجتي معها . واسترسلت فى العاحى عليها حتى فقد صبرها وانقلبت لتحذاني وهى تقول انك أنت نفسك لن تستطيع أن تمتنع عنهما لو نصحك أحد بذلك . وآلمنى هذا التحدى بقدر ما أفرحنى - أفرحنى لأنه هيا لى الفرصة لكى أظهر حبى لها . فقلت لها : « أنت مخطئة . فلو أننى كنت مريضا ونصحنى الطبيب بالامتناع عن هذه الأشياء لما ترددت فى أن أفعل ما أمرت . ومع ذلك فهانذا امتنع من الآن ، ومن تلقاء نفسى ، عن أكل الملح والشطة سنة كاملة ، امتنعت أنت أم لم تمتنعى » .

وترنحت زوجتى من هول الصدمة ، وجعلت تتوسل الى فى حزن عميق وهى تقول : « أرجوك ! سامحنى ! فما كان لى وأنا

أعرفك حق المعرفة أن أستشيرك على هذا النحو . اننى أعدك بالامتناع
عن تناول هذه الأشياء ، وأستحلفك أن ترجع فى عهدك فهو أمر
يشق على .

وأجبتها : « لقد أحسنت بامتناعك عن هذه الأشياء ، ولا
يخالجنى شك فى أنك سوف تكونين أحسن حالا بالامتناع عنها .
أما أنا ، فانى لا أستطيع أن أرجع فى نذر نذرته . لذا أرجوك أن
تدعيني وشأنى ، فان امتناعى سوف يكون محكماً لقدرتى وعونا أدبياً
لك فى تنفيذ ما اعترزمتيه » .

وقالت وهى يائسة : « انك رجل عنيد الى أقصى حدود العناد .
انك لا تستمع لقول أحد » ثم لاذت بدموعها مما كان يعتمل فى
نفسها من الألم .

اننى أجسد نفسى ميالا الى اعتبار هذا الحادث نوعاً من
الساتياجراها ، بل لعله أغلى ذكريات حياتى ، فقد أخذت صحة
كاستورباى فى التحسن السريع بعده .

وقد حاولت هذه التجربة مع عدد كبير من زملائى فى الكفاح
فى جنوب افريقية - تجربة الامتناع عن الملح وعن الشطة - فأتت
جهودى معهم بنتيجة طيبة . وقد يختلف الرأى من الناحية الطبية
فى قيمة هذا النوع من الغذاء . أما من الناحية المعنوية فانى لا أشك
فى أن الحرمان المادى له أثر طيب على النفس ، فان غذاء الرجل
الذى آلى على نفسه أن يكبح شهواته يجب أن يختلف عن غذاء من
كان يطلب المتعة الحسية ، بقدر ما يختلف سلوك كل منهما فى
الحياة .

٥٠ - مزيد من ضبط النفس

طرات على حياتي بعد ذلك تغييرات كثيرة كانت كلها مما يعينني على تبتي . وكان أول هذه التغييرات الامتناع عن شرب اللبن . كان ذلك في سنة ١٩١٢ في مزرعة تولستوى . غير أنني ما كنت لأقنع بهذا الحرمان وحده ، فلقد قررت بعد ذلك أن أعيش على الفاكهة وحدها ، وعلى أرخص أنواعها ما أمكن ذلك .

وفي حوالي ذلك الوقت الذي حرمت فيه على نفسي اللبن والحبوب وبدأت تجربة الحياة على الفاكهة ، أخذت أتجه كذلك الى الصوم باعتباره وسيلة من وسائل ضبط النفس .

ولم يلبث أهل المزرعة جميعا أن اشتروا معنى في الصوم ، ما كان منه صوما جزئيا وما كان منه صوما كاملا ، وان كنت لا أستطيع أن أجزم بوقع هذا الحرمان في نفوسهم وما كان له من أثر عندهم في تغليب الروح على الجسد . أما من ناحيتي فاني مقتنع بأنني قد أفدت منه فائدة عظيمة ، جسمانيا ومعنويا .

فالصوم لا يحد من الشهوة البهيمية الا اذا كان الهدف منه ضبط النفس ، فقد لاحظ بعض أصحابي أن شهواتهم ونهمهم الى ما لذ من الطعام تزداد بعد فترات الصوم ، مما يكشف عن أن الصوم لا فائدة منه الا اذا كانت تصحبه رغبة جارفة في ضبط النفس والحد من الشهوات . ان الصوم المادى الذي يقتصر على الامتناع عن الطعام ، ولا يصحبه صوم عقلى يهدف الى تنقية الروح من الأدران ، لا بد أن

ينتهى بصاحبه الى النفاق ويجلب عليه كثيرا من الكوارث •

ولقد كنت أدرك ، حتى قبل أن أتولى تعليم الصغار فى مزرعة تولستوى ، أن المران الروحي ناحية قائمة بذاتها • ذلك أن تربية الروح تستهدف تكوين الخلق السليم وتساعد صاحبها على تحقيق ذاتيته وزيادة معرفته بالله • ولذلك فقد كنت مؤمنا بأن التربية الروحية لا بد منها للشباب ، وأن كل تعليم تعوزه الثقافة الروحية هو تعليم لا جدوى منه ، بل هو تعليم قد يكون محفوقا بكثير من الاوضار •

فما السبيل اذن الى تحقيق هذه التربية الروحية ؟ لقد كنت فى أول الامر أطلب الى الأطفال أن يحفظوا بعض الترانيم من الكتب ذات الطابع الخلقى ثم يلقوها على مسمع من بعضهم البعض • ولم أقتنع بذلك ، فقد كنت كلما زدت صلة بهم ازددت ايمانا بأن الكتب ليست الوسيلة المثلى لتلقينهم الثقافة الروحية • فكما أن التربية الرياضية لا تتأتى الا عن طريق ممارسة الالعاب الرياضية ، والتربية العقلية عن طريق المران العقلى ، فكذلك الروح لا يمكن تهذيبها الا عن طريق الترويض الروحي • وترويض الروح من ناحيته أمر يعتمد كل الاعتماد على حياة المعلم وأخلاقه • لذلك كان خليقا بالمعلم ان يكون شديد الحرص فى جميع تصرفاته ، سواء أكان مع تلاميذه أو بعيدا عنهم •

فان فى استطاعة المعلم ، حتى ولو كان بعيدا عن تلاميذه ، أن يحدث أثرا فى نفوسهم بأسلوبه فى الحياة • وإنه لمن العيب مثلا ، لو أننى كنت كذبيا ، أن أحاول تعليم تلاميذى الصدق ، والمعلم الجبان لا يستطيع أن يلحق تلاميذه دروس الشجاعة ، فان فاقد الشيء لا يمكن أن يعطيه •

ومن هنا قررت بينى وبين نفسى أن أجعل من نفسى انموذجا
عمليا لتلاميذى وتلميذاتى الذين يعيشون معى، حتى انقلبوا فى نظرى
من تلاميذ أعلمهم الى معلمين أعلم منيهم . نعم فلقد تعلمت منهم أنه
لا مناص لى من أن أحيا حياة طيبة تتسم بالصدق والأمانة ، ان لم
يكن من أجلى فعلى الأقل من أجلهم . بل انى لأذهب الى أبعد من
ذلك فأقول ان القيود التى فرضتها على نفسى لكى أروضاها كان مردها
فى أغلب الأحيان أولئك المسافار الذين أقمت منهم حراسا على
نفسى .

٥١ - مولد الساتياجراها

كنت في طريق عودتي بعد أداء واجباتي المتصنة « بشورة » الزولو حين قابلت الاصدقاء من مزرعة فينكس ، ثم ذهبت الى جوهانسبرج فقرأت وأنا فيها في عدد خاص من الجريدة الرسمية صدر في ٢٢ أغسطس سنة ١٩٠٦ مشروع قانون لو استكمل طريقه حتى يصير قانونا لكان معناه القضاء على الهنود في جنوب افريقية قضاء مبرما ، وضياع مستقبلهم ضياعا لا رجعة فيه . كان هذا القانون المقترح يفرض على كل هندي ، رجلا أو امرأة أو طفلا بلغ الثامنة من عمره ، ممن لهم حق الإقامة في الترنسفال أن يسجل اسمه أو اسمها ، لدى مسجل شئون الآسيويين ، وأن يحصل على بطاقة بذلك . وكان يتعين على كل من يتقدم بطلب التسجيل ، فيما كان يقضى به القانون الجديد ، أن يسلم بطاقته القديمة للمسجل وأن يدون في طلبه الجديد اسمه ومحل اقامته والطبقة التي ينتمي اليها الى غير ذلك من البيانات ، وأن يدون المسجل بدوره ما يعن له من الملاحظات المميزة التي يراها في صاحب الطلب ، وأن يأخذ الى جانب ذلك بصمات أصابع يده جميعا . وكان مشروع القانون ينص كذلك على أن كل هندي لا يتقدم بطلب التسجيل قبل انقضاء فترة معينة يفقد حق الإقامة في الترنسفال ، فضلا عما كان ينطوى عليه ذلك من مخالفة للقانون قد تنتهي بصاحبها الى الحكم عليه بالغرامة أو السجن بل بالطرد من البلاد حسب ما يترامى للمحكمة . وكان على كل هندي ، حتى ولو كان يسير في الطريق العام ، أن يبرز بطاقته متى طلب منه ذلك ، كما كان لرجال الشرطة حق دخول المساكن الخاصة

لتفقد هذه البطاقات • والحق أننى لم أصادف فى حياتى تشريعا مثل
هذا التشريع قصد به جماعة من الأحرار فى أى بلد من البلاد •

وعقدنا فى اليوم التالى اجتماعا صغيرا ضم أصحاب الكلمة بين
الجالية الهندية ، فشرحت لهم هذا القانون كلمة كلمة فكان ذلك
صدمة لهم بقدر ما كان صدمة لى ، وأدرك الجميع خطورة الموقف
وقرروا عقد اجتماع عام •

وعقد الاجتماع بالفعل فى يوم ١١ سبتمبر سنة ١٩٠٦ ،
واتخذت فيه قرارات كان أهمها القرار الشهير الذى أصبح يعرف فيما
بعد « بالقرار الرابع » الذى تعهد فيه الهنود عهدا لا حنث فيه
ليرفضن الخضوع لهذا القانون المقترح لو قدر له أن يصبح قانونا
نافذ المفعول وليتحملن فى سبيل ذلك أشد العقوبات التى تترتب على
ذلك •

وچار المجتمعون فى الاسم الذى يطلقونه على هذه الحركة الى أن
اقترح ماجنلال غاندى كلمة « ساداجراها » ومعناها « الثبات على
الخير » ، وأعجبتنى هذه التسمية وان لم تؤد كل المعنى الذى كنت
أريده ، ومن ثم فقد استبدلت بها كلمة « ساتيا جراها » • فان
« ساتيا » (الحق) تنطوى كذلك على المحبة ، و « جراها » (الصلابة)
توحى بالقوة • وهكذا أصبح يطلق على حركتنا كلمة «ساتياجراها» ،
أى القوة المنبعثة من الحق ومن المحبة ، أو بعبارة أخرى الحركة المنزهة
عن كل عنف ، واستغنيت بذلك عن استعمال عبارة « المقاومة
السلبية » •

٥٢ - الى السجن

مر مشروع قانون تسجيل الآسيويين فى جميع مراحلہ المختلفة فى جلسة واحدة عقدها البرلمان الترنسفالى فى يوم ٢١ مارس سنة ١٩٠٧ على أن يعمل به اعتبارا من اليوم الأول من شهر يولية سنة ١٩٠٧ وأن يدعى الهنود للتقدم بطلبات التسجيل فى موعد غايته يوم ٣١ يولية .

وحل يوم أول يولية فشهد افتتاح مكاتب التسجيل المذكورة ، ولكن الجالية الهندية كان قد استقر قرارها على أن تضع عند أطراف الطرق المؤدية الى تلك المكاتب بعض متطوعيا لكى يحذروا ضعاف القلوب من بين أفراد الجالية من الوقوع فى الشرك المنصوب لهم .

فلما رأت الادارة الآسيوية أن عدد الهنود الذين تقدموا لتسجيل أسمائهم ، على الرغم من كل ترغيب أو وعيد ، لم يتجاوز الخمسمائة قررت أن تلقى القبض على بعض السكان الهنود . وكانت فى جيرمستون جالية كبيرة من الهنود كان من بيتهم راما سوندرام ، الذى كان قد ألقى عددا من الخطب الحماسية فى جهات مختلفة يحذر بنى وطنه من عاقبة تسجيل أسمائهم . وقد وشى بعض أهل السوء من الهنود به عند الادارة الآسيوية ، مؤكدين لها انه لو قبض عليه لجاها كثيرون من الهنود يطلبون استخراج بطاقتهم ، ولم يجد موظفو تلك الادارة فى أنفسهم من القدرة ما يمكنهم من مقاومة هذا الاغراء فقبضوا عليه .

وقد أثار القبض عليه دوائر الحكومة والجالية الهندية على السواء،

اذ كان أول حادث من نوعه . فلما حكم عليه احتفل الناس بذلك احتفالا رائعا لا أثر فيه لحزن أو قلق ، بل على العكس لقد أبدوا من مظاهر البهجة والسرور في تلك المناسبة الشيء الكثير ، وأخذ كثير منهم يستعدون للذهاب الى السجن . وهكذا خاب فآل الادارة الآسيوية التي كانت ترجو أن يكون القبض على سوندرا حافزا للناس على الذهاب الى مكاتب التسجيل ، فلم يتقدم اليها بعد ذلك طلب واحد من أحد من الهنود ، حتى من المقيمين منهم في جيمستون ، وبذلك لم يربح من وراء هذا القبض سوى الجالية الهندية نفسها .

على أن راما سوندرا أثبت بعد ذلك أنه كان عملة زائفة . فقد كان السجن بما فيه من عزلة موحشة وفيود صارمة أكثر مما كان يحتمل ، وهو الرجل الذي اعتاد حياة الاباحية وانغمس في كثير من الاوضاع ، وذلك على الرغم من الرعاية الخاصة التي كان يلقاها من سلطات السجن والحنان الذي كانت تضيفه عليه الجالية ، فلم يلبث أن التمس الافراج عنه على أن يغادر الترنسفال كلها ويتخلى عن الحركة .

ولست أرمي من رواية قصة راما سوندرا الى كشف عيوبه ، وانما قصدت استخلاص العبرة منها ، وحض كل من كانوا يقودون حركة نظيفة على التأكد من أنهم لا يقبلون في صفوفهم الا من كانوا مجاهدين نظيفين .

وأيقنت الادارة الآسيوية بعد هذا الحادث أن هذه الحركة لن تكسر شوكتها ما دام بعض زعمائها طلقاء . وهكذا دعت سلطات الترنسفال خلال أسبوع الكريسماس من سنة ١٩٠٧ ، بعض القادة الى الحضور أمام قاضي التحقيق . ووقف هؤلاء أمام المحكمة في اليوم

المقرر ، وكان يوم السبت ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، ليبدو ما لديهم من أسباب تبرر عدم طردهم من الترنسفال خلال أجل معين بعد أن تقاعدوا عن التقدم بطلبات التسجيل التي يحتمها القانون .

ونظر القاضى كل حالة على حدة ثم أصدر أمره الى جميع المتهمين بمغادرة الترنسفال بعضهم فى خلال ٤٨ ساعة ، وبعضهم الآخر فى خلال أسبوع أو أسبوعين . وانتهى الأجل المضروب لهم فى موعد أقصاه ١٠ يناير سنة ١٩٠٨ ، فطلب اليانا فى ذلك التاريخ الحضور أمام المحكمة لسماع حكمها علينا . واتفقنا فيما بيننا على ألا يدافع أحد منا عن نفسه ، بل نعترف جميعا بأننا مذنبون فى تهمة عصيان الأمر الصادر لنا بمغادرة البلاد خلال الموعد المحدد لذلك .

وطلبت من المحكمة عندما مثلت أمامها أن تأذن لى بكلمة موجزة ، فلما أذنت لى قلت ان من رأى التفريق بين حالتى وحالة غيرى من المتهمين ممن سيأتى دورهم بعدى ، واننى قد سمعت منذ برهة بأن مواطنى فى بريتوريا قد حكم عليهم بالسجن ثلاثة أشهر مع الأشغال وبغرامة فادحة اذا لم يدفعوها سجنوا ثلاثة أشهر مثلها . فاذا كان هؤلاء الرجال قد ارتكبوا جرما ، فقد ارتكبت جرما أكبر ، واننى ألتمس من القاضى لذلك أن يحكم على بأقصى العقوبة . ولكن القاضى لم يستجب لرجائى ، واكتفى بحبسى حبسا بسيطا لمدة شهرين .

وأخذ أتباع حركة الساتياجراها يفدون على السجن بعد ذلك بيومين أو ثلاثة زرافات وجماعات . كانوا كلهم من الباعة المتجولين الذين سعوا بأنفسهم الى القبض عليهم . لقد كانت الجالية كلها قد اعتزمت أن تملا" السجن بعد القبض علينا حتى تضيق بهم ، وكان هؤلاء الباعة المتجولون السياقين الى تنفيذ هذا الذى اعتزمته الجالية . وما كان أسهل عليهم من أن يسعوا بأرجلهم الى السجن . كان

يكفى أن يمتنع أحدهم عن إبراز بطاقته لكي يقبض عليه ويساق إلى المحاكمة فالسجن • وهكذا جعل عدد المسجونين من أتباع الحركة ينمو ويتزايد ، حتى بلغوا مائة أو يزيدون في أسبوع واحد • ولما كنا على يقين من أن أعدادا أخرى منهم لا بد وافدة علينا كل يوم ، فقد بقينا على علم بمجريات الأمور خارج السجن دون أن نقرأ صحيفة واحدة •

وكان قد مضى علينا في السجن خمسة عشر يوما حين أنبأنا الوافدون علينا من النزلاء الجدد بأن مفاوضات تجري مع الحكومة بغية الوصول إلى حل مرض كان يتلخص في جوهره في أن يقوم الهنود بتسجيل أنفسهم طائعين ، حتى إذا قام معظمهم بذلك ، نسخت الحكومة القانون الأسود ، وهو الاسم الذي أصبح يطلق على قانون تسجيل الآسيويين •

وقد أخذوني بعد ذلك إلى بريتوريا لمقابلة الجنرال سمطس ، وبعد مناقشة بيني وبينه في تعديل هذا القانون على الوجه الذي اقترحته عليه ، تم الاتفاق على تسوية ترضي الطرفين ، وأعقب ذلك الإفراج عن جميع المسجونين من أتباع الحركة ، ثم أخذت أتجول في أرجاء البلاد لكي أفسر لمواطني فحوى هذه التسوية •

٥٣ - استئناف حركة الساتياجراها

قام الهنود بتسجيل أنفسهم طائعين مختارين حسب الاتفاق الذى تم بيننا وبين الحكومة فلم يبق الا أن تلغى الحكومة « القانون الأسود » ، ولكن المستر سمطس ، بدلا من أن يلغى هذا القانون ، اتخذ خطوة ايجابية لعدم الخطة التى كانت الحكومة سادرة فيها ، فاستبقى القانون الأسود فى قائمة التشريعات المعمول بها مكتفيا باستصدار نص تشريعى يعترف بصحة تسجيل الطلبات التى تقدم بها أصحابها بعد الموعد القانونى الذى حدده فى الاصل قانون تسجيل الآسيويين ، ويعفيهم من العقوبة التى ينص عليها ذلك القانون .

وذهلت وأنا أطلع مشروع القانون الجديد المقترح . ولم يلبث القائمون بحركة الساتياجراها أن أصدروا الى الحكومة « انذارا نهائيا » يقولون فيه : « اذا لم يلغ قانون تسجيل الآسيويين طبقا للتسوية التى تم الاتفاق عليها مع الحكومة ، واذا لم يصل الى الهنود ما يفيد عزم الحكومة على اتخاذ قرار بذلك قبل موعد معين فسوف تحرق البطاقات التى استخرجها الهنود وسيتمحمل هؤلاء ، فى تواضع تصحبه ارادة قوية وعزيمة لا تلبس ، كل ما قد يترتب على ذلك من نتائج » .

وجعل موعد انتهاء هذا الانذار اليوم المحدد لنظر مشروع القانون الجديد أمام الهيئة التشريعية ، ورتب فى الوقت عينه اجتماع عام يعقد بعد انتهاء أجل هذا الانذار بساعتين لاحراق بطاقات التسجيل علنا . وكان من رأى اللجنة التنفيذية لحركة الساتياجراها أن مثل هذا الاجتماع لن يخلو من فائدة ، حتى ولو رأت الحكومة ، على غير انتظار،

أن ترسل ردا مرضيا على هذا الانذار ، فهو يتيح لها فى تلك الحالة اعلان النبا على أفراد الجالية •

واذ كانت الاجراءات الأولى فى هذا الاجتماع توشك أن تبدأ ، وصل الى مكان الاجتماع أحد المتطوعين يركب دراجة ويحمل فى يده برقية من الحكومة تبدي فيها أسفها على اصرار الجالية الهندية على موقفها ، وتعلن أنها لا تستطيع تغيير مسلكها فى هذا الصدد • وتليت البرقية على المجتمعين فاستقبلوها بالهتاف ، كما لو كانوا فرحين بأن فرصة اجتماعهم لاحراق بطاقاتهم علنا لم تضع سدى •

وكانت اللجنة قد تسلمت فى ذلك الوقت حوالى الالفين من هذه البطاقات فأخذ المستر يوسف ميان يلقي بها فى النار بعد أن بللها بالبتروول • وهنا هب المجتمعون واقفين وظلوا يهتفون فيتردد هتافهم فى أجواز الفضاء طيلة عملية احراق البطاقات • ولم يلبث من كانوا حتى الآن محجمنين عن مجاراة زملائهم مترددين فى تسليم بطاقاتهم أن تقدموا بها الى المنصة فلقبت المصير الذى لقيته بطاقات اخوانهم •

وكان تأثر المرسلين والصحفيين الانجليز الذين حضروا الاجتماع بهذا المشهد بليغا ، فأرسلوا وصفا دقيقا الى صحفهم بكل ما حدث •

وفى نفس السنة التى صدر فيها القانون الأسود ، استطاع الجنرال سمطس أن يظفر بموافقة الهيئة التشريعية فى الترنسفال على مشروع قانون آخر اسمه قانون (تقييد) الهجرة الى الترنسفال ، كان من شأنه أن يحول بطريق غير مباشر دون مجيء هندی واحد جديد الى الترنسفال •

وكان لابد للهنود من مقاومة هذا العدوان الجديد على حقوقهم ، فشرع عدد من أتباع حركة الساتياجراها يدخلون الترنسفال عمدا مما أدى بهم الى السجن . وقد سجننت أنا كذلك في تلك المناسبة حتى بلغ عدد من سجنوا منا في سجن مدينة فولكسراست وحدها خمسة وسبعين هنديا . وارتج على الحكومة فلم تدر ماذا تصنع ، فما كانت تستطيع أن تلقي بالهنود جميعا في غياهب السجن ، هذا الى ما يكلفها ذلك من نفقات لا طاقة لها بها لاعالتهم وهم فيه ، وهكذا أخذت تبحث عن وسائل أخرى لمواجهة الموقف ، وانتهت الى ابعاد بعض المخالفين الى الهند . على أن هذا الاجراء اذا كان قد أخاف بعض الهنود فان كثيرين منهم قد ظلوا ثابتين واستمروا يواصلون جهادهم .

٥٤ - مزرعة تولستوى

ظلت أسر المجاهدين الذين تعرضوا لحياة السجون تعيش حتى ذلك الوقت (سنة ١٩١٠) على هبات شيرية تصرف لهم نقدا حسب حاجة كل منها . غير أن هذه الطريقة كانت غير مرضية فضلا عما كانت تستنفده من مواردنا . ولم يعد أمامنا سوى مخرج واحد من هذا المأزق ، وهي أن نجمع هذه الأسر جميعها في مكان واحد فيصبحوا أعضاء في جماعة تعاونية مترابطة .

ومن ثم فقد اشترى المستر كالينباش ، وهو واحد من أصدقائي الحميين ، مزرعة تبلغ مساحتها قرابة ١٠٠٠ فدان ، وأعطاهم أعضاء حركة الساتياجراها ليستغلوها دون أن يدفعوا في ذلك أجرا . وكان بالمزرعة نحو ألف شجرة مثمرة وفيها بيت صغير عند سفح أحد التلال يتسع لستة أشخاص . أما الماء فكان يؤتى به من بئرين في المزرعة ومن جدول ماء صغير يجرى فيها . وكانت محطة لولى ، وهي أقرب محطة سكة حديد لها ، تبعد عنها بنحو ميل ، كما كانت جوهانسبرج تقع منها على مسيرة ٢١ ميلا . وقد استقر رأينا على أن نقيم فوقها بيوتا تكفي لنزلائها ، وأن ندعو أسر المشتركين في حركة الساتياجراها الى الإقامة فيها .

وصممنا فيما بيننا على ألا نستعين بالخدم في أداء الأعمال المنزلية ، وأن نتجنب استخدام أحد من الخارج ، حتى في أعمال الزراعة والبناء ، فنؤدى ذلك كله بأنفسنا . ومن ثم فقد كنا نعمل كل شيء بأيدينا من طهو الطعام الى الكنس وغيره . واتفقنا فيما يختص

باسكان النزلاء فى المزرعة على أن تكون للرجال والنساء بيوت منفصلة ، كل فريق له مساكنه الخاصة • وقد اقتضى ذلك أن تتألف البيوت من عمارتين منفصلتين بينهما مسافة معقولة بحيث تنسعا فى مجموعهما لايواء عشرة من النساء وستين من الرجال • ثم كان علينا بعد ذلك أن نبني بيتا خاصا بالمستر كالينباش وأن نقيم الى جانبه مدرسة للأطفال وما يتصل بها من ملحقات مما يلزم لأعمال التجارة وصناعة الأحذية والجلود وما الى ذلك •

وكان نزلاء المستعمرة ينتمون الى ديانات مختلفة • كان فيهم الهندوسى والمسلم والمجوسى والمسيحى • كان فيهم الشيب والشبان ، الرجال والنساء ، الألاود والبنات •

أما الضعفاء فقد أصبحوا أقوياء فى مزرعة تولستوى وثبت أن العمل كان علاجا ناجعا بالنسبة لهم •

وقد تبين لنا بعد ذلك أن كل واحد من النزلاء كان يريد أن يذهب الى المدينة (جوهانسبرج) بحجة أو بأخرى ، ولا يستثنى من ذلك الأطفال أنفسهم لما لمجرد السفر من شهوة فى نفوسهم • كذلك أنا كان على أن أذهب اليها أحيانا فى بعض أعمالى • ولذلك فقد وضعنا لآفسمنا قاعدة ، هى أن يكون سفرنا اليها بالسكة الحديد فى الأعمال التى تقتضيها حاجة جماعتنا الصغيرة وحدها ، وأن يكون السفر فى تلك الحالات بالدرجة الثالثة • أما من كان يبغى من وراء سفره لهُوا وسرورا ، فقد كان عليه أن يذهب اليها سيرا على الأقدام ، وأن يحمل معه من الزاد ما تخرجه المزرعة دون سواه ، حتى لا ينفق على طعامه شيئا وهو فى المدينة ، وكان عادة يتألف من الخبز المصنوع من القمح غير المقشور ، ومن المسلى المستخرج من الفول السودانى ، ومن مربى التارنج ، وهى كلها مما يصنع فى المزرعة • والواقع أنه لولا

هذه القيود الشديدة لذهب المال الذى ندره من اقامتنا فى بيئة ريفية فى أجور السكك الحديدية وفى الرحلات المختلفة الى المدينة .

لقد كان هدفنا الاساسى من وراء ذلك كله أن نجعل مزرعتنا خلية تنبض بالحياة وتفيض بالنشاط الزراعى والصناعى ، فنوفر مالنا ونجعل من النزلاء جماعة تسد حاجتها بنفسها ، حتى اذا حققنا ذلك استطعنا أن نقاوم حكومة الترنسفال الى أقصى حدود المقاومة . من ذلك أنه كان علينا أن ننفق بعض المال فى شراء ما نحتاج اليه من الاحذية ، ولذلك قررنا أن نصنع احذيتنا بأنفسنا ، فتعلمنا هذه الحرفة وأخذنا نصنع الاحذية ونبيعها . كذلك أدخلنا صناعة النجارة حتى نسد حاجتنا من مختلف الاصناف ، من كراسى الى صناديق الى غيرها ، واستطعنا أن نصنعها جميعا .

وكان لابد لنا من انشاء مدرسة للصغار والاطفال . على أن هذه المدرسة كانت أكثر واجباتنا صعوبة وأشدّها تعقيدا . والواقع أننا لم نستطع أن نحقق فى هذه الناحية نجاحا تاما حتى النهاية . لقد كان عبء التعليم يقع فى معظمه على كاهل المستر كالينباش وعلى كاهلى . ولم يكن فى استطاعتنا أن نبدأ التعليم فى هذه المدرسة الا بعد الظهيرة فى وقت كنا فيه متعبين منهكين من جراء عملنا فى الصباح . وكذلك كان تلاميذنا . كان النعاس كثيرا ما يغلب المعلم والمتعلم خلال الدروس فكنا نرش الماء فى أعينهم وأعيننا ، ونحاول عن طريق اللعب أن نعيد النشاط الى نفوسهم ونفوسنا ، ولكن ما أكثر ما كانت جهودنا فى هذه الناحية تنهب عبثا ، فقد كانت أجسامنا وقتها فى حاجة الى الراحة ، ولم تكن لتقبل عن الراحة بديلا .

ولم يكن ذلك الا جانبنا واحدا من الصعوبات التى واجهتنا فى مهمتنا التعليمية ، بل لعلها كانت أقل هذه الصعوبات شأنا ، اذ أنى

لنا أن نعلم أطفالا يتكلمون ثلاث لغات متباينة هي الجوجيرانية والتاميلية والتيلوجية ؟ لقد كنت تواقا الى أن أجعل من هذه اللغات جميعها وسيلة للتعليم ، ولكن كيف السبيل الى ذلك ، وأنا لا أعرف من التاميلية الا القليل ، ولا أعرف من التيلوجية شيئا ؟ ولعمري لست أدري ماذا كان يمكن أن يفعل مدرس واحد في منزل نالك الظروف .

على أن تجربتنا في التعليم لم تكن عديمة الفائدة بالكلية ، فقد أبرأت الأطفال من عدوى التعصب ، فتعلموا أن ينظروا بروح خيرة الى ديانات بعضهم البعض ، والى عادات بعضهم البعض ، وأن يعيشوا معا كما تعيش الاخوة ، واكتسبوا فوق ذلك دروسا في الخدمة المتبادلة وفي الآداب العامة وفي الأعمال اليدوية . وان ما أعرفه عن أحوال بعض تلاميذ المزرعة في مستقبل حياتهم ، على قلته ، ليحملني على القول بأننى واثق من أن التربية التي تلقوها في مدرستها لم تكن عديمة الجدوى ، فقد كانت ، على الرغم مما كان يعتمدها من نقص ، تجربة تنسم بالتفكير العميق وبالنزعة الدينية .

انها تجربة لها ذكريات حلوة كأحلى ما تكون ذكرياتي عن مزرعة تولستوى .

٥٥ - النساء يشتركن في الجهاد

جاء جوكهال الى جنوب افريقية في أكتوبر عام ١٩١٢ لكي يتوسط بين القائمين بحركة الساتياجراها وبين الحكومة فوعده الجنرال بوئا ، حسب رواية جوكهال ، بإلغاء القانون الأسود في خلال عام واحد ، ورفع ضريبة الجنيهات الثلاثة عن كاهل الهنود ، ولكنه لم يوف بوعده .

وكتبت لجوكهال أنبئته بهذا الحث في الوعد ، ثم أخذت أعد العدة لحملتنا المستقبلية . وقد آكدت لجوكهال أننا سنجاهد حتى الموت ، وأنها لا بد منتزعون من حكومة الترنسفال ، على كره منها ، قانونا بإلغاء هذه الضريبة المجحفة . وكنا ندرك ما قد يجره علينا ذلك من عقوبة السجن لمدة طويلة . ولذلك فقد قررنا أن نغلق مزرعة تولستوى وأن نتخذ من مزرعة فينكس مقرا لعملياتنا بالنظر الى ملائمة موقعها لما كنا نعتزم القيام به .

وبينما الاستعداد لجهادنا المقبل على قدم وساق ، اذ بالحكومة تنزل بنا ضيما آخر كان من أثره أن دفع النساء دفعا الى الاشتراك في الجهاد ، على الرغم من أننا كنا حتى ذلك الوقت قد حلنا بين النساء وبين أن يعرضن أنفسهن للسجن . فقد حدث في ذلك الوقت أن أصدرت حكومة جنوب افريقية حكما يلغى جميع الزيجات التي لم تعقد وفق الطقوس المسيحية ولم تسجل لدى مسجل عقود الزواج . وبذلك أضحى جميع الزيجات التي تمت بين الهنود وفق الشريعة الهندوسية أو الاسلامية أو المجوسية غير شرعية بجرة قلم واحد ، واستحالت

الزوجات في لمح البصر الى وضع المحظيات ، وحرمت ذرايينهن من حقهن في الميراث .

وما كان الصبر على مثل تلك الاهانة التي لحقت بنسائنا ليحدي فتيلة ، ومن ثم فقد قررنا أن نبدأ على الفور حركة عنيدة من الساتياجراها ، لا نبالي في ذلك بعدد من يشتركون معنا في الكفاح . ولم نكن لنستطيع في مثل تلك الظروف أن نحول دون اشتراك النساء معنا ، بل على العكس لقد دعوناهن الى الوقوف مع الرجال صفا واحدا . وبدانا أول الأمر بدعوة الأخوات اللاتي كن معنا في مزرعة تولستوى فرحين بدعوتنا كل ترحيب . وبصرتهن بما قد يتعرضن له من أخطار بسبب اشتراكهن في الجهاد ، وبما سوف يحتملنه من جراء ذلك من حرمان في الطعام واللباس وفي حرياتهن الشخصية ، وأنذرتهن بأن الأمر قد ينتهي بهن الى السجن مع الأشغال ، فيكلفن غسل الملابس وما الى ذلك من الأعمال ، فضلا عما قد يصيبهن من اهانات تلحق بهن على يد السجنانات . ولكن هؤلاء الأخوات الفضليات لم يبالين بشيء . كن في غاية الشجاعة والاقدام ، متحمسات للاشتراك معنا أيا كانت النتائج . ولم يبق أمامي الا أن أدعهن ينفذن ما اعترمن .

ودخلت الأخوات أرض الترנסفال عند قرية فيرينيجنج فلم يقبض عليهن أحد . ثم عملن بائعات متجولات فلم يقبض عليهن أحد كذلك .

تلقاء ذلك قررنا أن نرسل ست عشرة من الرائدات من بين نزيلات مزرعة فينكس ليخترقن الحدود الى الترנסفال في الوقت الذي تدخل فيه الأخوات اللاتي عجزن عن حمل بوليس الترנסفال على القبض عليهن الى ناتال ، فقد كان دخول الترנסفال من ناتال ، أو ناتال من الترנסفال ، كلاهما مخالفة يعاقب عليها القانون ، حتى اذا قبض على الأخوات وهن يدخلن ناتال كان ذلك ما نبغى ، والا فقد

رتبنا الأمر بحيث يواصلن سيرهن الى نيوكاسل ، وهي مركز من مراكز التعدين الهامة فى ناتال ، حتى اذا بلغنها حاولن حمل العمال الهنود الذين يعملون فيها فى ظل قانون العمل التعاقدى على الاضراب عن العمل ، فقد كان ذلك كفيلا بأن تلقى الحكومة القبض عليهن وعلى العمال على السواء . كانت هذه هي الخطة التى فكرت فيها وعرضتها على أخواتنا فى الترנסفال .

وذهبت الى مزرعة فينكس اطلع الأخوات فيها على خطوة الخطوة التى كن على وشك الاقدام عليها وأشرح لهن الآلام التى قد يتعرضن لها وهن فى السجن ، ولكنهن جميعا كن على استعداد لمواجهة أسوأ الاحتمالات ، بما فيهن زوجتى ، وأكذن لى أنهن لن يتراجعن ، وليكن ما يكون .

ونحرت الفرقة الآتية من فينكس عبر الحدود الى داخل الترנסفال دون أن يكون معهن رخصة بذلك ، فقبض عليهن وحكم عليهن بالسجن ثلاثة أشهر مع الشغل .

أما الأخوات اللاتى كن فى الترנסفال فقد دخلن ناتال من غير رخصة كذلك ، ومع ذلك لم يقبض عليهن ، فسرن فى طريقهن حتى وصلن الى نيوكاسل وبدأن عملهن فيها وفق الخطة المرسومة . وسرى نفوذهن بين العمال كما تسرى النار فى الهشيم فلم يلبثوا أن أضربوا عن العمل .

ولم يكن فى مقدور الحكومة بعد ذلك أن تترك الأخوات يمارسن نشاطهن الخطر وهن فى مأمن من القبض عليهن ، ومن ثم فقد قبضت عليهن وحكم عليهن بالحبس ثلاثة أشهر .

لقد كانت شجاعة النساء الهنديات فى تلك الأيام مضرب الأمثال . فقد احتجزن جميعا فى سجن ماريتزبرج وتعرضن فيه لمضايقات لا حد لها . كان طعامهن فيه من أرداد الأنواع ، وكن يقمن فيه بفصل

الملابس وكيها ، ولم يكن يسمح لواحدة منهن بأن تحضر طعاما من الخارج ، فقد كانت احداهن مقيدة بنذر نذرته لله يقتضيها أن تعيش على طعام معين ، فلم تسمح لها سلطات السجن بتناول ذلك الطعام الا بعد عناء شديد ، وكان ما قدمته اليها منه مما تعافه النفس ، بل هو لم يكن يصلح طعاما للناس على الاطلاق . وطلبت تلك الأخت بعض زيت الزيتون فرفض طلبها أولا ثم لما جاءوا به اليها كان من نوع قديم زنخ ، فلما عرضت أن تشتري حاجتها من الخارج على نفقتها ، قيل لها ان السجن غير الفندق ، وان عليها أن تأكل ما يؤتى لها به . فلما خرجت من السجن كانت هيكلها عظيما ولم ينقذها من الموت الا الجهود الجبارة التي بذلت من أجل حياتها .

وخرجت أخت أخرى من السجن وهي مريضة بحمي قاتلة ، ولم تمض الا أيام قلائل على خروجها حتى كانت قد أسلمت روحها (٢٢ فبراير سنة ١٩١٤) . يا الهي ! كيف أنسى تلك المرأة ؟ لقد كانت فالياما مانوسوامي موداليار فتاة من جوهانسبرج لم تتعد ربيعها :سُداس عشر . كانت تلازم الفراش حين ذهبت لزيارتها . كانت طويلة القامة فبدأ جسمها الهزيل شيئا مخيفا .

سألتها : « فالياما ! ألا تأسفين على ذهابك الى السجن ؟ » .

وأجابت : « آسف ؟ اننى مستعدة لأن أذهب الى السجن مرة اخرى » .

وعدت أسألها : « ألا تخشين أن يؤدي ذلك الى موتك ؟ » . وكان جوابها : « انى لا أبالي . فمن ذا الذى لا يحب أن يموت من أجل الوطن ؟ » .

وبعد أيام معدودات من ذلك الحديث لم تعد فالياما معنا بجسدها ولكنها خلفت لنا اسما لن يمحوه الزمن .

٥٦ - سبيل من العمال

كان لحبس النساء أثر السحر فى نفوس العمال الهنود الذين يشتغلون فى المناجم القريبة من نيوكاسل ، فلم يلبثوا أن ألقوا أدوات العمل وساروا فى جموع متعاقبة على المدينة . فلما وصلنى نبؤهم تركت فينكس على الفور وذهبت الى نيوكاسل .

ولم يكن لهؤلاء العمال بيوت خاصة بهم ، بل كان أصحاب المناجم هم الذين ينشئون لهم بيوتا يقيمون فيها ، وهم الذين يمدونهم بالنور ، ويزودونهم بحاجتهم من الماء . وكانت نتيجة ذلك بالطبع أن أضحى هؤلاء العمال فى وضع من التبعية يجعل حياتهم معتمدة كل الاعتماد على ارادة أصحاب العمل .

وجاء العمال المضربون الى بقائمة عريضة من الشكايات . قال بعضهم ان أصحاب المناجم قطعوا عنهم النور والماء ، وقال البعض الآخر ان أثاثهم ومتاعهم ألقى به خارج بيوتهم . وقلت لهم انه لا سبيل لهم بإزاء ذلك الا أن يهجروا بيوت أصحاب المناجم وأن يخرجوا منها جماعة واحدة كما يخرج الحجاج مهاجرين فى سبيل الله .

ولم تكن أعداد هؤلاء العمال تقف عند حدود العشرات أو المئات بل جاوزتها الى حدود الآلاف المؤلفة . وحررت كيف أهىء لهذا الجمع الخفير مسكنا ، وكيف أمدهم بما يحتاجون اليه من طعام وزاد . واهتديت أخيرا الى حل لتلك المشكلة ، وهو أن أسير بهذا «الجيش» العرمرم الى الترنسفال ، حتى اذا وصلناها أودعتم السجن آمنين

مطمئنين كما دخل السجن أخوات لهم من قبل من نزيلات مزرعة
فينكس . كان قوام الجيش خمسة آلاف رجل ، ولم يكن عندي من
المال ما يكفي لدفع أجور انتقالهم اليها بالسكة الحديد . واذن فهم
لن يستطيعوا أن يذهبوا اليها راكبين . ثم لو أنهم ذهبوا اليها
بالسكة الحديد فلن تكون أمامي فرصة لكي أعجم عودهم . وقررت
أخيرا أن نذهب اليها سيرا على الأقدام .

وفد كان بعض هؤلاء العمال يصطحبون معهم زوجاتهم
وأطفالهم . ولذلك فقد ترددوا في موقفهم . ولم يعد أمامي تلقاء ذلك
سوى أن أستجمع شجاعتي وأن أقول لهم في غير ضعف أو وهن ان
من أراد منهم أن يعود الى عمله في المناجم فما عليه إلا أن يشد رحاله
اليها مرة أخرى . على أن أحدا منهم لم يشأ أن يفيد من هذه الرخصة
التي أعطيتها لهم . وهكذا استقر قرارنا أخيرا على أن يذهب الضعفاء
منا وحدهم بالسكة الحديد . أما القادرون ، ومن ليس بهم عاهة
تقعد بهم عن السير ، فقد أظهروا جميعا استعدادهم للذهاب الى
تشارلستون سيرا على الأقدام .

وأخطر العمال في احدى الأمسيات بأن رحلتهم ستبتدا في
ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي (٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٣) ،
وتليت عليهم التعليمات التي يجب أن يتقيدوا بها خلال رحلتهم .
ولعمري ان قيادة جموع غفيرة تصل الى خمسة أو ستة آلاف عدا لم
تكن بالأمر الهين في الأحوال العادية ، فما بالك ولم يكن في استطاعتي
أن أعطيهم من الزاد خلال الطريق أكثر من أن أعطى كل « جندي »
منهم رطلا ونصف رطل من الخبز وأوقية واحدة من السكر في اليوم .

وساعدتني تجربتي التي اكتسبتها في حرب البوير و « ثورة »
الزولو في مهمتي ، فلم أسمح لأحد من « الغزاة » بأن يحمل معه من

الملبس أكثر مما يحتاج إليه ، أو أن يلمس ما يخص غيره في الطريق ، وبصرتهم بضرورة الصبر والاحتمال اذا قابلهم أحد من الاوروبيين ، موظفا رسميا كان أم غير موظف ، فأساء اليهم أو حتى اعتدى عليهم . وقلت لهم ان عليهم أن يسمحوا لرجال الشرطة بأن يقبضوا عليهم اذا شاءوا ، وأن يواصلوا سيرهم اذا قبض على . وألا يرتدوا على أعقابهم خاسرين . كل هذا وغيره أوضحته لهم . كما أعلنت أسماء من يخلفونني على التوالي في قيادة « الجيس » اذا حدث ما يحول بيني وبين أن أكون معهم .

ووصلت قافلتنا بسلام الى قرية تشارلستون ، فأخذ التجار الهنود المقيمون فيها يقدمون لنا مساعدات قيمة ، فوضعوا بيوتهم تحت تصرفنا ، وسمحوا لنا باستخدام الأراضي المحيطة بالمسجد لاعداد طعامنا ، وأمدونا في سبيل ذلك بما كنا في حاجة اليه من أدوات الطهو .

. ولم أتردد أنا وزملائي المشرفون على الحملة في القيام بأعمال الكنس والمسح وما شاكلها ، مما دفع غيرنا الى أن يعملوا مثلما عملنا ، فما كان يجدي في مثل تلك الحالات أن تصدر الأوامر الى غيرنا . فلو أننا اكتفينا بالأوامر والتعليمات نصدرها الى غيرنا لاتخذ كل منهم من نفسه زعيما ثم شرع يمل على غيره ما يفعله ، وتكون النتيجة ألا شيء يفعل على الاطلاق . أما حيث يصبح الزعيم نفسه خادما فلن تكون ثمة منافسة على الزعامة .

٥٧ - الزحف العظيم

كتبت الى الحكومة ونحن في تشارلستون أقول لها اننا لا نزمع دخول الترنسفال بقصد الاستيطان فيها ، واننا انما ندخلها كوسيلة فعالة للاحتجاج على حنث الوزير بعهده ، واطهارا لألنا وحزننا على ما أصابنا من اهدار لكرامتنا ، وان الحكومة تستطيع أن تريحنا من حيرتنا وقلقنا لو أنها تفضلت فألقت القبض علينا حيث نحن . وانتهيت من كتابي اليها ، بعد أن أكدت لها بأن اضراب العمال عن العمل سوف ينتهى ، وبأنهم سوف يعودون الى عملهم على الفور اذا هى ألغت ضريبة الجنهيات الثلاثة . أما سائر المظالم التى كنا نشكو منها فقد قلت لها فى كتابي اننا لا مصلحة لنا فى مواصلة انضمامهم الى حركة جهادنا العامة .

وما كنا فى موقف كهذا نستطيع أن نترقب رد الحكومة على كتابي أياما طويلة . ولذلك فقد قررنا أن نغادر تشارلستون وأن ندخل الترنسفال على الفور ، فاذا قبض علينا خلال ذلك كان بها ، والا فان « جيش السلام » سوف يواصل سيره من عشرين الى أربعة وعشرين ميلا فى اليوم لمدة ثمانية أيام متتالية حتى يصل الى مزرعة تولستوى ثم يبقى فيها الى نهاية الكفاح .

فلما استكملنا عدتنا للزحف رأيت أن أقوم بمحاولة أخيرة للوصول الى تسوية مع الحكومة بعد أن كنت قد أرسلت اليها عددا من الخطابات والبرقيات . فقررت أن أتصل بها تليفونيا حتى ولو قبلت محاولتي بالصد ، فكان رد الحكومة منطويا على اهانة لى ، اذ

جاءنى منها الرد التالى بعد نصف دقيقة على لسان المتحدث باسمها :
« الجنرال سمطس لا شأن له بك • افعلى ما تريد » • بهذه الكلمات
انتهت رسالة الحكومة • لقد كنت أنتظر هذه النتيجة ، ولكنى لم
أكن أتوقع مثل هذا الرد الجاف •

وفى اليوم التالى ، بمجرد أن حانت ساعة الصفر (٦٣٠ صباحا)
أدينا الصلاة ، ثم بدأ سيرنا باسم الله وعلى بركة الله •

وقد كان من المقرر أن نتوقف فى أول يوم من أيام زحفنا عند
المفورد لنمضى فيها ليلتنا • فلما وصلناها فى حوالى الساعة الخامسة
مساء أخذ الحجاج زادهم من الخبز والسكر ثم انتشروا فى العراء
وانصرف بعضهم يتجاذبون أطراف الحديث ، وأخذ البعض الآخر
يرتلون الأناشيد الدينية •

فلما أرخى الليل ستاره ، وسكنت الأصوات ، وأخذت أستعد
للنوم ، سمعت وقع أقدام مقبلة • ثم أبصرت أحد الأوروبيين يتقدم
نحونا وقد أمسك بيده مصباحا • وفهمت ماذا يعنى مجيئه فى تلك
الساعة • فلما كان بجانبى قال يخاطبني : « عندى أمر بالقبض
عليك وأزعم تنفيذه الآن » • وسألته : « والى أين تذهب بى ؟ »
فأجاب : « الى محطة السكة الحديد القريبة ثم الى فولكسرست عندما
نجد قطارا » •

وأيقظت ب • ك • نايدو ، وكان ينام بالقرب منى ، وأنبأته بخبر
القبض على وطلبت اليه ألا يوقظ « الحجاج » الا فى الصباح • فإذا
طلع النهار وجب أن يستأنفوا سيرهم قبل طلوع الشمس ، حتى اذا
انتهوا من يومهم وجلسوا ليأخذوا مئوتهم من الطعام أطلعهم على نبا

القبض على ، وأوصيته اذا قبض على الحجاج ألا يقاوموا ، بل عليهم أن يستسلموا ، والا واصلوا سيرهم طبقا للخطة الموضوعه .

فلما مثلت أمام محكمة فولكسراست فى صباح اليوم التالى طلب المدعى العام حبسى على ذمة التحقيق أربعة عشر يوما حتى يستوفى الأدلة وأجلت القضية بناء على ذلك . وطلبت الافراج عنى بالنظر الى هذا الجيش الهائل من الرجال والنساء والأطفال الذين فى عهدي ، لعلى أستطيع أن أصل بهم الى نهاية رحلتهم خلال فترة التأجيل . وعارض المدعى العام فى ذلك ، على الرغم من حق كل مسجون غير متهم فى جريمة من الجرائم فى الخروج بكفالة . وما كان للقاضى أن يحرمنى من الاستمتاع بحق يخوله لى القانون ، ولذلك فقد أفرج عنى بكفالة قدرها خمسون جنيها . وكان المستر كالينباش قد أعد عربة لى فأخذنى لالحق بركب « الغزاة » .

وواصلنا زحفنا ، غير أن الحكومة لم تشأ أن تتركنى حرا ، ومن ثم فقد أعادت القبض على ونحن عند مدينة ستاندرتون فى اليوم الثامن من الشهر ، وان كان القبض على لم يخل من بعض الطرافة فى هذه المرة ، فقد كنت منهمكا فى توزيع الخبز وبعض مربى البرتقال التى جاءتنا هدية من التجار الهنود فى تلك المدينة على « الحجاج » عندما وقف القاضى بجانبى ، وانتظر حتى انتهيت من توزيع المؤونة ، ثم نادانى جانبا وقال وهو يضحك : « انك سجينى » ، وأجبتة : « يبدو أن مرتبتى قد ارتقت الى حد أن يأتى القاضى بنفسه للقبض على ، بدلا من أن يترك ذلك لرجال البوليس » .

فلما وصلنا الى دار المحكمة فى ستاندرتون وجدت بعض زملائى هناك ، اذ كان قد قبض على خمسة منهم كذلك . وأتى بى أمام المحكمة على الفور ، فطلبت التأجيل مع الكفالة لنفس الأسباب التى

أبديتها فى محاكمتى السابقة فى فولكسراست • وقد عارض المدعى العام هذا الطلب بشدة كما عارضه زميل له من قبل • وأفرج عنى هذه المرة كذلك بضمان قدره خمسون جنيهًا ، وأجلت القضية الى يوم ٢١ • ولحقت بموكب « الحجاج » بعد أن ساروا فى طريقهم مسافة لم تكد تزيد على ثلاثة أميال • وطننت وقتها • كما ظن غيرى • ان فى استطاعتنا بعد كل هذا أن نبلغ مزرعة تولستوى فى النهاية • ولكن الأمور جرت على خلاف ما كنا نظن •

فقد كنا فى ذلك الوقت قريبين من جوهانسبرج ، وكان ركب الحجاج قد انقسم الى ثمانية أقسام كل قسم عند مرحلة من مراحل الطريق • وهكذا استطعنا حتى ذلك الوقت تنفيذ برنامجنا حسب الخطة المرسومة بالضبط وبقيت أماننا مسيرة أربعة أيام لكى نتم زحفنا • على أنه بقدر ما كانت روحنا المعنوية ترتفع يوما بعد يوم ، بقدر ما كان قلق الحكومة وحيرتها فى ازدياد مستمر حتى لم تعد تدرى ما تفعل لوقف هذا الزحف الهندى • فلو أنها قبضت علينا بعد أن نصل الى غايتنا لاتهمت بالضعف وبدت مفتقرة الى كل معنى من معانى الكياسة السياسية • واذن ، فإذا كان لابد من القبض علينا فليكن ذلك قبل أن نصل الى أرض الميعاد •

ولحق بولاك بالركب عند مدينة تيكورت فى اليوم التاسع من الشهر • وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر حين كنا ، أنا وهو ، فى مقدمة الركب نتحدث فى شئوننا بينما كان بعض الزملاء ينصتون الى حديثنا • واتفقنا على أن يسافر بولاك بقطار المساء الى دربان فى طريقه الى الهند ليعرض حقائق الموقف على حكومتها ، ولكن الله تعالى لا يسمح للإنسان فى جميع الحالات بأن يحقق ما قدره لنفسه • فبينما نحن منهمكون فى الحديث اذا بعربة تقف أمامنا ويخرج منها مدير ادارة الهجرة فى الترنسفال وضابط من ضباط البوليس ثم

يسيران بي جانبا ويقول أحدهما : « اننى أقبض عليك » • وهكذا
قبض على ثلاث مرات فى أربعة أيام •

• وسألتها : « وما العمل فى أولئك الزاحفين ؟ » •

• وكان الرد : « اترك هذا لنا فهذه مسئوليتنا ! » •

ولم أزد كلمة واحدة فى حديثى معهما واكتفيت بأن طلبت الى
بولاك أن يتولى مسئولية الحجاج وأن يلازمهم فى زحفهم • ولم
يسمح لى ضابط البوليس بأن أتحدث الى الركب بأكثر من أن أنبئهم
بخبر القبض على ، فلما شرعت أطلب اليهم المحافظة على الأمن الى
آخر ذلك قاطعنى قائلا : « انك الآن سجين ، والسجين لا حق له فى
أن يخطب فى الناس » •

وسير بي الى جريلنجستاد ومنها الى هيدلبرج حيث قضيت
ليلتى • أما الحجاج فقد استأنفوا سيرهم بزعامة بولاك ثم توقفوا عند
مدينة جريلنجستاد لقضاء ليلهم • وفى الساعة التاسعة من صباح
اليوم التالى كانوا قد وصلوا الى مدينة بالفور ، حيث كانت ثلاثة
قطارات خاصة من قطارات السكة الحديد تنتظرهم فى المحطة
• لتحملهم الى حيث يبعدون الى ناتال •

٥٨ - انتصار الساتاجراها

جىء بى بعد القبض على الى مدينة داندى ، وهى الجهة التى صدر منها أمر القبض ، ووقفت أمام قاضيتها متهما بتحريض العمال المقيدىن بعقود العمل على الهجرة من ولاية ناتال .

وحكمت فى يوم ١١ ، وحكم على بالسجن مع الأشغال الشاقة تسعة أشهر . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد كان على أن أواجه محاكمة أخرى أمام محكمة فولكسراست متهما بتحريض بعض الأشخاص على دخول الترنسفال ممن لا حق لهم فى دخولها ، ومعاونتهم على تنفيذ ذلك . ومن ثم فقد رحلت فى يوم ١٣ الى فولكسراست حيث فرحت بلقاء بولاك وكالينباش ، وكان قد قبض عليهما ، وبقينا أياما نساعد بصحبة بعضنا البعض ، الى أن عادت الحكومة ففرقت بيننا ووضعتنا فى سجون مختلفة .

ونعود الى « الحجاج » مرة أخرى . فقد سارت بهم القطارات الخاصة الى ناتال حيث كانت الحكومة قد ضربت حول المناجم الفحم أسوارا من الأسلاك الشائكة ، واعتبرت هذه الحظائر فروعا من سجنى داندى ونيوكاسل ثم أقامت من موظفى المناجم الأوروبيين حراسا على المسجونين فيها ، بعد أن وضعت العمال الهنود داخلها ، وطلبت اليهم أن يعملوا فى نطاق هذه السجون المستحدثة . وهكذا انقلب العمال الهنود ، بين يوم وليلة ، الى عبيد لا أكثر ولا أقل . فلما أبوا أن يعملوا فى المناجم فى تلك الظروف ألهبت ظهورهم بالسياط وتعرضوا للركل والسباب . وقد أرسلت برقيات بهسنة

الأعمال الوحشية الى الهند فنارت نائرتها من أقصاها الى أدناها حتى أصبحت مسألة جنوب افريقية الموضوع الذى يشغل الرأى العام فيها .

بل لقد حفز ذلك اللورد هاردينج ، وكان نائب الملك وقتئذ ، على أن يلقي خطابه المشهور فى مدراس فى ذلك الوقت (١٣ ديسمبر) ، ذلك الخطاب الذى كان له وقع شديد فى جنوب افريقية وفى انجلترا على السواء ، وقيل وقتها ان نائب الملك لاحق له فى أن يتقد علنا الولايات الأخرى الأعضاء فى الامبراطورية البريطانية . على أن اللورد هاردينج لم يقف عند حد توجيه اللوم الى حكومة جنوب افريقية ، بل دافع كذلك عن القائمين بحركة السائياجراها ، مما كان له أحسن الأثر فى نفوس الجميع فى الهند .

والحق أنه ما كان لحكومة اتحاد جنوب افريقية أن تبقى الآلاف من الأبرياء فى السجون ، وما كان نائب الملك فى الهند بمستطيع أن يحتمل هذا الذى حدث . وأخذ العالم كله يترقب باهتمام ما عساه يفعله الجنرال سمطس بعد ذلك . أما ما فعله فهو ما كانت تفعله جميع الحكومات فى مثل تلك المناسبات . ذلك أن البلاد التى تحسب حسابا لقوة الرأى العام تتخلص فى العادة من مثل هذمه المواقف بتعيين لجنة تجرى تحقيقا صوريا وتكون توصياتها مرسومة من قبل . وقد جرى العرف السائد على أن تقبل الحكومة ما تسفر عنه أعمال هذه اللجان من توصيات ، وبذلك تهيم لنفسها فرصة لتطبيق العدالة التى حالت دون تطبيقها من قبل . وهكذا عين الجنرال سمطس الآن لجنة قوامها ثلاثة أعضاء أوصت بأنه « لكى يكون التحقيق تاما ودقيقا بقدر الامكان » يجب الافراج عن كالينباش وبولاك وعنى . وقبلت الحكومة تلك التوصية على الفور وأفرجت عن ثلاثتنا فى يوم واحد (١٨ ديسمبر سنة ١٩١٣) ، بعد أن كنا قد أمضينا فى السجن مدة لا تزيد على ستة أسابيع .

وشعرنا حينئذ ان من حق الهنود الذى لا يماريهم فيه أحد ن
يسمح لهم بترشيح مندوب واحد منهم على الأقل ليكون عضوا فى
اللجنة ، فكتبت بذلك الى الجنرال سمطس ، ولكنه أبى أن يزيد عدد
أعضاء اللجنة عضوا واحدا . ومن ثم فقد أخذنا نستعد للعودة الى
السجن مرة أخرى ، وأعلنا أن فريقا من الهنود ممن يبتغون حياة
السجون قد اعتزموا الزحف من مدينة دربان فى اليوم الأول من
شهر يناير سنة ١٩١٤ .

وصادف صدور هذا الاعلان وقوع اضراب عام بين عمال سكك
حديد اتحاد جنوب افريقية مما جعل موقف الحكومة غاية فى الحرج .
فلما طلب الى زملائي فى الكفاح أن أنتهز هذه الفرصة المواتية لكي
نبدأ زحفنا على الفور أعلنت لهم أن الهنود لا يمكنهم أن يساعدوا عمال
السكة الحديد المضربين بهذا الأسلوب ، فهم لا يهدفون الى احراج
الحكومة ، وكفاحهم يختلف عن كفاحهم ويرتكز على أسس غير
الأسس التى تركز عليها حركتهم ، وأضفت الى ذلك أننا حين نقوم
بزحفنا فسوف نقوم به بعد أن تنتهى مشكلة عمال السكة الحديد .

وكان لقرارنا هذا أثر عميق فى نفوس الجميع وأرسل نبؤه الى
انجلترا بالبرق ، كما قدره أصدقاؤنا الانجليز وغيرهم فى جنوب
افريقية الى حد دفع أحد سكرتيرى الجنرال سمطس الى أن يقول
مازحا : « اننى لا أحب قومك ولا يعيننى أن أساعدهم فى شيء ،
ولكن ما حيلتى ؟ انكم تتقدمون لمعاونتنا فى وقت سُددتنا ، فكيف
نسمح لأيدينا بأن تمتد اليكم بسوء ؟ انى طالما وددت لو أنكم لجأتم
الى العنف كما فعل العمال الانجليز المضربون . اذن لعرفنا كيف
نتصرف معكم . ان أيديكم لا تمتد بالأذى لأحد ، حتى لأعدائكم .
انكم تسعون الى النصر عن طريق تحملكم للآلام ، ولم تخرجوا يوما

عن حدود اللياقة والمروءة ، وهذا ما يجعلنا ضعافا أمامكم ، • كذلك صدر عن الجنرال سمطس نفسه مثل هذا القول •

وقد ترك هذا الموقف وغيره من المواقف المماثلة أثرا عميقا في كل مكان ، ورفع من قدر الهنود في أعين الجميع ، وخلق جوا ملائما للوصول الى تسوية • وبدأت آكاتب الجنرال سمطس عن عمل لجنة التحقيق ، ووصلنا في النهاية الى اتفاق بيننا ، بعد أن أوصت اللجنة في تقريرها بالاستجابة الى طلبات الجالية الهندية • وقد نشرت الحكومة على اثر ذلك في الجريدة الرسمية قانون (اغائة) الهنود ، ألغت بمقتضاه ضريبة الجنيهات الثلاثة ، واعترفت بشرعية جميع الزيجات التي تعتبر شرعية في الهند ، وجعلت مجرد الحصول على جواز للإقامة يحمل بصمات ابهام صاحبه كافيا لاثبات حق حامله في الإقامة في اتحاد جنوب افريقية •

وهكذا انتهت حركة الساتياجراها الكبرى بعد ثماني سنوات من الكفاح ، وأخذ السلام يرفرف على حياة الهنود في جنوب افريقية، فأبحرت في ١٨ يولية سنة ١٩١٤ عائدا الى الهند عن طريق انجلترا ينتابني شعور مزدوج من السرور والحزن - سرور بعودتي الى وطني بعد غيبة استمرت سنوات طويلة ورغبتي في خدمته ، وحزن على فراقى لجنوب افريقية بعد أن قضيت فيه واحدا وعشرين عاما من حياتي أشارك الناس فيه كثيرا من التجارب الانسانية حلوها ومرها •

٥٩ - فى الهند مرة أخرى

كان فريق الهنود الذين سافروا الى الهند مباشرة قد وصلوا اليها قبلى ، فلما نزلت من الباخرة فى بومباى علمت أنهم يقيمون فى سانتانيكيتان ، وكنت على أحر من الجمر للقائهم بمجرد أن أنتهى من اجتماعى بجوكهال .

وقد غمرنى جوكهال وسائر أعضاء « جمعية خدام الهند » بعطفهم وحبهم ، وكان جوكهال قد دعاهم جميعا لمقابلتى ، فكان لى معهم حديث صريح فى كل موضوع من الموضوعات .

وكان جوكهال شديد الحرص على أن أنضم الى جمعيته ، وكذلك فعلت ، وان كان غيره من الأعضاء قد شعروا ، بالنظر الى الفارق الكبير بين مثلى ومثلهم ، وطريقتى وطريقتهم ، بأن انضمامى قد لا يكون خطوة موفقة .

وكنت قد أطلعت جوكهال على نواياى . قلت له اننى سواء قبلت فى عضوية الجمعية أم لم أقبل ، فانى أريد لنفسى صومعة (أشرما) أستطيع أن أقيم فيها مع أسرتى من أصدقائى القداماء فى فينكس حيث نعتزل فيها الناس فى بعض الأوقات لنمارس فيها طريقتنا فى الحياة ، وفضلت أن يكون مكانها فى جهة ما من جوجيرات باعتبارى من أهل تلك المقاطعة ، فقد كنت مؤمنا بأننى أستطيع أن أخدم بلادى على خير وجه عن طريق خدمتى لجوجيرات . وأعجب

جوكهال بالفكرة واستطرد يقول : « ان من واجبك فى الواقع أن تفعل ذلك ، وأيا كانت نتيجة حديثك مع أعضاء الجمعية فى هذا الصدد فإن عليك أن تتجه الى دائما فى كل ما يتطلبه هذا (الأشرم) من نفقات سأعتبرها حتما كما لو كانت نفقاتى الشخصية » •

وفاض قلبى فرحا ، فلقد سرنى أن أشعر بأن مسئولية تدبير المال اللازم لأشرمى قد ارتفعت عن كاهلى ، وأن أحس بأننى لست وحيدا فيما كنت مزمعا الاضطلاع به ، وأننى أستطيع أن أعتد على مرشد أمين كلما كنت فى حرج • نعم فلقد أزاح جوكهال عن كاهلى عبئا ثقيلا •

وانتزع جوكهال منى وعدا بأن أجوب أرجاء الهند لكى آكتسب الخبرة اللازمة بشئونها وألا أبدى رأيا فى مسائلها العامة الا بعد أن أجتاز فترة الاختبار التى كان على أن أمر بها •

٦٠ - انشاء الأشرم(*)

أنشئ الأشرم في يوم ٢٥ مايو سنة ١٩١٥ في سابارماتي ، بأحمد أباد ، فقد كنت أستطيب مدينة أحمد أباد لانها مركز قديم من مراكز الغزل والنسيج ، ومن ثم فقد كانت مكانا صالحا لحياء هذه الصناعة البيتية الهامة ، ثم هي عاصمة جوجيرات مما يبشر بعون مالي من ثراتها أكثر مما كان يتاح لي في غيرها .

وكان أول شيء واجهناه بعد انشاء الأشرم اختيار اسم صالح له . لقد كانت عقيدتنا الاخلاص في الحق ، وعملنا البحث عن الحق والتمسك به ، وكنت أريد فوق ذلك أن أبصر الناس بأسلوب الجهاد الذي كان لي في جنوب افريقية لعل اختبار مدى صلاحية تطبيقه في الهند . ومن ثم فقد اتفقنا ، أنا ورفاقي ، على أن نسميه « صومعة الساتياجراها » ، على اعتبار أن هذه التسمية توحى بالهدف الذي نبغيه والطريقة التي نبغي أن نحققه بها .

وكان لابد لادارة هذه الصومعة والاشراف على شئونها من مجموعة من اللوائح يلتزمها نزلاؤها في حياتهم ، فقد كنا خمسة وعشرين ، ما بين رجل وامرأة ، نأكل من طعام واحد ، ونحاول أن نعيش كما يعيش أفراد الأسرة الواحدة .

(*) اسم أطلقه غاندي على صومعته .

على أن الأشرم لم يكده يسلم من حياته غير بضعة أشهر حتى امتحن في كيانه امتحانا قاسيا لم أكن أتوقه ، فقد تسلمت يومئذ خطابا من أمريتال ثاكار يقول فيه : « ان عائلة متواضعة ، ولكنها أمينة ، من « المنبوذين » تريد أن تلتحق بأشرمك فهل تقبلونها بينكم ؟ » .

وكتبت إليه أبدى استعدادنا لقبولها بين ظهرائنا على شريطة أن يقبل أفرادها التزام لوائح الأشرم . وكانت تلك الأسرة تتألف من دودابهاى ، وهو ربها ، ومن زوجته دانبيهن ، وابنتهما لاكشمى ، وكانت بعد طفلة تحبو ، وقد قبلوا جميعا أن يخضعوا لقبوانين الأشرم وطريقة الحياة فيه .

غير أن قبولهم أثار عاصفة من الاستياء والجزع ، وكان مثار مشكلات عديدة اضطررنا الى مواجهتها ، وكانت أولى هذه المشكلات انقطاع العون المالى عن الأشرم وما صحب ذلك من شائعات تقول ان الناس قد اعتزموا مقاطعته فى النواحي الاجتماعية كذلك . بيد أننا لم نأبه لذلك ، فقد كنا مستعدين لهذا ولاكثر منه . وقد سبق أن ذكرت لرفاقي أننا اذا قوطعنا ، وتقطعت بنا أسباب الحياة فى الأشرم ، فإننا لن نترك أحمد أباد ، بل خير لنا أن نذهب الى حى « المنبوذين » فيها فنعيش فيه على ما نكسبه بعرق جبيننا .

وجاءني ماجنلال غاندى يوما يقول : « لقد غاضت مواردنا حتى لم يعد لدينا ما نتقات به فى الشهر القادم » . على أن هذه لم تكن أول مرة اضطر فيها الى مواجهة مثل هذه المحنة . وكان الله يبعث إلينا مددا فى كل مرة فى اللحظة الأخيرة . وكذلك فى هذه المرة . فلم تمض الا أيام معدودات حتى جاءني أحد الأطفال وهو يقول ان سيدا ينتظر فى عربته خارج الأشرم ويريد أن يرانى . وخرجت

اليه فاذا به يقول : « أريد أن أقدم للأشرم بعض العون فهل تقبلون ذلك ؟ » . وقلت له : « بكل تأكيد . بل انى لأعترف لك بأن مواردنا قد نضبت فى الآونة الحاضرة » .

وفى اليوم التالى جاءت العربى فى نفس الميعاد وأطلقت نفيها ، وجاء الينا الأطفال يحملون النبا ، فلما خرجت لمقابلة السيد اذا به يضع فى يدي من أوراق العملة ما قيمته ١٣٠٠٠ روبية ثم ينطلق بسيارته .

ولكن العاصفة التى هبت على الأشرم من الخارج بسبب انضمام دودابهاى وأسرتة الينا لم تكن شيئا يذكر بجانب العاصفة التى هبت عليه من الداخل . فعلى الرغم من أن أصدقاءنا « المنبوذين » فى جنوب افريقية كانوا يأتون الى بيتنا ، ويعيشون بيننا ، ويطمعون مما نطعم ، فان زوجتى وغيرها من النساء لم يستسغن الآن انضمام أصدقائنا « المنبوذين » الى الأشرم ، ولم يصعب على عينى وأذنى أن تتبين فتورهن ، ان لم تكن كراهيتهن ، للسيدة دانييهن . والحق أن المشكلة المسالية لم تقلق بالى ، أما هذه الزوبعة من الداخل فقد كانت أكثر مما احتمل . فقد كانت دانييهن امرأة كسائر النساء ليس فيها ما يشينها . أما زوجها فقد كان يتمتع بقسط طيب من الذكاء وان كان تعليمه محدودا . حقيقة انه كان سريع الانفعال فى بعض الحالات ، ولكننى مع ذلك كنت مأخوذا بقدرته على الاحتمال وكنت دائب التوسل اليه بأن يتعلم ازدراد بعض الاهانات الصغيرة .

ومع ذلك فقد أثبت دخول هذه الأسرة بيننا انه كان درسا مفيدا للأشرم . فلقد كنا أعلننا للملا منذ بدايته أنه لن يقر نظام

« النبذ » ولن يعترف به • ومن ثم فقد كان في مقدور كل من تحدثه نفسه بأن يمد الى الأشرم يد المساعدة ، أن يأخذ حذره من بداية الأمر • أما الآن ، وبعد أن انضمت أسرة دودابهاى الينا ، فإن بقاء عدد كبير من الهندوس – وكثيرون منهم من ذوى العقيدة السليمة – على معونتهم للأشرم كان دليلا واضحا على أن نظام المنبوذين قد أخذ يهتز من أساسه •

تشامبران هي أرض الملك جاناكا ، وكانت تكثر بها مزارع النيلة حتى سنة ١٩١٧ ، فكان على مستأجرى الأراضى فى تنك المزارع ، بحكم القانون ، أن يخصصوا ثلاثة أجزاء من كل عشرين جزءاً من أرضهم لزراعة النيلة لمنفعة الملاك .

وكان راجكومار شو كلا واحداً من المزارعين الذين يؤرقهم هذا النظام فكان تواقا الى أن يمسح عن جبينه ، وعن جبين آلاف غيره ، عار هذه الوصمة الشائنة . وقد جاءنى يطلب منى أن أزور تشامبران لأشهد بنفسى مدى ما كان يتعرض له الفلاحون فيها من يؤس وفاقة .

وهكذا غادرنا كلكتسا فى أوائل سنة ١٩١٧ فى طريقنا الى تشامبران ، فلما كنا فى الطريق اليها تخلفنا فى مظفرخان . وقد استقبلنى فيها عند المحطة الأستاذ كريبلانى ، وكان من قبل ناظرا للكلية الأميرية فيها ثم استقال من منصبه قبيل وصولنا ، فتحدث الى عن الحالة فى بيهار ، ولا سيما فى مركز تيرهوت ، كما وصف لى الصعوبات التى كان لابد أن تعترضنى فى بحثى الذى كنت مزعما الاضطلاع به . كذلك زارنى نفر من المحامين أتوا من جهات مختلفة ، فلم البث أن ألفت نفسى بينهم وكأنى ارتبطت بهم برابطة وطيدة لا تنفك عراها مدى الحياة . وشرع براجكيشور بابو يطلعنى على حقائق المسألة وتفصيلها فقد كان له المام كبير بها بالنظر الى أنه كان دائب الدفاع عن المؤجرين الفقراء فى قضاياهم أمام المحاكم .

وكان هناك عدد كبير من هذه القضايا لا يزال معلقا عندما زرت
المدينة .

وقلت لهؤلاء الأصدقاء : « اننى بعد أن درست هذه القضايا قد
وصلت الى نتيجة هامة وهى أن من الواجب الكف عن الالتجاء الى
المحاكم ، فان الالتجاء اليها لن يفيد كثيرا ، بل هو لابد أن يكون
عديم الجدوى طالما أن الفلاحين قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة
وتولاهم النعر والقلق ، ولن يكون لهم عاصم من ذلك الا أن يأمنوا
من الخوف الذى يساور نفوسهم . ونحن فى الوقت نفسه لانستطيع
أن نبقي ساكتين حتى يزول هذا النظام على مر الزمن . لقد كنت أظن
أننى سوف أستطيع أن أغادركم بعد يومين ، ولكننى أدرك الآن أن
العمل الذى أمامنا قد يطول ، وقد يقتضى منى سنتين . وأنا مع ذلك
مستعد لأن أكرس له هذا الوقت اذا اقتضى الأمر . لقد بدأت
أتحسس الأرض التى أقف عليها ولكننى فى حاجة الى مؤازرتكم » .

وقال براجكيشور فى هدوء ورباطة جأش : « اننا سنقدم لك
كل عون فى مكنتنا ، ولكن خبرنا بالله عليك ، أى نوع من المعاونة
تريده منا ؟ » .

وهكذا جلسنا نتحدث حتى انتصف الليل . قلت لهم : « اننى
لا حاجة لى بمعلوماتكم القانونية . ان كل ما أريده منكم هو المعاونة
فى الأعمال الكتابية وفى نواحي الترجمة . وقد تتعرضون فى خلال
ذلك الى السجن ، ولكننى ، على قدر ما أتمنى لكم ذلك ، أترك لكم
الحرية فى أن تسيروا فى عملكم الى الحد الذى ترون فى أنفسكم
القدرة على بلوغه وأنتم آمنون مطمئنون . بل ان ترككم عملكم فى
المحاماة الى أجل غير مسمى وانقلابكم كئيبا تقتصرون فى نشاطكم على
الأعمال الكتابية ليس فى حد ذاته بالأمر الهين على النفس . اننى

أجد صعوبة في فهم اللهجة الهندية المحلية ولن أستطيع فوق ذلك أن أقرأ الجرائد التي تنشر أخبارها باللغة الكايشية أو الأوردية ، ولذلك فسوف أطلب منكم أن تتولوا ترجمة ذلك كله لي ، اذ لا طاقة لنا على استخدام كتبة مأجورين لهذا الغرض . فهو عمل يجب أن يؤدي حسبة لوجه الله ولوجه الوطن ، .

وأدرك براجكيشور المعنى الذي قصدت اليه على الفور ، ثم شرع يستجوبني ويستجوب رفاقي واحدا بعد الآخر ، وانتهى الأمر بأن أكدوا لي جميعا عزمهم على عمل كل ما أتطلبه منهم . أما فكرة اعداد أنفسهم لحياة السجن فقد قالوا انها حياة جديدة علينا ولكننا سنحاول أن نهضمها .

٦٢ - وجها لوجه مع الكفاح المبرأ من العنف

المتسم بالمحبة (احوسا)

كان هدفي الرئيسي من زيارتي لاقليم تشامبران ، استقصاء أحوال الزراع فيها وتفهم مساويء كبار الملاك بازائهم . وكان لزاما علي تحقيقا لذلك أن أقابل الآلاف من صغار الفلاحين ، وان كنت رأيت في الوقت عينه ان من واجبي ، قبل أن أبدأ بحثي ، أن أقف كذلك علي وجهة نظر كبار الملاك ، وأن أقابل مدير الاقليم . ولذلك فقد التمسيت من كليهما تحديد موعد للمقابلة وظفرت بما التمسيت .

فأما سكرتير اتحاد الملاك فقد أخبرني في عبارة صريحة لا لبس فيها بأنني دخيل ، وأني لا شأن لي بأحكام نفسي بين الملاك ومؤاجريهم . أما اذا كان لدى مطلب فما علي الا أن أقدمه كتابة . وقلت له في أدب جم : « انني لا أعتبر نفسي دخيلا وان كان لي كل الحق في أن أستقصي أحوال المؤاجرين ما داموا هم يريدون مني ذلك»

وأما مدير الاقليم فقد شرع يهاجمني بمجرد أن قابلته ، ثم نصحني بأن أغادر تيرهوت علي الفور .

وأطلعت زملائي علي كل ما حدث ، وأوضحت لهم أن هناك احتمالا كبيرا بأن تمنعني الحكومة من مواصلة عملي ، بل انه قد يزج بي في السجن بأسرع مما أتوقع ، وانه اذا كان لا بد لي من أن أدخل السجن ، فأولى بي أن أدخله وأنا عند مدينة موتيهاري أو بيتياه ان أمكن ، واذن فالخير في أن أسافر الي هذين المكانين في أسرع وقت .

وهكذا سرت أنا وزملائي في اليوم نفسه الى مويتهارى حيث
أوانا جوراخ براساد في بيته حتى ضاق بنا وأصبح أشبه بالخان
ياوى اليه التجار فجأة وهم في رحلاتهم . وقد نما الينا في أول يوم
من أيام مقامنا به أن أحد المؤجرين قد تعرض لاساءة باللغة فاستقر
الرأى على أن نذهب لمقابلته في الصباح . واذ كنا في طريقنا اليه على
ظهور القيلة ، ولم تكن قد قطعنا نصف المسافة بعد ، لحق بنا رسول
من قبل قومندان البوليس وهو يقول ان رئيسه يبعث الى بتحياته .
وأدركت مغزى هذه التحية ، وترجلت من فوق ظهر فيلي وانتقلت
الى العربية التي جاء فيها الرسول . وما كدت أصدد اليها حتى قدم الى
انذارا بمغادرة تشامبران ، وطلب منى اقرارا باستلام هذا الانذار ،
فقدمت له كُتابة ما يفيد بأننى لا أعتزم تنفيذ ما جاء به أو مغادرة
اقليم تشامبران حتى أنتهى من مهمتى فيه . وكانت النتيجة أن
سلمنى اعلانا بالمثل أمام المحكمة في اليوم التالى ، لمحاكمتى بتهمة
عصيان الأمر الصادر الى بمغادرة تشامبران .

وسرعان ما انتشر نبأ الانذار وما تلاه من اعلان بالمحاكمة كما
تنتشر النار في الحطب ، فتجمعت حشود من الناس خارج دار المحكمة
وفى الطريق اليها حتى اضطر من كانوا معى الى الاشراف على تنظيمهم
بعد أن أحاطوا بى من كل جانب وتبعونى أينما اتجهت . فاذا ذكرنا
أن أهل تلك الجهة لم تكن لهم معرفة سابقة بى ، وأن الفلاحين فى
تشامبران لم يكن لهم عهد سابق بالأمر السياسية ، وأنهم بسبب
عزلتهم الجغرافية كانوا يجهلون ما يجرى فى سائر أنحاء الهند ،
وأنهم مع ذلك استقبلونى كما لو كنا أصدقاء العمر ، لو ذكرنا ذلك ،
فلن آكون مبالغاً اذا قلت اننى حين لقيت هؤلاء الفلاحين فانما كنت
ألقي الله ، وألقى المحبة والحق ، وان ما شاهدته منهم لا تفسير له الا
حبي للناس ، وايمانى بالكفاح المنزه عن العنف المتسم بالحب .

- انه يوم لن أنساه • ذلك اليوم الذى أمضيته فى تشامبران •
- نعم ، فلقد كانت الحكومة من الناحية القانونية هى التى تحاكمنى •
- أما من ناحية الواقع فُقد كانت هى موضع المحاكمة ، بعد أن أوقعها مدير الاقليم فى الشرك الذى نصبه لى •

٦٣ - سحب القضية

بدأت محاكمتي في الموعد المحدد لها ، وإن كانت أعصاب المدعي عن الحكومة والقاضي وغيرهما من الموظفين قد بدت وقتئذ شديدة التوتر ، فقد كانوا في حيرة من أمرهم لا يدرون ما ينبغي أن يفعلوه . وأخذ المدعي يلح على الحكومة بأن تؤجل نظر القضية ، فتدخلت أرجو من القاضي ألا يستجيب الى طلب التأجيل بالنظر الى أنني أزمع الاعتراف بذنبي في تهمة عدم اطاعة الأمر الصادر الى بمغادرة تشناببران ، ومن ثم فلم يعد ما يبرر تأجيل المحاكمة .

وارتج على القاضي والمدعي على السواء ، بعد هذا الاعتراف ، فأجل القاضي النطق بالحكم ، ثم اذا بالقاضي يبعث الى برسالة خطية يقول فيها ان نائب الحاكم قد أمر بسحب القضية . ثم وصلني بعد ذلك خطاب من مدير ادارة الضرائب في الاقليم يقول لي فيه ان لي ملء الحرية في أن أتابع التحقيق الذي كنت أجريه ، بل اننى أستطيع أن أعتمد على موظفيه في الحصول على أية مساعدة قد أجد نفسى في حاجة اليها . ولم يكن أحسد منا فى الواقع مستعدا لهذه المفاجأة السارة .

وزرت بعد ذلك مدير الضرائب المذكور ، المستر هيكوك ، وكان رجلا تبدو عليه مظاهر الطيبة ينزع الى القسط بين الناس ، فقال لي ان فى استطاعتى أن أطلب الاطلاع على أية أوراق أريد الاطلاع عليها ، وأن آتى لزيارته كلما أردت .

وهكذا تلقت البلاد أول درس عملي في العصيان المدني وأخذ الناس في تلك المنطقة يتحدثون عما كان من أمرى ، كما تناولته الصحف بالبحث والتعليق ، فلقيت حملتى التفتيشية بذلك دعاية لم تكن متوقعة .

وجاءتني عقب ذلك جموع كبيرة من الفلاحين ليدلوا بأقوالهم فيما كان لديهم من مظالم ، يصحبهم جيش من رفاقهم فملثوا حديقة البيت الذى كنت أقيم فيه حتى ضاقت بهم .

وكان على من عهد اليهم تدوين أقوالهم أن يراعوا قواعد معينة ، فكان عليهم أن يستجوبوا كل من يدلى بأقواله من الفلاحين استجوابا شاملا دقيقا وأن يتفاوضوا عن كل من وجدوا فى أقواله مثلبا أو مطعنا ، وهو اجراء ان كان قد اقتضى مزيدا من الوقت فقد ساعد على الوثوق من صحة البيانات المدونة .

كذلك كان واحد من ضباط المباحث الجنائية يحضر كلما أخذت أقوال أحد من هؤلاء المزارعين . وقد كان فى استطاعتنا أن نحول بين هؤلاء الضباط وبين ذلك ، غير اننا كنا قد قررنا من بداية الأمر ألا نكتفى بعدم الاعتراض على حضورهم بل أن نعاملهم بكل رفق وأدب وأن نزودهم بكل ما يمكن تزويدهم به من البيانات .

ولما كان هدفى أن استرضى كبار الملاك بالحسنى ، لا أن أستثيرهم أو أحنقهم ، فقد حرصت دائما على أن أكتب الى كل من وجه اليه مزارعوه بعض التهم الشديدة ، بل وذهبت لمقابلته . كذلك قابلت أعضاء اتحاد الملاك وعرضت مظالم الفلاحين عليهم وتعرفت على وجهات نظرهم ، فمنهم من كرهنى ، ومنهم من كان قليل الاكتراث بأمرى ، ومنهم من عاملنى بالأدب والحسنى .

٦٤ - لطفة « النيلة » تغسل

زاد سحق كبار الملاك وحنقهم بقدر ما زاد عدد صغار الفلاحين الذين كانوا يأتون إلينا للادلاء بأقوالهم ، فأخذوا يقلبون السماء على الأرض عساهم ينجحون فى مقاومة التحقيق الذى كنا نجريه .

ووصلنى فى أحد الأيام خطاب من حكومة بيهار هذا فحواه :
« لقد طال تحقيقكم مدة كافية ، أفلا ترون اذن أن الوقت قد آن لى تنتهوا منه وتغادروا بيهار ؟ » . لقد كانت عبارة تتسم بالأدب ولكن معناها كان لا يخفى على أحد .

وكان ردى على خطاب الحكومة أن التحقيق لابد أن يطول ، وأننى لا أعتزم الرحيل حتى ينتهى التحقيق ويؤتى نمره وحتى يزول عن المزارعين ما يرهق كاهلهم ، وأن الحكومة تملك أن تنهى هذا التحقيق اما بالاعتراف بمظالم الفلاحين والعمل على اصلاح حالهم ، واما بالاعتراف بأن مطالبهم حقة الى حد يجعلها صالحة لأن تكون موضوع تحقيق رسمى يبدأ على الفور .

ودعانى السيد ادوارد جيت نائب حاكم الولاية لمقابلته ، فلما قابلته أبدى استعداداه لتعيين لجنة للتحقيق ودعانى الى أن آكون واحدا من أعضائها ، وقد قبلت ما عرضه على بعد أن استوثقت من أسماء سائر الأعضاء واستشرت فى ذلك زملائى فى الجهاد ، واشترطت أن تكون لى حرية المداولة مع رفاقى خلال سير التحقيق ، وأن تقر الحكومة بأن عضويتى فى هذه اللجنة لا تحول بينى وبين أن

أكون المدافع عن صغار المزارعين ، وأن آكون حرا ، فى حالة فشل اللجنة فى الوصول الى علاج مرضى للحالة ، فى توجيههم الى الطريق السوى الذى يجب أن يسلكوه .

وجاء قرار اللجنة فكان فى صالح صغار المزارعين ، اذ أوصت بأن يرد الملاك اليهم جزءا من الأموال التى اغتصبوها منهم وترى اللجنة الا حق لهم فيها ، وبأن تستصدر الحكومة قانونا يلغى ذلك النظام الذى كان يفرض على المزارعين أن يخصصوا ثلاثة أجزاء من كل عشرين جزءا من أرضهم لمنفعة الملاك .

وهكذا ألغى نظام ظل قائما قرابة قرن كامل ، وانتهى بالغائه ذلك الاقطاع الذى كان يتمتع به كبار الملاك . وهكذا استطاع صغار الفلاحين أن يشعروا بكيانهم بعد أن غلبوا على أمرهم سنوات وسنوات ، وتبخرت بذلك الخرافة التى كانت تزعم بأن لطخة « النيلة » باقية لا يمكن أن تزول .

٦٥ - اتصال بالعمال

وصلنى فى حوالى ذلك الوقت خطاب من السيدة اناسويابهن تصف فيه حالة العمال فى أحمد آباد وما كانوا يلقونه فيها من شظف العيش ، فقد كانت أجورهم ضئيلة ، وكانوا قد أخذوا يتبرمون بها ويطالبون بزيادتها . ومع أننى كنت راغبا فى معاونتهم وتوجيههم فقد كنت قليل الثقة فى أن أستطيع معالجة مسألتهم وأنا بعيد عنهم ، ولذلك فقد انتهزت أول فرصة سانحة لكى أسافر الى أحمد آباد .

لقد كان موقفى من هذه المسألة غاية فى الدقة والحرص ، فقد كانت قضية العمال الذين يعملون فى مصانع الغزل والنسيج قضية حقه ، ولكن السيدة اناسويابهن كان عليها ، فى كفاحها من أجل هؤلاء العمال ، أن تكافح ضد أخيها الذى كان يتزعم أصحاب تلك المصانع . أضف الى ذلك أن علاقتى بأصحاب المصانع كانت علاقة طيبة مما كان يجعل كفاحى ضدهم أكثر حرجا لى . ومن ثم فقد كانت لى معهم مناقشات رجوت منهم خلالها أن يلجئوا فى حل خلافهم مع عمالهم الى التحكيم ، ولكنهم أبوا أن يعترفوا بهذا المبدأ .

ولم يعد أمامى بعد ذلك الا أن أشير على العمال بالاضراب عن العمل ، ولكنى قبل أن أفعل ذلك اتصلت بهم وبزعمائهم ، وشرحت لهم الظروف التى يجب توافرها لكى يكون أى اضراب ناجحا وهى :

(١) عدم الالتجاء الى العنف اطلاقا .

(٢) عدم الاعتماد على الخارجين على اجماع المضربين .

(٣) عدم الاعتماد على الصدقة والاحسان البتة .

(٤) أن يبقى المضربون ثابتين مهما طال أمد الاضراب ، وأن

يرتزقوا خلال ذلك من أى عمل شريف آخر .

وقهم زعماء حركة الاضراب هذه القواعد ووافقوا عليها ، كما تعهد العمال أنفسهم في اجتماع عام عقد لهذا الغرض بالألا يستأنفوا العمل الا في احدى حالتين ، فاما أن تقبل شروطهم ، واما أن يوافق أصحاب المصانع على احوالة الخلاف الى التحكيم .

واستمر الاضراب واحدا وعشرين يوما كنت خلالها دائب الاتصال بأصحاب المصانع أحاول أن أستحثهم على أن يقسطوا بين أنفسهم وبين عمالهم ، فكان ردهم على : « ونحن كذلك لنا عهد نرعاه . ان علاقتنا بعمالنا هي علاقة الآباء بأبنائهم . . . فكيف اذن نسمح لطرف ثالث بأن يتدخل بيننا ؟ ثم أين مكان التحكيم من هذا الخلاف ؟ » .

أبدى العمال المضربون قسطا ملحوظا من أنشجاعة وضبط النفس خلال الأسبوعين الأولين من الاضراب ، وكنت كلما حانت مناسبة أذكرهم بعهدهم الذى قطعوه على أنفسهم ، فيعيدون توكيدهم بأنهم يفضلون الموت على الحنث بعهدهم .

ولكن علامات الضعف والتخاذل أخذت تبدو عليهم بعد ذلك . فكما أن الضعف الجسمانى يتجلى فى ثورة صاحبه ونزوعه الى الانفعال ، كذلك كان مسلك العمال المضربين نحو الخارجين على اجماعهم قد أخذ يزداد عنفا وخطرا كلما وهنت عزائمهم وضعفت همتهم حتى خفت أن تتفشى الفوضى بينهم . كذلك أخذت اجتماعاتهم اليومية تتضاءل عددا وحمية يوما بعد يوم ، بل لم يعد من الصعب على المرء أن يتبين علامات اليأس والخور على وجوه من كانوا يحضرون منهم تلك الاجتماعات . وأخيرا أخذ المضربون يترنحون من أثر الاضراب مما أثار فى نفسى الحزن والكمد وجعلنى نهيا للتفكير العميق فيما يجب أن أفعله بأزاء هذا الموقف .

وأصبحت فى أحد الأيام ، وكنت لا أزال أتحسس طريقي فى الظلام ، فاذا ببصيص من النور يضىء أمامى الطريق ، واذا بهذه الكلمات تنطلق من بين شفتى فى غير عمد فأقول لنفسى : « اذا لم تتفق كلمة المضربين ، واذا لم يستمروا فى اضرابهم حتى يصلوا الى تسوية مرضية أو ينصرفوا عن مصانعهم جميعا ، فلاصومن عن كل طعام » .

ونزل هذا النذر على العمال كما ينزل السهم ، وأخذت الدموع تجري من ماتى أناسويابهن ، ثم اذا بالعمال يقولون : « لا ! لست أنت الذى تصوم بل نحن » . انه لأمر فظيع أن نراك تصوم من أجل زلتنا . نرجوك أن تغفر لنا خطيئتنا فقد عزمنا على أن نظل مخلصين لعهدنا حتى النهاية » .

وأجبتهم : « لا داعى لصومكم ، وحسبكم أن تظلوا أمناء على عهدكم . وانكم لتعلمون أن يدينا صفر من المال ، وأنتا لا تريد أن نواصل اضرابنا عن طريق استجداء الاعانات من الناس . ولذلك فان عليكم أن تحاولوا تدبير أمركم على الكفاف ، عن طريق أى عمل تؤدونه ، مهما طال أمد الاضراب . أما صومى فلن أتخلى عنه حتى ينتهى الاضراب الى تسوية مرضية » .

على أن صومى لم يكن مبرأ من النقص فى ناحية أخرى . فقد كنت ، كما قلت سابقا ، على صلة وثيقة مع أصحاب المصانع . وكان صومى لابد أن يحدث أثرا فى قرارهم النهائى . وكنت أدرك فى الوقت نفسه ، وأنا المؤمن بأصول الساتياجراها ، أننى لا حق لى فى أن أتخذ من صومى سلاحا أشهره فى وجوههم ، بل يجب أن أتركهم أحرارا فى تصرفاتهم فلا يؤثر فى قرارهم الذى يتخذونه سوى اضراب العمال وحده . وفى الحق أن صومى لم يكن الباعث عليه خطأ ارتكبه أصحاب المصانع ، بل خطيئة وقع فيها العمال أنفسهم ، وكان لى من هذه الخطيئة نصيب باعتبارى ممثلهم الذى يوجههم ويتحدث باسمهم . لقد كان كل ما أملك أن أفعله بازاء العمال هو أن أستحثهم وأتوسل اليهم . أما أن أجعل من صومى سلاحا ضد أصحاب العمل فهو أمر يصل فى جوهره الى حد محاولة اخضاعهم عن طريق الضغط والاكراه .

وحاولت أن أريح بالهم فقلت لهم : « ليس ثمة ما يدعوكم الى الصلح عن موقفكم » ولكنهم قابلوا عبارتي ببرود بل جعلوا يوجهون الى كلمات السخرية ، وكان لهم فى ذلك الحق كل الحق .

وكان امبالال القوة الكامنة وراء أصحاب المصانع . كان هو الذى يشجعهم على موقفهم الذى لا يلىن . بل لقد كانت عزيمته التى لا تتزعزع واخلاصه ووفاءه لزملائه مما أثار دهشتى ، وملك على لىبى ، وسررتى أن أكون فى موقف المعارضة من مثله . لذلك كان الأثر الذى خلفه صومى فى نفوس الطرف الآخر الذى كان امبالال يتزعمه مما حز فى نفسى .

وكان من نتيجة هذا العطف الذى كنت أبديه نحو أصحاب المصانع أن تولد شعور طيب فى نفوس الطرفين بصفة عامة ، وتأثر أصحاب المصانع لمسلكى نحوهم فشرعوا يحاولون الاهتداء الى مخرج من هذا الاضراب الى أن تدخل أناندشانكر دهورفا فى النزاع وقبل الطرفين أن يؤدى دور الحكم بينهما .

وهكذا انتهى الاضراب بعد أن دام صومى ثلاثة أيام لا أكثر . واحتفل أصحاب المصانع بهذه التسوية فأخذوا يوزعون الحلوى على العمال .

٦٧ - تطبيق الساتياجراها فى اقليم خيدا

لم يترك لى القدر من الوقت ما يكفى لكى أتنسم نسيم الراحة وهدوء البال بعد اضراب عمال النسيج فى أحمد آباد ، فلم يكد ينتهى ذلك الاضراب حتى وجدتنى مسوقا الى حركة أخرى من حركات الساتياجراها فى اقليم خيدا ، اذ كانت الأحوال فيها قد وصلت الى حد يقرب من المجاعة على اثر سنة مجدبة مما دفع الفلاحين الى بحث مسالة وقف جباية الضرائب المقررة على الأرض عن تلك السنة .

وكانت مطالب الفلاحين واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار ، وكانت من الاعتدال والقسط بحيث تشجع على قبولها . فقد كانت لائحة الضريبة على الأراضى الزراعية تجيز للسلطات أن تتنازل عن حقها فى الضرائب اذا جاء المحصول ضعيفا فلم يتعد ربع مستواه العادى . غير أن مزاج الحكومة كان على غير ما تقتضيه مصلحة هؤلاء الفلاحين ، فلم تستمع الى شكواهم ، بل اعتبرت مطالبتهم بالتحكيم أمرا يتنافى مع هيبتها وكرامتها . فلما أصبحت جميع التماسات الفلاحين وتوسلاتهم اليها غير مجدية لم يسعنى الا أن أنصحهم بالالتجاء الى سلاح الساتياجراها .

واتخذنا من أشرم (صومعة) ناديا مركزا رئيسيا لحركتنا ، فلم يكن أمامنا مكان غيره يتسع لنا جميعا .

وأضى المشتركون فى الحركة التعهد التالى :

« بالنظر الى أن الغلات الزراعية فى قرانا قد جاءت أقل من ربح مستواها العادى فقد رجونا من الحكومة أن توقف جمع الضرائب الى العام المقبل ، ولكن الحكومة أعرضت عنا ولم تستمع لرجائنا . ولذلك نعلن ، نحن الموقعين على هذا ، بأننا لن ندفع الى الحكومة ، برضائنا ، المبالغ المستحقة علينا عن هذا العام ، وبأن ندع الحكومة تتخذ من الاجراءات القانونية ما تراه ، وبأن نتحمل فى سبيل ذلك النتائج التى تترتب على امتناعنا عن الدفع . بل اننا لنفضل أن نتنازل عن أرضنا جميعا على أن ندفع هذه المبالغ راضين فنشير الشكوك فى عدالة قضيتنا ونعمل ما يؤذينا فى كرامتنا وفى احترامنا لأنفسنا . أما حين توافق الحكومة على وقف جباية القسط الثانى المستحق من هذه الضرائب فى جميع أنحاء الجهة فإن من كانوا منا فى وضع يسمح لهم بذلك سوف يدفعون المبالغ المستحقة عليهم كلها ، أو ما لا يزال باقيا منها فى ذمتهم . أما السبب فى أن القادرين منا ما يزالون ممتنعين عن دفع ما عليهم فهو أنهم لو فعلوا لاستولى الفزع على الفقراء منا وانطلقوا يبيعون متاعهم أو يستدينون فى سبيل أداء التزاماتهم ، فيزيدون أنفسهم بؤسا على بؤس وفاقة على فاقة . وفى ظروف كهذه نرى من واجب القادرين منا ، رعاية منهم للفقراء ، أن يظلوا ممتنعين عن دفع الضرائب المقررة عليهم » .

٦٨ - حرامى البصل

كان هذا النوع من الكفاح تجربة جديدة على أهل المنطقة استحوذت على قلوبهم حتى أضحووا على استعداد للتضحية بكل مالهم فى سبيل نجاحها ، فقد كان من الصعب عليهم أن يدركوا أن حركة الساتياجراها لا تستند فى نجاحها الى المال وحده ، وأن المال هو آخر ما نحتاج اليه . وهكذا أرسل الينا تجار بومباى من المال أكثر مما كنا فى حاجة اليه ، رغم كل ما أبديته من اعتراض ، حتى انتهت المعركة وكان لا يزال لدينا رصيد كبير مما تبرعوا به .

وكان أول ما استهدفته وأنا أوجه القائمين على حركة الساتياجراها فى خيدا أن أعمل على تحرير الفلاحين من الخوف ومن الذلة والمسكنة التى ضربت على قلوبهم ، وأن أجعلهم يؤمنون بأن الموظفين ليسوا سادة الناس بل خدامهم بقدر ما يتسلمون مرتباتهم من دافعى الضرائب . ومع ذلك فقد كان مما يكاد يدخل فى حكم المستحيل حمل الناس على الموامة بين التحرر من الخوف وبين مراعاة آداب اللياقة وحسن السلوك فى معاملتهم لهؤلاء الموظفين . فلو أنهم خلعوا عن أنفسهم رداء الخوف فما السبيل الى منعهم من رد الاهانة بالاهانة ؟ ثم ان كل بعد من جانبهم عن حسن الأدب فى المعاملة مع خصومهم كان لابد أن يشوب حركة الساتياجراها التى يضطلعون بها ويفسد نقاوتها ، مثل ذلك كمثل نقطة من الزرنيخ فى اناء من اللين . بل لقد علمتني التجربة فيما بعد أن رعاية حدود الأدب والتزام الحسنى فى المعاملة هما أشق نواحي الساتياجراها وأكثرها صعوبة . ولست أقصد بذلك الحسنى فى الظاهر ، مما يستطيع

المرء أن يصطنعه في بعض المناسبات ، بل الحسنى المنبعثة من أعماق النفوس ، وعن رغبة صادقة في أن تحسن لعدوك ، وهو خلق يجب أن يتسم به كل عمل سليم من أعمال الساتياجراما .

ولم يبد على الحكومة في المراحل الأولى من الحركة ، على الرغم مما أبداه القائمون بها وقتئذ من شجاعة ، أنها تعزم اتخاذ أية اجراءات مشددة قبلهم ، ولكنها بعد أن رأت منهم ثباتا في موقفهم بدأت تأخذهم بالشدة ، فأخذ الموظفون المكلفون الحجز عليهم يبيعون ماشيتهم ويستولون على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من متاعهم ومنقولاتهم ، بل لقد حجزوا في بعض الحالات على ذراعاتهم وهي ما تزال في الأرض . وكان من أثر ذلك اضعاف روح الفلاحين المعنوية ، فانصرف بعضهم الى دفع ما عليهم من التزامات ، وتطوع البعض الآخر بتقديم متاعهم للحجز عليه وفاء لما عليهم ، ولكن بعضا آخر بقوا ثابتين مصممين على الكفاح حتى النهاية المريعة .

وقد أردت أن أعيد الى القلوب الواهنة بعض شجاعتهما فنصحت فريقا منهم بقيادة موهانلال بانديا بأن يجمعوا محصول البصل من أحد الحقول التي وقع عليها الحجز ، وكان في رأيي حرجا خاطئا لا سند له . ولم أعتبر ذلك عصيانا مدنيا . وحتى على فرض انه كان كذلك ، فقد قلت لهم ان الحجز على المحصول وهو بعد في الأرض قد يكون مما يبيحه القانون ، ولكنه من الناحية الخلقية أمر مردول لا يعدو أن يكون عملا من أعمال السلب والنهب ، ولذلك كان من واجب الناس ألا يتوانوا عن جمع ما في ذلك الحقل من محصول البصل .

نعم ، فلقد كان ذلك فرصة مواتية لكي يتعلم الناس كيف يجلبون على أنفسهم الغرامة ويسعون بأرجلهم الى السجن ، وهو

ما كان لابد مترتبا على عصيانهم . ولم يكن شيء أحب الى نفس موهانلال من أن يعمل بنصيحتي ، فقد عز عليه أن تنتهى الحركة دون أن يصيب بعض الناس أذى من جرائمها كأن يدخلوا السجن بسبب عمل من الأعمال التى تقتضيها حركة الساتياجراها . ولذلك فقد تطوع الى جمع ما فى الحقل من بصل يساعده فى ذلك سبعة أو ثمانية من الرفاق .

وما كان فى مكنة الحكومة بعد هذا العمل أن تتركهم أحرارا ، فقبضت على موهانلال ومن كان معه ، فكان من أثر القبض عليهم ازدياد حماس القوم . ذلك أن الناس اذا تحرروا من خوف السجن كان الارهاب باعثا لهم على التمادى فيما هم فيه . وجاء يوم المحاكمة فكان يوما مشهودا حاصر الناس فيه مبنى المحكمة وهم على أشد ما يكونون لهفة وحماسا . وحكم على موهانلال ومن معه بالحبس مدة قصيرة .

وكان من رأيي أن هذا الحكم حكم خاطيء يجانبه الصواب ، لأن جمع البصل لم يكن مما تنطبق عليه أوصاف « السرقة » فى عرف قانون الجنايات . على أننا لم نستأنف الحكم ، فقد كانت خطئنا إلا نلجأ الى المحاكم كلما أمكننا ذلك .

وسار الناس بعد الحكم فى موكب كبير وهم يخفرون « المجرم » الى السجن . وقد ظفر موهانلال بانديا منذ ذلك اليوم بلقب خلعه عليه الناس حين أسموه « حرامى البصل » ، وهو لقب لا يزال يهنا به حتى يومنا هذا .

على أنني كنت أستطيع أن أتبين وقتئذ أن الناس قد خارت عزائمهم ، وعز على أن أرى الثابتين منهم وقد انتهوا الى خراب محقق ،

فجعلت الشمس مخرجا مما كانوا فيه من ضيق ، ينهى كفاحهم ، ويكون في الوقت عينه متمشيا مع قواعد الساتياجراها . وجاء هذا المخرج على غير انتظار ، فقد بعث الى موظف الضرائب في ناحية نالوكا يقول : « اذا دفع القادرون ما عليهم فان السلطات ستتوقف عن جباية الضرائب من الفقراء » . وأردت أن أستوثق من مدير ضرائب الاقليم اذا كان هذا القرار ينطبق على الاقليم بأجمعه فأبلغني بأن الأوامر في طريقها بالفعل لتنفيذ ما أبلغني به الموظف المذكور .

وهكذا تحقق العهد الذي كان الناس قد قطعوه على أنفسهم ، وان كانت خاتمة الحركة ، على الوجه الذي انتهت اليه ، لم ترقني ، فقد كانت تفتقر الى تلك الطلاوة وذلك الجمال اللذين يجب أن تتسم بهما كل حركة من حركات الساتياجراها . بل لقد ظل جامعو الضرائب يعد ذلك سادرين في عملهم ، كما لو أن قرارا لم يتخذ في هذا الصدد ، حتى عجز الفقراء من الفلاحين عن اثبات فقرهم فلم يفيدوا من الاعفاء الذي منحوه .

على أن هذه الحملة لم تذهب سدى . فقد أدرك الفلاحون قوتهم وتعلموا أن خلاص الناس انما يتوقف عليهم وحدهم وعلى قدرتهم على الاحتمال والتضحية .

٦٩ - جيش من أهل الهند

بدأت حملة الساتياجراها فى إقليم خيدا والحرب العالمية لا تزال مستمرة فى أوروبا ، فلما تأزم موقف بريطانيا فيها دعا نائب الملك مختلف الزعماء الى مؤتمر من أجل شئون الحرب يعقد فى دلهى ، وكنت من بين من دعوا اليه .

وذهبت الى دلهى استجابة لدعوته ، على الرغم من بعض الاعتراضات التى كانت تساورنى بشأن الاشتراك فى مثل هذا المؤتمر وفى مقدمتها استبعاد بعض الزعماء من أمثال الاخوين محمد وشوكت على (*) .

فلقد كنت أدرك ، حتى وأنا فى جنوب افريقية ، افتقاد الصداقة الحقيقية بين الهندوس والمسلمين ، فكنت لا أدع فرصة تمر دون أن أعمل على ازالة العوائق التى كانت تحول دون التقاء الجانبين . ولم يكن من عادتى فى مثل تلك الأحوال محاولة تهدئة النفوس عن طريق الملق ، أو بعمل لا يتحقق الا على حساب الاحترام الذاتى . على أن تجربتى فى جنوب افريقية قد أقنعتنى بأن مسألة الوحدة بين الهندوس والمسلمين سوف تكون المحك الحقيقى لدعوتى الى المحبة ، والى التنزه عن العنف ، بل هى سوف تكون أعظم امتحان لها .

ولما كانت هذه عقيدتى التى ظللت ثابتا عليها بعد عودتى من

(*) محمد على وشوكت على : كانا من أهم الشخصيات الاسلامية التى كانت تجاهد من أجل الخلافة .

جنوب افريقية ، فقد كان طبيعيا أن أعتز بصداقتي للأخوين محمد وشوكت علي ، ولكنني ما كدت أوثق صلتي بهما حتى كانا قد دخلنا السجن فكان مولانا محمد علي يكتب الى الخطابات المطولة كلما سمح له سجانوه بذلك ، كما طلبت أن أزورها في سجنهما ، ولكن طلبتي ذهب أدرج الرياح .

وقد انتقدني بعض أصدقائي وبعض النقاد عامة على مسلكي من مسألة الخلافة الاسلامية(ﷺ) ولكنني على الرغم من هذا النقد لا أجد ثمة ما يدفعني الى تغيير هذا المسلك ، أو يحملني على الأسف على تعاوني مع المسلمين ، بل انني لأتبع نفس المسلك الآن لو جد من الظروف ما يدعو الى ذلك .

ولهذا فلما ذهبت الى دلهي بشأن المؤتمر الذي دعا اليه نائب الملك ذهبت اليها وأنا معتزم عرض قضية المسلمين أمام نائب الملك على الرغم من أن موضوع الخلافة لم يكن قد اكتسب الأهمية التي اكتسبها في الأيام المقبلة .

على أنني ما كدت أصل الى دلهي حتى اعترضتني صعوبة أخرى في سبيل حضور ذلك المؤتمر ، فقد أثار الأب اندروز من الاعتبارات الخلقية ما كان يحول دون اشتراكي في مؤتمر يتصل بأعمال الحرب،

(*) هال المسلمين من أهل الهند في خلال الحرب الأوروبية الأولى أن يحدث لخليفة المسلمين ، أي للسلطان العثماني بوصفه الرئيس الروحي للمسلمين ، ما يهدد كيانه ، ويؤثر في مستقبل الخلافة . وقد حاول غاندى أن يظفر بمعاونة الهندوس وغيرهم من الطوائف غير الاسلامية في الهند ، لنصرة هذه القضية الهامة بالنسبة للمسلمين في الهند وخارج الهند على السواء .

وأطلعنى على الجدل الذى كان يدور فى الصحف الانجليزية وقتئذ بشأن معاهدات سرية قيل انها عقدت بين انجلترا وايطاليا ، ثم سألتنى كيف يجوز لى أن أشارك فى مثل هذا المؤتمر اذا كانت انجلترا قد ارتبطت بمعاهدات سرية مع دولة أوروبية أخرى . ولم أكن فى الحقيقة أعرف شيئاً عن تلك المعاهدات ، ولكن كلام اندروز قد قطع جهيزة كل قول بالنسبة لى . ومن ثم فقد حررت الى اللورد تشلمسفورد ، نائب الملك ، خطاباً شرحت له فيه ترددى فى الاشتراك فى أعمال المؤتمر .

ودعانى اللورد تشلمسفورد الى مقابلته لبحث هذه المسألة معه فكان لى حديث طويل فى ذلك معه ومع سكرتيره المستر مافى وافقت على اثره على الاشتراك فى أعمال المؤتمر . والى القارىء حجة نائب الملك فى حديثه معى . قال : « لا شك أنك لا تعتقد بأن نائب الملك يعرف كل قرار قد يتخذه مجلس الوزراء فى بريطانيا . وأنا لا أزعم ، ولا أحد غيرى يزعم ، بأن الحكومة البريطانية منزهة عن كل خطأ . ولكنك اذا كنت توافقنى على أن الامبراطورية كانت على وجه العموم عاملاً من عوامل الخير ، وأمنت بأن الهند قد أفادت بصفة عامة من ارتباطها بهذه الامبراطورية ، أفلمست ترى أن واجب كل هندی فى تلك الحالة أن يساعد الامبراطورية فى وقت محنتها ؟ اننى مثلك قرأت ما جاء فى الصحف البريطانية عن تلك المعاهدات السرية ، وأستطيع أن أوكد لك بأننى لا أعرف من أمر تلك المعاهدات أكثر مما كتب عنها فى تلك الصحف ، وأنت تعرف بعض أكاذيب الصحف أحياناً . فهل تستطيع ، اعتماداً على مجرد روايات ترد فيها ، أن تمتنع عن معاونت الامبراطورية فى مثل هذا الظرف العصيب ؟ انك تستطيع أن تتبر ما تشاء من الاعتبارات الخلقية ، وأن تتحدانى بقدر ما تستطيع ، ولكن بعد نهاية الحرب ، لا فى هذه الآونة الحرجة . »

ولم تكن حجة نائب الملك بالحجة الجديدة ، ولكنها بدت جديدة
لى فى تلك اللحظة بسبب الطريقة التى عرضت بها ، والوقت الذى
عرضت فيه . ومن ثم فقد وافقت على حضور المؤتمر . أما عن مطالب
المسلمين فقد اتفق على أن أبعث بشأنها خطابا الى نائب الملك .

وهكذا حضرت المؤتمر . وكان نائب الملك حريصا على أن يرانى
أعضد القرار الخاص بتعبئة الهنود ، فطلبت الاذن بالكلام باللغة
الهندية ، ووافق نائب الملك على طلبى ، ولكنه اقترح أن أتحدث
باللغة الانجليزية كذلك . وما كنت معتزما فى الواقع أن أتحدث ،
فقد نطقت بجملة واحدة قلت فيها : « اننى ادراكا لمسئولياتى أشرف
بأن أركى هذا القرار » .

والآن ماذا عساي أن أفعل لكى أجمع المتطوعين ؟ ثم من أين
أبدأ الا أن يكون ذلك من اقليم خيىدا ؟ ومن ذا الذى أستطيع أن
أدعوه الى التطوع فىلبنى غير زملائى فى الكفاح ؟ ولذلك فما كدت
أصل الى نادىاد حتى عقدت مؤتمرا من بعض أصدقائى فى ذلك
الاقليم لبحث المسألة معهم . فأما بعضهم فلم ترقهم الفكرة ، أو هم
لم يتقبلوها بسهولة . وأما من راقتهم فقد انتابتهم الشكوك فى مدى
نجاحها . ذلك أنه لم يكن بين الحكومة وبين طبقات الشعب التى كنت
أعتمد عليها فى ذلك حب مفقود ، فقد كانت ذكرياتهم المريرة عن
معاملة موظفى الحكومة لهم لا تزال عالقة فى أذهانهم .

وما أعظم الفرق بين حالتين ! فبينما كان الناس خلال حملة
الضرائب يقدمون الينا عرباتهم عن طيب خاطر وبلا مقابل ، وكنا اذا
احتجنا الى متطوع تقدم الينا اثنان ، كان من الصعب علينا الآن أن
نحصل على عربية واحدة ولو بأجر ، فما بالك بالحصول على متطوعين
للاضمام الى فرق الجيش ؟ ولم نياس مع ذلك . فقررنا الاستغناء عن

العربات ، وأن تنتقل في تجوالنا سيرا على الأقدام ، فكان علينا أن نقطع قرابة عشرين ميلا في اليوم . ثم إذا كان الناس يضمنون علينا بعرباتهم ، فقد كان من العبث أن ننتظر منهم أن يطعمونا . ولذلك قررنا أن يحمل كل متطوع منا حاجته من الزاد في حقيبته . أما الفراش والغطاء فلم تكن بنا حاجة الى كليهما ، فقد كان الوقت صيفا .

كنا نعقد الاجتماعات أينما ذهبنا . وكان الناس يحضرون إليها . ولكن قلما كان يتقدم منهم للمتطوع سوى واحد أو اثنين . كان الناس يقولون لي : « انك تدعو الى المحبة وتحض على التنزه عن العنف فكيف بك تطلب الينا الآن أن نحمل السلاح ؟ » ، كما كان بعضهم يتساءل : « ماذا فعلت الحكومة من أجل الهند حتى تستحق تعاوننا معها ؟ » .

على أن جهودنا سرعان ما أخذت تؤتي ثمرها بعد ذلك تدريجيا ، فأخذ عدد لا بأس به من المتطوعين يقبلون على تسجيل أسمائهم . وكنت في ذلك الوقت أوزع المنشورات أستحث فيها الناس على التطوع فكان من بين الحجج التي كنت أستخدمها في سبيل ذلك حجة لم يستسغها حاكم الاقليم ، فقد كنت أقول لهم : « ان التاريخ وهو يحكم على مساوىء الحكم البريطانى في الهند سوف يحكم على القانون الذى يحرم شعبا بحاله من السلاح على أنه أسوأ ما فى ذلك الحكم . فاذا أردنا أن نلغى قانون حمل السلاح ، وإذا أردنا أن نتعلم استخدام السلاح ، فما هى فرصتنا الذهبية . فاذا أتيح للطبقات المتوسطة الآن أن تؤدى للحكومة فى ساعة حرجها معونة اختيارية زال سوء الظن بين الفريقين وألغى تحريم حمل السلاح » . وقد أشار الحاكم الى هذه العبارة بقوله : انه يقدر جهودى على الرغم من الفوارق بيننا فى الرأى .

٧٠ - قانون راولات (ج)

ما كدت أتمائل للشفاء من مرض شديد ألم بي حتى وقع نظري في الصحف صدفة على تقرير للجنة راولات ، فهالتني التوصيات التي جاءت في ذلك التقرير ، ثم اتصل بي شانكرلال بانكر وأوبار سوباني بعد ذلك يقترحان على أن أتخذ إجراء عاجلا في هذا الموضوع ، فلم يمض شهر حتى كنت قد ذهبت إلى أحمد آباد . فلما كنت فيها ذكرت لصديقي فالابهيهاى ، وكان يعودنى كل يوم تقريبا ، ما كان يعمل في نفسى من المخاوف من جراء تلك التوصيات وقلت له : « لا بد من عمل شيء » ، وسألنى : « وماذا عسانا نستطيع أن نفعل فى مثل تلك الظروف ؟ » ، وأجبتة : « اننا لو ظفرنا بعدد أصابع اليد من الرجال الذين يقبلون أن يوقعوا على تعهد بالمقاومة ومرت التوصيات بعد ذلك حتى صارت قانونا فان من واجبنا فى تلك الحالة أن نشرع فى ممارسة الساتياجراها على الفور . والواقع أننى لو لم أكن مريضا كما ترانى لخضت المعركة وحدى على أمل أن يتبعنى غيرى . أما وأنا فى حالتى الراهنة من الضعف فانى أجد نفسى غير ند لهذا العمل » .

وكان من نتيجة هذا الحديث أن تقرر الدعوة إلى اجتماع صغير ممن كانوا على صلة بى . ولما كان كل أمل فى أن تنضوى أية

(ج) صدر هذا القانون فى سنة ١٩١٩ فأعطى للحكومة سلطات خاصة فى سبيل قمع الحركات الموجهة ضد سلامة الدولة وأباح لها القبض على الأشخاص الذين يشتبه فى أن لهم نشاطا معاديا للحكومة وحجزهم دون محاكمة .

منظمة من المنظمات القائمة تحت لواء حركة كحركة الساتياجراها هو
أهل ضائع لا محالة فقد تقرر ، بناء على اقتراحي ، أن ننشئ هيئة
مستقلة اسمها لجنة الساتياجراها .

على أنني تبينت من بداية الأمر ان هذه اللجنة لا يحتمل أن
تحيا طويلا بعد أن رأيت بعض أعضائها ينظرون الى تمسكي بالحق
واصرارى على البعد عن العنف بشيء من الاشمئزاز والضمجر . ومع
ذلك فقد سار نشاطنا الجديد فى بداية الأمر بخطوات سريعة
وتبلورت حركتنا تبلورا ملحوظا .

ومع أن مشروع القانون لم يكن قد نشر فى الجريدة الرسمية
بعد كقانون من قوانين الدولة النافذة فلم تكد تصلنى دعوة من
مدراس حتى قررت أن أسافر اليها على الرغم مما كان فى ذلك من
مخاطرة بصحتى . وكان راجا جوبالتشار قد استقر بها منذ فترة
قصيرة ، فكنا دائبى التفكير فى الخطة التى يجب أن يسير عليها
كفاحنا . على أنني بعد أن وصلت اليها استعصى على التفكير فيما هو
أكثر من عقد الاجتماعات العامة ، وألفت نفسى فى حيرة لا أدرى
كيف أبدأ حركة الكفاح احتجاجا على مشروع راولات لو قدر لهذا
المشروع أن يصبح قانونا ، اذا ما سبيلنا الى عصيان قانون لم تهيب
لنا الحكومة بعد فرصة عصيانه ؟ وهل فى استطاعتنا دون ذلك ، من
الناحية الأدبية ، أن نعصى غيره من القوانين القائمة ؟ واذا كان ذلك
جائزا فما هو الحد الفاصل فى كل ذلك ؟ هذه وغيرها من الأسئلة
كانت موضوع مناقشاتنا الدائمة .

وبينما هذه الأفكار تراودنا اذا بالأنباء تصلنا بأن مشروع
قانون راولات قد أصبح قانونا وأنه نشر بالجريدة الرسمية . ونمت
ليلتها وأنا أفكر فى الموضوع ، فلما كانت الساعات الأولى من الصباح

صحوت مبكرا عن عادتي كل يوم ، وكنت لا أزال فى مرحلة الغفوة التى تفصل بين النوم وبين الإدراك ، حين هبطت على الفكرة التى كنت أبحث عنها فجأة وبلا مقدمات ، كما لو كنت فى حلم .

وقلت لراجا جوبالتشارى بعد أن طلع النهار : « لقد جاءتنى فكرة وأنا فى حلم فى الليلة الماضية ، هى أن ندعو البلاد الى اضراب عام ، فالساتياجراها ما هى الا عملية من عمليات تطهير النفس ، وكفاحنا كفاح مقدس . وقد بدا لى أن من صواب الرأى أن نبدأ كفاحنا بعمل من أعمال تطهير النفس . واذن فليتوقف الناس فى جميع أرجاء الهند عن عملهم فى أحد الايام وليحتفلوا به كيوم من أيام الصوم والعبادة . وقد يصعب أن نتنبأ بما اذا كانت جميع المقاطعات سوف تستجيب لدعائنا ، ولكنى أكاد أطمئن الى ما سوف يفعله السكان فى مقاطعات بومباى ومدراس وبيهار والسند . وما من شك فى أنه اذا راعى أهل تلك المقاطعات الاضراب فى ذلك اليوم فان ذلك وحده كاف لبعث الشعور بالرضى الى نفوسنا » .

وراق اقتراحى لراجا جوبالتشارى ، كما رحب به غيره من الأصدقاء حين علموا به . وحدد يوم ٣٠ مارس سنة ١٩١٩ يوما للاضراب المنشود ثم عدل هذا الموعد الى يوم ٦ ابريل . لقد كان هذا الموعد لا يترك للناس فسحة كافية من الوقت ، غير أنه بالنظر الى ضرورة البدء بالاضراب على الفور ، لم يكن فى استطاعتنا أن نهيبهم لهم فسحة أطول .

ومع ذلك فقد راعت الهند من أولها الى آخرها هذا اليوم ، بما فيها من مدن ومن قرى ودساكر . لقد كان يوما مشهودا .

٧١ - ذلك الأسبوع الخالد

وصلت الى بومباى بعد جولة قصيرة فى جنوب الهند ، وكان الاستعداد فيها على قدم وساق لبده العصيان المدنى الذى دعوت اليه فى جميع أرجاء البلاد . وقد تناقشنا فى مسألتين أو ثلاث تتصل بهذه الحركة واستقر رأينا على ألا يدعى الناس الى تحدى القوانين الا ما كان منها يسمح بطبيعته لأن يكون موضع تحدى الناس عامة . وكانت ضريبة الملح (❦) ضريبة منفرة ، مبغضة الى قلوب الناس جميعا ، ومن ثم فقد اقترحت أن يقوم الناس باستخراج حاجتهم من الملح فى بيوتهم مما يحملونه اليها من ماء البحر ، متحدين فى ذلك قانون الملح . أما اقتراحى الآخر فى هذا الصدد فقد كان متعلقا بالمطبوعات المنوعة ، وقد رأيت وقتها أن كتابين من كتبى وهما « استقلال الهند » و « سارفودايا » (وهو اقتباس لكتاب راسكين حتى هذه النهاية) كتب باللغة الجوجيرائية (يصلحان لأن يكونا مادة لحركة العصيان المدنى ، اذ بدا لى أن طبعهما وبيعهما هما أسهل وسيلة من وسائل العصيان المدنى . وهكذا طبعنا عددا كافيا منهما واتفقنا على بيعهما عقب انقضاء الاجتماع الحاشد الذى كان مقررا أن يعقد فى المساء بعد انقضاء يوم الصوم الذى دعونا اليه .

(❦) اختار غاندى ضريبة الملح مادة لكفاحه لأنها كانت ضريبة تؤذى الفقراء بالنظر الى أن الملح كان يدخل فى اعداد كثير من ألوان الطعام التى يأكلونها .

فلما جاء يوم ٦ ابريل انطلق جيش من المتطوعين يبيعون هذين الكتابين ، وهما من الكتب المنوعة ، للناس علنا . وكان من المقرر أن تنفق المبالغ التي تتأتى من بيعهما في دعم حركة العصيان . وقدر ثمننا للنسخة الواحدة من كل منهما أربع ائات (١٦ مليا) ، وان كنت لا أذكر أن شخصا واحدا اشترى احدهما بثمانها الإسمى ، فقد كان عدد كبير من الناس يفرغون ما فى جيوبهم من النقود ثمنا للنسخة الواحدة ، وكان مبلغ خمس أو عشرة روبيات يدفعها بعضهم فى سبيل شراء نسخة واحدة أمرا عاديا . بل انى لأذكر أن نسخة يبعث بخمسين روبية .

وقد أطلعنا الناس وقتها على ما يتعرضون له من خطر السجن بسبب شرائهم لهذه المطبوعات المنوعة ، ولكنهم كانوا فى تلك اللحظة قد خلعوا عن أنفسهم رداء الخوف من السجن أو الاعتقال . على أن الحكومة اعتبرت إعادة طبع الكتب المنوعة على أنه صور جديدة من هذه الكتب ومن ثم فلم يكن يبيعها مما يقع تحت طائلة القانون . وقد بعث ذلك الخبر فى نفوس الناس عامة كثيرا من الحسرة وخيبة الأمل .

ورحلت الى دلهى وامريتسار فى اليوم السابع من الشهر ، فلما وصلت الى ماتهورا فى اليوم الثامن ترامت الى الشائعات بأن من الجائز أن يقبض على . ثم جاءنى اتشاريا جيدفانى فى المحطة التالية فأكد لى قرار القبض على ، وعرض على خدماته اذا كنت فى حاجة إليها .

وقبل أن يصل انقطار الى محطة سكة حديد بالوال وصلنى أمر كتابى بمنعى من دخول ولاية البنجاب بحجة أن وجودى بها من شأنه أن يؤدى الى وقوع اضطرابات فيها . وطلب الى البوليس مغادرة

القطار ولكنني أبيت أن أطيع هذا الأمر وقلت لهم : « انني أريد أن اذهب الى البنجاب استجابة لدعوة ملحة من بعض أهلها ، لا لأثير الاضطرابات ، ولكن لأخفف من حداثها . ولذلك يؤسفني أنني لا أستطيع الرضوخ لهذا الأمر » .

وأخرجت عنوة من القطار ووضعت في رعاية البوليس الى أن وصل قطار آخر قادما من دلهي فوضعت في إحدى عربات الدرجة الثالثة به تصحيتي ثلة من رجال البوليس . فلما وصلنا الى ماتهورا ساروا بي الى إحدى ثكنات البوليس . فلما كانت الساعة الرابعة من فجر اليوم التالي أيقظوني ثم دفعوا بي دفعا الى قطار من قطارات البضاعة كان في طريقه الى بومباي .

فلما وصلنا الى أطراف المدينة قال لي ضابط البوليس : « انك الآن حر طليق ، وان كان خيرا لك لو أنك نزلت عندي حين البحارة(*) حيث أستطيع أن أوقف القطار من أجلك ، فقد يحتمل أن تجد في حي كولايا حشدا كبيرا من الناس » . وهكذا غادرت القطار عند حي البحارة ، وتصادف أن كانت سيارة صديق لي تمر في تلك اللحظة فحملتني الى بيت رفاشانكر جهافري حيث علمت منه بأن نبا القبض على قد أثار نائرة الناس وأحنتهم على السلطات ودفعهم الى شبه حالة من الجنون أصبح يخشى معها وقوع اضطرابات عنيفة في حي بيدهوني حيث حشدت السلطات قوات كبيرة من البوليس .

ولم أكد أستقر في بيت صديقي حتى جاءني أومار سوباني والسيدة اناسويابهن وطلبنا مني أن أتوجه بالسيارة على الفور

(*) أحد الأحياء الرئيسية في مدينة بومباي .

الى حى بيدهونى وهما يقولان : « لقد فرغ صبر الناس وأصبحوا
فى حالة شديدة من الهياج حتى استعصى علينا أن نهدىء من ثورتهم،
وما من شىء يمكن أن يعيد اليهم هدوءهم سوى وجودك بينهم » .

وركبنا السيارة حتى اذا كنا على مقربة من حى بيدهونى ألفت
الجموع الحاشدة وقد وقفت كالبنيان المرصوص . فلما وقع نظرهم
على فرحوا بوجودى فرحا لا مزيد عليه ثم ساروا فى موكب ضخم
وهم يهتفون فيتردد هتافهم فى عنان السماء : « يحيا الوطن ! الله
أكبر ! » وسرنا حتى وصلنا الى حى بيدهونى فشاهدنا رجال
البوليس وقد أخذت الحجارة تتساقط فوق رؤوسهم من كل صوب .
ووقفت أناشيد المتجهمين أن اهدءوا ، ولكن الموقف بدا كما لو كان
من المستحيل علينا أن ننجو بأنفسنا من سيل الحجارة التى كان
المتظاهرون يمتطرون بها رجال البوليس . واندفع موكب المتظاهرين
بعد ذلك من شارع عبد الرحمن الى سوق كروفورد فاذا بهم يجدون
أنفسهم وجها لوجه مع فريق من رجال البوليس وقد امتطوا خيولهم
ووقفوا مستعدين للقاء المتظاهرين والحيلولة بينهم وبين مواصلة
سيرهم نحو حصن المدينة . وازداد تراحم المتظاهرين فى تلك
اللحظة حتى التفت الساق بالساق فاندفعوا نحو رجال البوليس
يريدون أن يشمقوا طريقهم من خلال النطاق الذى ضرب حولهم ، بل
كادوا يفلحون .

وما كان من المعقول أن يصل صوتى فى مثل هذا الحشر الى
أذان الناس . وفى تلك اللحظة الرهيبة أعطى ضابط البوليس الأمر
لرجالهم بتفريق المتظاهرين ، فانطلقوا نحوهم وهم فوق خيولهم
يلوحون بحراهم فى الهواء ، وسرعان ما تشتتت الجموع المحتشدة
فى كل اتجاه ، واضطرب أمرهم ، وتعالصت أصواتهم ، بعد أن وقع

بعضهم تحت سنابل الخيل ، وأوذى البعض الآخر فى جسده ونفسه
• إيذاء شديدا

وفى وسط هذه الكتل البشرية المتماوجة استبحال على الخيل أن
تشق لنفسها طريقا ، كما استبحال على الناس فى الوقت ذاته أن
يجدوا لأنفسهم منفذا يتفرون منه • وهكذا جعل فرسان البوليس
يندفعون بخيولهم على غير هدى ، حتى ليستحيل على أن أتصور
أنهم كانوا يدركون فى تلك اللحظة ما يفعلونه بالناس • لقد كان
موقفا رهيبا اختلط فيه الفرسان بالناس اختلاطا جنونيا •

وتفرق المتظاهرون فى النهاية ، وحيل بينهم وبين مواصلة
السير فى مواكبهم • وسمح لنا أخيرا بالسير ، فلما وصلنا الى مكتب
مدير البوليس ترجلت وذهبت أشكو له مسلك رجاله •

وطال بنا الجدل ، فقد استبحال علينا أن نتفق ، وقلت له فى
النهاية اننى أعزم أن أخطب فى الناس فى اجتماع عام فى حى
تسوباتي(*) لكى أستحثهم على المحافظة على النظام ، وطلبت منه أن
يسمح لى بذلك • وعقد الاجتماع فوق الرمال القريبة من البحر
وتحدثت فيه حديثا مستفيضاً عن واجب الناس من حيث انبعت عن
كل عنف وعن الحدود التى تفرضها الساتياجراها ، وقلت لهم :
« ان الساتياجراها هى سلاح الحق ، والمؤمن بها ينبغى أن ينأى
بنفسه عن العنف ، ولذلك فاننى سأكف عن الدعوة الى ممارسة
الساتياجراها الى أن يتعلم الناس كيف يرعون أصولها بأفكارهم
وبألسنتهم وبعقولهم » •

(*) أحد « بلاجات » مدينة بومباى •

ولم تلبث السيدة اناسويابهن أن سمعت بأن اضطرابات عنيفة قد عمت مدينة أحمد آباد كذلك على اثر شائعة أشاعها بعض الناس بأنها هي كذلك قد قبض عليها ، فاستشاط عمال مصانع النسيج غضبا لهذا القبض المزعوم وأضربوا عن العمل ثم أوغلتوا في بعض أعمال العنف مما أدى الى قتل أحد الجاويشية .

وذهبت الى أحمد آباد فعلمت فيها بأن الناس قد حاولوا رفع قضبان السكة الحديد على مقربة من محطة نادياد ، وبأن أحد موظفي الحكومة قد قتل عند فيرماجام ، وبأن مدينة أحمد آباد قد أصبحت تثن تحت نير الأحكام العرفية ، وبأن الناس فيها يعيشون في خوف مقيم بعد أن أسرفوا في أعمال العنف فحقت عليهم نعمة الحكومة بأكثر مما كانوا يستحقون .

وذهبت لمقابلة المستر برات مدير البوليس فوجدته في حالة شديدة من الغضب ، ولكنني تحدثت اليه في رقة ودعة ، وعبرت له عن أسفى على ما حدث من اضطرابات ، واقترحت عليه الغاء الأحكام العرفية مبديا استعدادى للتعاون معه في كل ما عساه يبذله من جهود لاعادة الهدوء والسكينة الى المدينة ، واستأذنته في عقد اجتماع عام في فناء صومعة سابرماي . وراق له هذا الاقتراح ، وعقد الاجتماع بالفعل ، وكان على ما أظن في يوم الأحد ١٣ أبريل . وقد ألغى الحكم العرفى في المدينة في اليوم التالى أو لعله ألغى بعد ذلك بيوم .

وقد حاولت وأنا أخطب في الناس في هذا الاجتماع أن أحملهم على ادراك الخطأ الذى وقعوا فيه ، وأعلنتهم بأننى سوف أصوم ثلاثة أيام توبة وندما ، وناشدتهم أن يصوموا مثلى يوما واحدا ، كما نصحت أولئك الذين ارتكبوا عملا من أعمال العنف بأن يعترفوا بذنبيهم .

لقد كان واجبي في هذا الصدد واضحا أمامي وضوح الشمس في رابعة النهار ، فقد ضاقت نفسي وامتلا قلبي حسرة عندما علمت بأن العمال الذين عشت بينهم بعض أيامي ، وعملت من أجلهم ، وكنت أنتظر منهم أن يسلكوا مسلكا خيرا من ذلك ، قد اشتركوا في أعمال الشغب ، وشعرت من أجل ذلك بأنني شريكهم في اثمهم .

وكما دعوت الناس الى الاعتراف باثمهم ، كذلك دعوت الحكومة الى التغاضي عن جرمهم ، ولكن واحدا من الطرفين لم يستجب لدعائي .

وجاءني المغفور له السير رامانباي وغيره من أهل الرأي في المدينة يطلبون مني وقف حركة الساتياجراها ، وما كانت بهم حاجة الى ذلك ، فقد كنت قررت بيني وبين نفسي وقفها بالفعل طالما الناس لم يتعلموا درس السلام .

ومع ذلك ، فاذا كان الوفد الذي جاءني يرجو وقف حركة الساتياجراها قد سعد بهذا القرار فقد شقي له كثيرون ، أولئك الذين أحسوا بأنني اذا كنت أنشد السلام في كل مكان وأراه شرطا سابقا على مزاوله الساتياجراها ، فان معنى ذلك استحالة مزاولتها يوما ما . ولقد أحزنتني أن اختلف مع هذا الفريق من الناس في الرأي . فاذا كان أولئك الذين عملت معهم وكنت أنتظر منهم أن يعودوا أنفسهم التنزه عن العنف ، مهما كان في ذلك من عذاب للنفس ، لا يستطيعون أن يناووا بأنفسهم عن الانغماس في أعمال العنف فان الساتياجراها ولا شك تصبح أمرا مستحيلا . فلقد كنت مؤمنا بأن من كانوا يريدون أن يدفعوا الناس الى مزاوله الساتياجراها عليهم أولا أن يعملوا على ابقاء الناس في حدودها المرسومة فلا يتعدوها .

ولا زلت أومن بهذا الرأي حتى يومنا هذا .

٧٢ - خطأ جسيم في التقدير

ذهبت الى نادياى على الفور عقب الاجتماع العام فى أحمد آباد . وكنت وأنا لا أزال فى أحمد آباد قد أدركت بصورة مبهمه الخطأ الذى وقعت فيه حين دعوت الناس الى العصيان المدنى ، ولكنى بعد أن وصلت الى نادياى ، ورأيت الأمور فيها على حقيقتها ، وسمعت الروايات تجرى بأن عددا كبيرا من أهل اقليم خيدا قد قبض عليهم ، بدأ يتكشف لى أننى ارتكبت خطأ أشد جسامة مما كنت أتصور حين طلبت الى الناس ، فى ذلك الاقليم وفى غيره ، أن يبدؤوا حملة العصيان قبل أن تنهيا نفوسهم لذلك ، كما وضع لى الآن . واعترفت للناس بذلك وأنا أخطبهم فى اجتماع عام ، فكان اعترافى باعثا على سخريتهم فأخذوا يمتروننى بعبارات السخرية والتهكم . على أننى لم أندم يوما على هذا الاعتراف ، فقد كان من رأيى دائما أن المرء لن يستطيع أن يصل الى تقدير نسبى بين أخطائه وأخطاء غيره الا اذا نظر الى أخطائه بمنظار مكبر والى أخطاء غيره بمنظار عادى . كذلك كان من رأيى أن مراعاة هذه القاعدة بنمة وضمير أمر لا غنى عنه لمن أراد أن يكون تابعا من أتباع الساتياجراها .

ولننظر الآن كيف كان هذا الخطأ الجسيم فى التقدير . ذلك أن على المرء ، قبل أن يصبح أهلا لممارسة العصيان المدنى ، أن يتعلم طاعة قوانين الدولة عن رغبة فيها واحترام لها . فان المرء لن يكون فى وضع يستطيع منه أن يحكم على قيمة القوانين ، وأن يميز بين الطيب منها والخبيث ، العادل منها والظالم ، الا اذا كان قد أطاع

قوانين الدولة وأخلص لها • بذلك وحده يكتسب الحق فى ممارسة
العصيان المدني لبعضها فى ظروف معينة •

أما فى هذه الحالة فقد دعوت الناس الى ممارسة العصيان
المدنى قبل أن يكونوا أهلا لذلك • وبدا لى هذا الخطأ مجسما الآن ،
اذ ما كدت أدخل اقليم خيدا حتى عادت الى ذكرياتى القديمة عنه وما
كان لنا من كفاح فيه من قبل ، وعجبت لى نفسى كيف يمكن أن آكون
قد عجزت عن ادراك هذه الحقيقة الواضحة • نعم ، لقد أدركت الآن
أن من واجب الناس قبل أن يمارسوا العصيان المدني أن يتفهموا
مقتضياته ، وأن يقفوا على كنهه وحدوده • وما دام الأمر كذلك فقد
أصبح من واجبى ، قبل أن أعاود حملة العصيان المدني ، أن أنشئ
جماعة من المتطوعين ممن خلصت نفوسهم ، وصفت قلوبهم من
الأدران ، وامتحنوا فى عقيدتهم ، لكي يتفهموا الشروط التى يجب
توافرها فى كل حركة من حركات الساتياجراها فيستطيعوا بدورهم
أن يشرحوها لعامة الناس ويسهروا على التأكد من أنهم يسرون فى
الطريق السوى •

وذهبت بعد ذلك الى بومباى ورأسى يزدحم بهذه الأفكار ، فما
كدت أصل إليها حتى شرعت أنشئ فريقا من المتطوعين من أنصار
الساتياجراها ، وأخذت أستعين بهم فى تعليم الناس المعانى العميقة
التي تكمن وراءها ، وكانت المنشورات الملائمة التى تغرس هذه
التعاليم فى عقول الناس من أهم الوسائل التى استعنا بها •

وقد تبين لى رغم هذا النشاط أن مهمة حمل الناس على تبين
الجانب السلمى من حركة الساتياجراها لم تكن مهمة سهلة ميسرة ،
فقد تقاعس عدد كبير عن التطوع لأداء هذه الخدمة ، ومن تطوعوا

كثيرا ما كانوا يتخلفون عن تلقي تدريبيهم بانتظام ، ثم لم تلبث أعدادهم أن تضاءلت بدلا من أن تنمو وتزداد .

ولجأت بعد ذلك الى جريدتي « نافا جيفان » و « الهند الفتاة » أستعين بهما على تحقيق مهمتي وتعليم الرأي العام المتنور آداب الساتياجراها ، وان كان توزيعهما قد هبط هبوطا ملحوظا عقب اعتقالى .

وقد عارضت منذ البداية فى تخصيص بعض أعمدة هاتين الجريدتين للاعلانات . ولا أظن أنهما خسرتا بذلك شيئا ، بل على العكس لعلهما قد كسبتا من وراء ذلك القدرة على الاحتفاظ باستقلالهما .

ومن ناحية أخرى فقد ساعدتنى هاتان الجريدتان على أن أظل فى سلام مع نفسى بعد أن أصبح الالتجاء الى العصيان المدنى فورا مسألة خارجة عن نطاق البحث ، بما هيأتاه لى من وسيلة للتنفيس عن آرائى والتعبير عن مشاعرى بحرية ، وما زودتاني به من وسيلة لبث روح جديدة فى قلوب الناس .

٧٣ - مؤتمر امرتسار

كان الاعلان الملكى الذى يتضمن الاصلاحات الجديدة(*) قد صدر منذ فترة قصيرة ، ولم تكن تلك الاصلاحات مرضية من جميع جوانبها حتى من وجهة نظرى . أما فى نظر الكثيرين غيرى فقد كانت غير مرضية بالمرّة . ومع ذلك فقد كنت أشعر فى ذلك الوقت أن من الممكن قبولها على الرغم مما كان يعتورها من عيوب .

أما ديشابندهو تشيتارانجان داس(**) فقد كان رأيه على عكس ذلك . فقد تشبث بضرورة رفض تلك الاصلاحات من أساسها على اعتبار انها غير كافية وغير مرضية جملة وتفصيلا . وأما المغفور له لوكامانيا فقد كان أميل الى الحياد وان كان فى الوقت نفسه معتزما أن يلقي بدلوه الى جانب أى مشروع يراه ديشابندهو مرضيا .

على أن فكرة اختلافى مع مثل هذه الشخصيات المجربة ، التى

(*) وتعرف كذلك باصلاحات مونفورد . وقد صدرت فى سنة ١٩١٩ وكانت تقضى بإنشاء حكومات ثنائية فى بعض الولايات فيعهد بعض الوزارات فيها الى وزراء من الهنود ويترك البعض الآخر فى أيدي البريطانيين . أما الحكومة المركزية فقد كانت خارجة عن نطاق هذه الاصلاحات .

(**) أحد أعضاء المؤتمر الوطنى الهندى البارزين وهو من ولاية بنغال .

حنكها الدهر ، وكان لها من المكانة فى نفوس الناس عامة ومن حسن تقديرهم الشيء الكثير ، كانت أكثر مما أطيع . غير أن صوت الضمير مع ذلك كان واضحا بينا ، فحاولت أن أتخلف عن جلسات المؤتمر الوطنى وعرضت على بانديت مالافيا وبانديت موتيلال(❖) أنه قد يكون من المصلحة العامة لو أننى تغيبت عن جلسات المؤتمر الى نهاية دورته الحالية ففى ذلك خلاص لى من ضرورة الاعلان عن اختلافى فى رأى مع هؤلاء الزعماء الموقرين ، ولكن هذا الاقتراح لم يصادف قبولا لدى هاتين الشخصيتين الكبيرتين اللتين تعلمانى رأيا ومقاما .

وهكذا صغت اقتراحى وقررت ، وقلبى ينتفض خجلا ، أن أعرضه على المؤتمر . وكان من المتفق عليه أن يسانده أمامه كل من مالافيا(❖) وجناح(❖❖❖) . ومع أن اختلافنا فى رأى كان مبرا من كل حقد ومن كل أثر من آثار المرارة التى تعتور النفوس ، وخطبنا كانت خلوا من كل شيء الا ما كان قائما على المنطق البحت والحجة الخالصة ، فقد تكشف لى أن الناس لم يحتملوا مجرد فكرة الاختلاف بيننا فى رأى ، وآلمهم ذلك أيضا ايلام من فرط حرصهم على الوحدة الشاملة بيننا حتى لا يكون للاختلاف مكان بيننا .

وحتى حينما كانت الخطب تلقى من فوق منصة المؤتمر كانت الجهود تبذل بغير انقطاع لمحاولة التوفيق بين الرايين ، والمذكرات

(❖) هو موتيلال نهرو والد رئيس وزراء الهند الأسبق جواهر لال نهرو وكان محاميا بارزا ، وله فضل كبير فى توجيه المؤتمر الوطنى وتكييف سياسته .

(❖❖) زعيم هندى مخضرم ومؤسس جامعة بنارس الهندوسية .

(❖❖❖) مؤسس باكستان ، وكان فى ذلك الوقت عضوا بالمؤتمر الهندى الوطنى .

تبادل بين الزعماء لهذا الغرض . ولم يترك مالافيا وسيلة لرتق الصدع الا ولجأ اليها . وفي وسط هذه المحاولات سلمنى جيرامداس اقتراحا بالتعديل متوسلا الى بأسلوبه الأخاذ الا ما أنقذت المؤتمر من الانقسام الذى يتهدده . وراقنى تعديله المقترح ، فقد كان فى نظرى خليقا بأن يقبله الطرفان . وما كاد ديشابندهو يومئذ الى ايماءة الموافقة هو الآخر ، وحتى قبل أن تخرج كلمة « نعم » من بين شفثيه ، حتى كان مالافيا قد اختطف قصاصة الورق التى تحتوى على التعديل ثم اتجه الى الأعضاء وهو يقول : « أيها الاخوة ! لقد وصلنا الى اتفاق مرضى » . أما ما تلا ذلك فهو ما يعجز القلم عن وصفه ، فقد دوت قاعة الاجتماع بالتصفيق الحاد وحل الانسراح محل الكتابة على وجوه الحاضرين .

لقد كان اشتراكى فى أعمال مؤتمر امريتسار ، فى نظرى ، اول دخول لى فى حلبة الشئون السياسية المتصلة بأعمال المؤتمر الوطنى فى الهند .

وقد كشفت تجربتى فى ذلك المؤتمر عن جانب أو جانبين لعى كان لى فيهما بعض الكفاية التى يمكن استخدامها لخيره .

فقد كان أمام المؤتمر لدورته المقبلة فى العام التالى مسألتان كان لى بهما اهتمام خاص . كانت احدهما مسألة اقامة نصب تذكارى لشهداء مذبحة حديقة جالياناوالا ، وكان المؤتمر قد وافق عليه وسط عاصفة من الحماس الشديد ، وأصبح من الضرورى بعد ذلك جمع مبلغ يقرب من ٥٠٠٠٠ روية لاقامته . وكنت واحدا من الأوصياء الذين عهد اليهم الاشراف على جمع المال . واذا كانت لبانديت مالافيا سمعة هائلة فى مضمار جمع النقود ، حتى وصف بأنه أمير الشحاذين فى المسائل ذات النفع العام ، فقد كنت أدرك كذلك بأننى لا أقل

عنه كثيرا فى هذه الناحية بعد أن اكتشفت هذه القدرة فى نفسى وأنا فى جنوب افريقية .

أما الجانب الآخر من جوانب كفايتى التى كان يمكن للمؤتمر أن يفيد منها فقد كان قدرتى على التحرير ، فقد كشف المؤتمر فى موهبة الايجاز فى التعبير ، وهى موهبة اكتسبتها عن طريق مرانى الطويل . ولما كان دستور المؤتمر الذى يجرى به العمل فى ذلك الوقت قد وضعه جو كهاال فى بداية الأمر وكان يتألف من مجموعة من القواعد قصد منها وقتئذ أن تهيئ أساسا يسير عليه جهاز المؤتمر ، فقد أصبح كل واحد الآن مؤمنا بأن هذا الدستور لم يعد كافيا لمواجهة أعمال المؤتمر المتزايدة .

واضطلعت بمسئولية وضع دستور جديد ، وان كنت اشرتطت أن يشترك كل من لوكامانيا وديشابندهو ، بحق ما لهما من نفوذ واسع بين الرأى العام ، فى لجنة الدستور بوصفهما ممثلين للشعب . ولما كان من الواضح أن عملهما لن يسمح لهما بالاشتراك بشخصيهما فى تلك اللجنة ، فقد اقترحت تعيين شخصين آخرين حائزين على ثقتهما للاشتراك فى وضع الدستور الجديد ، على ألا يزيد عدد أعضاء اللجنة على ثلاثة ، وقبل هذا الشرط .

ولم تستطع لجنة الدستور أن تلتقى ولو مرة واحدة ، فاكتفينا بمشاوره بعضنا بعضا عن طريق المكاتبات ، وخرجنا من ذلك بتقرير رفعناه بإجماع الآراء . بل انى لأنظر الى هذا الدستور فى كثير من الزهو ، فقد كان من رأى أن مجرد استطاعتنا أن نخرج دستورا صالحا يسير عليه المؤتمر كان خطوة تقربنا من الحكم الذاتى .

٧٤ - مولد المغزل البيتي

لا أظن أنني كنت قد رأيت منسجا يدويا أو عجلة من عجلات المغزل حين تحدثت عنهما في كتابي « الحكم الذاتي في الهند » الذي كتبتة في سنة ١٩٠٨ ووصفتها وقتها بأنهما العلاج الشافي لما تئن منه الهند من فقر متزايد . فقد افترضت في كتابي ذلك أن كل عمل يساعد البلاد على الخلاص من الفقر المدقع الذي تنوء به الأغلبية العظمى من أهلها هو في الوقت نفسه خطوة تساعدها على تحقيق استقلالها الذاتي . ولذلك فلما أنشأنا أشرم (صومعة) سابارماتي أدخلنا فيه بعض المناسج اليدوية ، ولكننا ما كدنا نفعل ذلك حتى اعترضتنا إحدى الصعوبات . فقد كنا جميعا من أصحاب المهن الحرة ومن أرباب الأعمال المالية ولم يكن من بيننا من يحنق الحرف الفنية، ولذلك كنا في حاجة ماسة الى خبير من ذوى الدراية في أعمال النسيج يعلمنا كيف ننسج قبل أن نستطيع استخدام الأنوال التي ابتعناها . واهتدينا أخيرا الى خبير من أهل بالامبور ولكنه كان يظن علينا بخبرته . ولم يكن ماجنلال غاندى بالرجل الذي يرضى بالهزيمة أو يقعد عن تحقيق ما تتوق اليه نفسه . ولما كان موهوبا بطبيعته في الأعمال الميكانيكية فقد استطاع أن يمهر في فن الغزل والنسيج في وقت غير طويل ، ولم يلبث أن تبعه في ذلك نفر آخر ممن تلقوا تدريبهم داخل الأشرم .

وكان الهدف الذي نبغيه من وراء كل ذلك أن نستطيع صنع حاجتنا من الملابس مما تخرجه أيدينا ، فلم نلبث أن خلعتنا ملابسنا التي تخرجها المصانع وقررنا ألا نرتدى بعد ذلك الا ما كان مصنوعا

من خيوط الغزل الهندى ، فكان ذلك مصدر خبرة واسعة لنا ، اذ
مكن لنا ذلك ، وما استتبعه من الاتصال الدائم بسوق الغزل
والنسيج ، من الالمام بظروف الحياة بين النساجين ، ومدى ما
ينتجونه ، وما يعترضهم من صعوبات فى سبيل الحصول على
حاجتهم من خيوط الغزل ، وما كانوا يتعرضون له من أساليب الغش
والتدليس ، ثم مدى ما يتراكم فوقهم من ديون متزايدة . ولم تكن
فى بداية الأمر فى وضوح يسمح لنا بأن نصنع على الفور جميع
الأقمشة التى نحتاج إليها ، فلم يكن أمامنا بديل الا أن نستكمل
حاجتنا منها مما يخرجها النساجون الذين يعملون على أنوال يدوية .
غير أنه تبين لنا أن الحصول على أقمشة مصنوعة من خيوط الغزل
الهندى لم يكن بالأمر الهين سواء من تجار الأقمشة أو من النساجين
اليديويين أنفسهم اذ كانت جميع المنسوجات الرفيعة ، حتى ما كان
ينسج منها على أنوال يدوية ، كلها من الغزل الذى يأتى من الخارج .

ولم يكن ذلك نهاية متاعبنا ، فقد صادفتنا صعوبات أخرى
كثيرة ، اذ عجزنا عن الحصول على عجلات للغزل أو الاهتداء الى غزال
يعلمنا كيف نغزل . وكنا فى ذلك الوقت نستخدم بعض العجلات
للـ « الوشائع (الكوك) التى يستلزمها نسج الأقمشة داخل الأشرم ،
وما كنا ندرى وقتها أن تلك العجلات كان يمكن أن تستخدم كمجلات
للغزل .

ومرت بنا الأيام يوماً بعد يوم ونحن لا نجد مخرجاً من تلك
الصعوبة حتى عيـل صبرى وضجرت بسير الأمور ، وكنت كلما
جاءنا زائر أنس فيه بعض المعرفة بشئون الغزل والنسيج أمطرته
بوابل لا ينقطع من الأسئلة والاستفسارات عن هذا الفن . وتبين لنا
فى النهاية أنه لن ينقذنا من ورطتنا الا امرأة نهتدى اليها صدفة

تزلنا على ما نريد ، فقد كان هذا الفن قد أخذ يندثر وما تبقى منه كان في الغالب حكرا على بعض النسوة .

وأخذنى بعض أصدقائي من جوجيرات لأترأس المؤتمر التعليمي الذي عقد في سنة ١٩١٧ وكنت هناك حينما اكتشفت تلك المرأة الفذة ، السيدة جانجابهن ماجموندار . كانت أرملة ولكن قدرتها على العمل كانت لا تعرف حدا . وإذا كان حظها من التعليم ، بمعناه المألوف ، غير كبير فقد كان لها من شجاعتها وإدراكها قسط يفوق ما لكثير من النساء المتعلمات . وكانت فوق ذلك قد تخلصت من سبة التمييز الطبقي الذي كان يجعل من « المنبوذين » طبقة محقرة ، فكانت تختلط بهم ، أولئك الذين غلبوا على أمرهم ، وتعمل من أجلهم ، لا تخشى في ذلك لوما ولا نقدا . كانت لها مواردها الخاصة وكانت حاجاتها مع ذلك قليلة محدودة . وكانت تتمتع ببينة طيبة عركها الزمن فكانت تخرج الى كل مكان دون أن تكون في حاجة الى حماية أحد . وقد زادت صلتي بهذه السيدة الفضلى ومعرفتي بها بعد مؤتمر جودهرا ، فأفضيت اليها بكل ما كان ينتابني من حزن بسبب عجزى عن الحصول على عجلات للغزل ، وكان وعدها بأن تولى البحث عنها كل عنايتها بلسما خفف من الأسى الذي كان يثقل كاهلي .

وأخيرا اهتدت هذه السيدة الكريمة ، بعد بحث طويل ، الى عدد من عجلات الغزل في مدينة فيجابور بولاية بارودا ، فقد كان كثيرون من أهل تلك المدينة يقتنون تلك العجلات ولكنهم كانوا قد أودعوا مخازنهم منذ وقت طويل على أنها أخشاب متخلفة لم تعد ذات فائدة . وقد أبدوا الآن استعدادهم لجانجابهن لأن يستأنفوا غزلهم عليها اذا وجدوا من يمدهم بكميات متواصلة من لقطات (لغائف) القطن المندوف . وكان تزويدهم بذلك مشكلة أخرى . فلما ذكرت أمر هؤلاء الغزالين لاومار سوباني حل المشكلة بأن تعهد

بارسال كميات كافية مما يحتاجون اليه منها من مصانعه ، وسرعان
ما أخذت خيوط الغزل تتدفق بعد ذلك على الأشرم بسرعة جعلت
ملاحظتها مشكلة أخرى .

لقد كان كرم أومار سوبانى عظيما ولكن ما كان فى استطاعتي
أن أظل أطفى على كرمه ، وأخذت أشعر بالخجل كلما أرسل كمية
بعد أخرى من لقطات القطن المندوف . يضاف الى ذلك اعتبار آخر ،
فقد بدا لى أن من الخطأ استخدام لفائف القطن الذى تندفه المصانع ،
اذ لو جاز ذلك لجاز للمرء استخدام الخيوط التى تخرجها المصانع
كذلك فيريح ويستريح . وسألت نفسى : ترى كيف كان القدماء فى
العصور الغابرة يأتون بحاجتهم من هذه اللفائف ؟ ان من المؤكد
انهم لم يتزودوا منها مما تخرجه المصانع . واقترحت على السيدة
جانجا بهن أن تحاول البحث عن صناع يستطيعون تزويدنا بحاجتنا
منها ، واضطلعت هذه السيدة بهذه المهمة فى ثقة واعتداد بنفسها ،
فلم تلبث أن استخدمت ندافا يندف القطن اللازم لغزلنا . وطلب
هذا الصانع خمسة وثلاثين روبية ان لم يكن أكثر من ذلك اجرا له
فى الشهر . وما كان هذا المبلغ ، أو حتى أكثر منه ، باهظا فى
نظري أمام قدرتنا على التغلب على صعوباتنا . ولم نكتف هذه السيدة
بذلك بل شرعت تمرن عددا من الشباب على هذا العمل . واستجديت
من ناحيتي كميات من القطن من بومباى فاستجاب ياشوانت براساد
ديساي لرجائى على الفور . وهكذا نجحت جانجا بهن نجاحا موقفا فى
عملها واستطاعت أن تجد من النساجين من ينسجون الخيوط المغزولة
فى فيجابور ، وسرعان ما اكتسب غزل فيجابور سمعة هائلة وأصبح
علما على نفسه .

وبينا الأمور تتطور فى فيجابور على هذا النحو كانت عجلات
الغزل تثبت وجودها بسرعة داخل الأشرم . وأخذ ماجنلال غاندى

بما وهب من قدرة في الأعمال الميكانيكية يولى هذه العجلات عنايته حتى استطاع أن يدخل عليها عدة تحسينات ، بل لقد أصبح من الممكن بعد ذلك صنعها وصنع ما يلزمها من قطع الغيار داخل الأشرم . وكلفتنا أول قطعة من النسيج اليدوي أخرجها الأشرم ١٧ أنة (٦٨ مليما) للياردة الواحدة ، ولم أتردد في أن أوصى أصدقائي باستخدام هذا القماش على خشونته وارتفاع سعره نسبيا فاستجابوا لذلك ودفعوا هذا الثمن عن طيب خاطر .

وكنت في مدينة بومباي بعد ذلك حين مرضت ، وان لم يكن مرضي الى الحد الذي يحول بيني وبين أن أبحث عن عجلات للغزل فيها . والتقيت مصادفة باثنين من الغزالين كانا يتقاضيان مني روية عن كل سير (نحو ثلاثة أرباع الرطل) من خيوط الغزل . وكنت أجهل في ذلك الوقت اقتصاديات النسيج البيتي وكنت الى جانب ذلك أعتقد أنه ما من ثمن يمكن أن يكون باهظا في سبيل الحصول على الغزل اليدوي . ولكنني لما قارنت هذا السعر بعد ذلك بما كان يتقاضاه غزالو فيجابور وجدت أنني قد خدعت . ورفض غزالو بومباي خفض أسعارهم ومن ثم فقد استغنيت عن خدماتهم ، ولكنهم في الوقت عينه قد حققوا لي غرضا هاما ، فقد علموا صناعة الغزل لثلاثة من السيدات هن افانتيكاباي ، وراميباي كامدار أم شانكر لال بانكر الأرملة ، ثم فاسوماتيبهن . وسرعان ما أخذت عجلة الغزل تهتمهم في حجرتي في مرح فكان لذلك أثره في نفسي ، وقد لا أكون مبالغا اذا قلت ان طنينها الجذاب كان بعض السبب في إبلاي من مرضي . وأنا مستعد للاعتراف بأن أثرها كان نفسيا أكثر منه جسمانيا ، ولكن حتى اذا كان الأمر كذلك فهو دليل على مدى تأثير الجسد بالنواحي المعنوية . وقد شاركت في ادارة عجل الغزل ولكنني لم أفلح كثيرا في ذلك الوقت .

وكننت فى ذلك الوقت قد فرغ صبرى واصبحت فى شوق الى
الاقتصار فى جميع ملابسى على الأقمشة اليدوية وكان ازارى لا يزال
مما تخرجه مصانع النسيج الهندية . ولما كان القماش الخشن الذى
كان يصنع فى الأشرم وفى فيجابور لا يزيد عرضه على ٣٠ بوصة
فقد أنذرت السيدة جانجا بهن بأنها اذا لم تستطع أن تزودنى بقماش
لازارى عرضه ٤٥ بوصة فى خلال شهر واحد فسوف أجد نفسى
مضطرا الى ارتداء ازار قصير . ووقع هذا الانذار عليها كالمصاعقة .
ولكنها أثبتت بعد ذلك أنها ند لما طلب منها ، فقد أرسلت الى . ولما
ينقضى الشهر ، ازارين عرضهما ٤٥ بوصة ، وبذلك أنقذتنى من
موقف صعب لو تحقق لكان مثار حرج كبير لى .

وجاء لاكشميداس الى الأشرم فى حوالى ذلك الوقت ، يصحبه
رام جى النساج وزوجته فعكفا على تحسين صناعة الأقمشة التى
تستخدم فى عمل الازارات . ولم يكن الدور الذى أدياه فى نشر
صناعة النسيج اليدوى بالدور الذى يستهان به ، فقد علما طائفة
كبيرة من الناس ، فى جوجيرات وفى غيرها ، فن صناعة النسيج من
الخيوط المغزولة باليد .

٧٥ - وداعا

حان الوقت الذى يجب على أن أنهى فيه الآن فصول هذه
القصة .

فقد أصبحت حياتى بعد الآن مرتبطة بالمسائل العامة ، فلم
يعد فيها ما لا يعرفه الناس جميعا .

بل الواقع ان قلدى ليرفض أن يطاوعنى لو أننى حاولت إن
أسرد شيئا من قصة حياتى بعد ذلك .

ومع ذلك فلن أستطيع أن أودع القارىء فى هذه المرحلة الا اذا
انتزعت نفسى منه انتزاعا .

ان لتجاربى قدرا كبيرا فى نظرى ، وان كنت لا أدرى هل
استطعت أن أوفىها حقها من العرض السليم . وكل ما أستطيع أن
أقوله هو أننى لم أدخر وسعا لكى أروى قصة حياتى بصدق وأمانة .
لقد كان جهدى كله متجها الى تقصى الحق كما تجلى لى ، فكان ذلك
معينا لا ينضب من المدد الروحى الذى بعث الى نفسى الاستقرار
والسكينة وأوحى الى عقلى بالهدوء والسلام ، فان أعظم أمنية لى من
رواية تجاربى هى أن يكون فيها ما يعيد الايمان بالحق وبالمحبة لمن
كان مترددا أو كان فى قلبه زيغ .

فلقد أقنعتنى تجاربى فى مختلف نواحي الحياة بأنه ما من اله
غير الحق . واذا كان فى صفحات هذه الفصول ما لا يوحى الى القارىء

بأن الطريق الوحيد للوصول الى الحق هو طريق المحبة ، فلا مناص
لى من أن أعتبر كل ما بذلته من جهد فى تصنيف هذه الفصول قد
ضاع هباء منثورا • وحتى اذا كانت جهودى فى هذا السبيل لم
تثمر ، ولم تؤت أكلها ، فرجائى الى القارىء أن يذكر أن الخطأ فى
ذلك انما هو فى طريقة العرض ، لا فى المبدأ نفسه • على أن جهودى
فى سبيل نشر المحبة مهما كانت خالصة مخصصة فهى بالضرورة غير
كافية وغير مبراة من كل شائبة • فاللمحات السريعة التى استظمت
فيها أن أتبين الحق لا يمكن أن تعطى صورة كاملة عن نور الحق
المتلألئ الذى يسمو فى اشعاعه على نور الشمس الساطعة ، الذى نراه
بأعيننا كل يوم ، ملايين المرات • بل الواقع ان ما رأيته من ذلك
النور ليس الا بصيصا خافتا من نور الحق المشرق • ولكن شيئا
واحدا مع ذلك أستطيع أن أقوله فى ثقة ويقين بعد كل تجاربي ،
وهو أنه لا سبيل الى رؤىة الحق الا بعد السمو الى أقصى المراتب فى
محبة الكائنات جميعا •

نعم ، فلكى نستطيع أن نشاهد روح الحق التى تسود الكون
وتتخلل كل جنب من جنباته ونلقاها وجها لوجه يجب أن نتعلم كيف
نحب أدنى المخلوقات وأقلها شأنًا كما نحب أنفسنا • والرجل الذى
يطمع فى ذلك لن يستطيع مع ذلك أن ينأى بنفسه عن أى ميدان من
ميادين الحياة • وهذا هو السبب فى أن اخلاصى للحق قد جذبنى
الى ميدان السياسة • وانى لأستطيع أن أقول فى غير تردد على
الاطلاق ، ولكن فى تواضع كبير ، ان من يقولون بأن الدين لا شأن
له بالسياسة لا يعرفون كنه الدين •

وكذلك لن يستطيع المرء أن يتعرف على كل شيء حى الا اذا طهر
نفسه من أدرانها • فمن غير أن يطهر الانسان نفسه ستبقى كل طاعة
لقانون المحبة حلما غامضا وسرابا يخدخ الناظرين • والله تعالى لن

يتجلى لمن كان قلبه أعمى ، لذلك كان تطهير النفس معناه تخليصها
من جميع أدرانها فى كل ناحية من نواحي الحياة • ولما كان تطهير
النفس ينتقل بالهدوى كان تطهير الانسان لنفسه باعثا على تطهير
البيئة التى يعيش فيها •

غير أن طريق الطهر طريق شاق شديد الانحدار • ولكى يصل
الانسان الى أكمل درجات الطهر يجب أن يتخلص فى تفكيره ، وفى
حديثه ، وفى فعله ، من كل أثر للشهوات ، وأن يرقى بنفسه فوق
مستويات التذبذب بين الحب والكراهية ، بين الوصول والبعد • وانى
لأدرك أننى لم أصل بعد الى الطهر المنشود فى هذه النواحي الثلاث ،
على الرغم من جهودى التى لا تنقطع فى سبيل ذلك ، ولهذا كان
اطناب العالم كله لا يهزنى أو يحركنى ، بل انى كثيرا ما أحس
بوخزه •

وان قهر الشهوات الكامنة فى النفس لهو أشق بكثير من قهر
العالم أجمع بحد السيف • وقد أحسست منذ عودتى الى الهند بأثر
هذه الشهوات التى ترقد فى كوامن النفس وتختفى فى أعماقها ،
فكان احساسى بذلك يشعرنى بالذلة والهوان وان لم يشعرنى
بالهزيمة •

ومع أن تجاربي كانت تشد من أزرى وتبعث فى نفسى سرورا
عظيما ، فانى أعلم مع ذلك علم اليقين أن الطريق أمامى لا يزال
طويلا ووعرا ، وأن على أن أنقص من قدر نفسى وأن أتضائل حتى
أكون صفرا ، فانه لا سبيل الى خلاص المرء الا اذا اتخذ مكانه طائما
مختارا فى نهاية الصف بين زملائه فى البشرية • ذلك أن المحبة
والتعفف عن العنف والكراهية هما أعلى مراتب التواضع •

وانى اذ أودع القارىء الآن ، على الأقل مؤقتا ، أرجو منه أن
يشاركنى فى الدعاء الى الاله الحق أن يسبغ على نعمة المحبة فى
تفكيرى ، وحديثى ، وفعلى •

فهرس

| صفحة | صفحة |
|------|------|
| ٦٧ | ٥ |
| ٧٠ | ٩ |
| ٧٢ | ١١ |
| ٧٦ | ١٤ |
| ٨١ | ١٦ |
| ٨٣ | ٢٠ |
| ٩٣ | ٢٣ |
| ٩٥ | ٢٥ |
| ١٠٠ | ٢٩ |
| ١٠٥ | ٣١ |
| ١٠٨ | ٣٤ |
| ١١١ | ٣٩ |
| ١١٤ | ٤٤ |
| ١١٧ | ٤٩ |
| ١٢٢ | ٥٣ |
| ١٣١ | ٥٩ |
| | ٦٠ |

| صفحة | صفحة |
|-----------|------------------------------------|
| ١٩٣ | ١٣٤ بساطة فى الحياة |
| ١٩٦ | ١٣٦ ذكرى وتوبة |
| ٢٠١ | ١٣٩ حرب البوير |
| ٢٠٥ | ١٤٢ اصلاحات صحية بين الهنود |
| ٢٠٧ | ١٤٤ هدايا قيمة |
| ٢١١ | ١٤٨ أول مؤتمر أحضره |
| | ١٥٣ فى بومباى |
| ٢١٤ | ١٥٥ فى جنوب افريقية مرة أخرى |
| ٢١٧ | ١٥٨ « الرأى الهندى » |
| ٢١٩ | ١٦٠ سحر فى كتاب |
| ٢٢١ | ١٦٢ مزرعة فينكس |
| ٢٢٣ | ١٦٥ بيتى |
| | ١٦٧ حياة التبتل |
| | ممارسة تعاليم الساتياجراها |
| ٢٢٦ | ١٧٠ داخل البيت |
| ٢٢٨ | ١٧٣ مزيد من ضبط النفس |
| ٢٣٢ | ١٧٦ مولد الساتياجراها |
| ٢٣٧ | ١٧٨ الى السجن |
| ٢٤٠ | استئناف حركة |
| ٢٤٧ | ١٨٢ الساتياجراها |
| ٢٥٠ | ١٨٥ مزرعة تولستوى |
| ٢٥٤ | ١٨٩ النساء يشتركن فى الجهاد |
| ٢٦٠ | وداعاً ! |